التفاحة الذهبية

نساءِ نوبل.. الفائزات في الآداب

د.خالد محمد غازي

الكتاب: التفاحة الذهبية .. نساء نوبل.. الفائزات في الآداب

الكاتب: د.خالد غازي

الطبعة: 2018

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



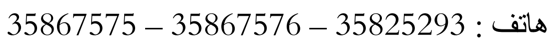
5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

غازي ، د.خالد

التفاحة الذهبية .. نساء نوبل.. الفائزات في الآداب / د.خالد غازي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

307 ص، 18 سم.

الترقيم الدولى: 0 – 281 – 446 –977 –978

أ – العنوان رقم الإيداع : 4650 / 2018

التفاحة الذهبية

نساء نوبل.. الفائزات في الآداب





مقدمة

هل ثمة من عوامل وسمات مشتركة تجعل من نساء نوبل يقفن بدرجة واحدة تحت مظلة محددة من حيث اصطفافهن وفق معيار تميز الأداء الإبداعي؟.. وهل من دوافع أخرى محفزة تجعل من الضرورة تناول سيرة حياة وإبداع هؤلاء النسوة؟

لا شك أن أسطورة نوبل والفوز بها، تشبه الأحلام واللا معقول والمفاجأة، حيث تبقى الدهشة ما بقيت نوبل تمنح جوائزها.

أربع عشرة امرأة فقط فزن بالجائزة في محيط بحر زاخر من الرجال، فغدون كنقطة في محيط، فهل يمكن القول بأن الجائزة ذكورية الهوى لا مكان لحواء في تدافع عطائها إلا ما ندر؟ فيما تلاشى تباعاً كل اسم أي مبدعة عربية كانت أو آسيوية السمات من المبدعات في أفق الجائزة، هذا إذا افترضنا جدلاً أن ثمة أسماء من هذا القبيل قد تم ترشيح أسمائهن سلفاً.

وبالعودة لحياة تلك النساء اللاتي فزن بالجائزة نكتشف أن ثمة روابط قد جمعن بينهن، تتمثل في مفردة واحدة هي الاضطهاد، التي ما فتئت تشير بجلاء إلى أنه المرجل الذي انصهرت في أتونه كل مكونات مفاعيل الإبداع فيهن، فتفجرت من طينة الأسى كتل اللهيب ووميض ما سطرت أيدي نساء نوبل، يتعدد ظرف المعاناة لكل منهن إلا أن الناتج واحد هو مولد تشكّلت ملامحه من صلب الإبداع.

وأستحضر هنا "سلمى لاجيرلوف" أول كاتبة حصلت على نوبل "حينما أكتب أعيش في وحدة كبيرة وعليَّ أن أختار بن عيشي لوحدي ووحدتي ومن ثم انطلاق القلم أو أن أكون بين الآخرين فلا أسطر شيئاً".

ويُمثل عام 1909 نقطة تحوُّل مهمة في تاريخ ومسيرة الفائزين بجائزة نوبل للآداب، فقد شهد فوز أول امرأة بها، وهي "سلمى لاجيرلوف" السويدية الجنسية، والتي كانت فاتحة خير لبنات جنسها، ليسجلن أسماءهن بحروف من مجد أدبي في اعتلائهن عرش هذه الجائزة العالمية، وتلتها في الفوز الإيطالية "جراتسيا ديليدا" عام 1926، ثم النرويجية "سيجريد آندسيت" عام 1928

وشهد عام 1938 كسر الاحتكار الأوروبي للجائزة عقب فوز الأمريكية "بيرك بك" بها، وتلتها التشيلية "جابريللا ميسترال" عام 1945، ولاعتبارات سياسية وبضغوط صهيونية فازت بها الألمانية اليهودية "نيللي ساخس" عام 1966.

ولأول مرة تفوز كاتبة إفريقية بالجائزة عام 1991، رغم أنها بيضاء ومن أصول أوروبية تُدعى "نادين جورديمر"، لكنها كانت من أشهر المناهضين للسياسة العنصرية بجنوب إفريقيا، وأعقبها فوز الأمريكية الزنجية "توني موريسون" عام 1993، التي سارت على درب "جورديمر" في انتقادها لسياسة التمييز العنصري، التي اجتاحت المجتمع الأمريكي، واكتوى بنارها السود أو ذوي الأصول الإفريقية، وأخيراً فازت بها البولندية "فيسلافا شيمبورسكا" عام 1996.

وما بين "لاجيرلوف" و"شيمبورسكا" يتضح أن العقد الأخير من القرن العشرين هو أكثر عقد شهد فوز النساء بالجائزة، وذلك خلال ثلاثة أعوام هي 1991، 1993، 1996، بينما لم تفزن بها خلال أربعة عقود، وهي العقد الثاني الممتد من 1910 حتى 1920، وعقود الخمسينات والسبعينات والثمانينات، ويتضح لنا أيضاً أن القارة الأوروبية فازت بنصيب الأسد من عدد مرات الفوز، فقد كان ذلك لخمس مرات خلال أعوام 1909، 1926، 1928، 1966، 1996، وتلتها الولايات المتحدة الأمريكية بنصيب مرتين خلال عامي 1938، 1993، وكان نصيب كل من إفريقيا وأمريكا اللاتينية مرة واحدة لكل منها الأولى عام 1945 والثانية عام 1991.

كان للمرأة الأوروبية النصيب الأوفر في فوز عدد كبير من نسائها بجائزة نوبل، مما يجعلنا نلتفت إلى وضعية المرأة في المجتمع الأوروبي، ولم تكن المجتمعات في القارات الأخرى أفضل حالا من وضعية المرأة الأوروبية.

عانت المرأة في أوروبا خلال العصور الوسطى أو ما يُعرف بعصور الظلام، وما قبلها من عبودية كاملة، فنبذت أحيانا وأحرقت في أحيان أخرى، وهذا الاضطهاد كان بمثابة وقود أشعل ثورة المرأة الأوروبية لتحررها ولتحصل على حقوقها، مع بدايات القرن العشرين، حيث حصلت على حريتها الكاملة وحقوقها االاجتماعية والسياسية والقانونية، حتى وصلت إلى المساومة الكاملة مع الرجل بل تفوقت عليه وأصبحت المرأة في قيادة أبرز الدول الأوروبية.

لقد تجرعت المرأة في أوروبا أشد أشكال القهر والامتهان منذ الإمبراطوريات القديمة، مثل الإمبراطورية الإغريقية والرومانية، بالرغم مما كانت عليه من تحضر وتقدم،لم تقم للمرأة أي وزن، حيث كانت تعتبرها كائنا تابعا للرجل ليس له حقوق مستقلة، وهو ما يتضح في المقولة الشهيرة للفيلسوف اليوناني أرسطو: "إن الطبيعة لم تزود المرأة بأي استعداد عقلي يعتد به"، واستمرت معاناة المرأة في العصور الوسطى، حيث أصبحت أبرز ضحايا الكنيسة في أوروبا، وكان يُنظر إليها على أنها من الأسباب الرئيسية للخطيئة، وأحد أوجه الشيطان، وهو ما كان يوفر المناخ الديني والمجتمعي في أوروبا لترسيخ واستمرار استعباد المرأة، ولكن كل هذا لم يمنع ظهور كاتبات تطالب بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها وتتصدى لتلك الممارسات في حقها، كما فعلت كريستين دو بيزان التي تُعدُّ من أوائل المطالبات بحقوق المرأة من خلال كتابها "مدينة السيدات" عام **1405**، وكانت مطالبها مشروعة تتمحور حول حق التعلم وحق الملكية الفردية وإدارة المرأة لأملاكها.

وبعد اندلاع الثورة الفرنسية في أواخر القرن السابع عشر، ورفعها شعار "الحرية – المساواة – المؤاخاة"، ثم عصر النهضة الصناعية الأوروبية والتفتح الفكري والثقافي والاجتماعي، ظلت قضية المرأة بعيدة عن كل ذلك التطور ليست ذات شأن فعلي، في الأوساط الأوروبية سواء الاجتماعية أو السياسية، بل واعتبر أحد كبار الفلاسفة وهو الفيلسوف السويسري جان جاك روسو: "أنه من طبيعة المرأة أن تذعن بالطاعة للرجال"، مما يعكس أن النهضة الأوروبية في بداياتها لم تكترث بالمرأة ولم

تغير شيئا من وضعها، على الرغم من مشاركة نساء الطبقات المختلفة في أوروبا الرجال كأيد عاملة في المصانع والمهن اليدوية، ولكنها كانت تحصل على راتب أقل مقارنة بالرجل، ولم يكن هناك بعد حقوقا لها أو اهتماما بتعليمها أو صحتها.

لم تتوقف سيدات أوروبا عن المطالبة بحقوقهن في تلك الحقبة الزمنية الصعبة، فقد نشرت الكاتبة الفرنسية أوليمب دو خوج بعد عامين من الثورة الفرنسية مقالا بعنوان "حقوق المرأة"، وهو ما كلفها حياتها، حيث أعدمت في عام 1793م بتهمة مناهضة الثورة.

ومع تخلص أوروبا من سطوة بالكنيسة بسيطرة الفكر العلماني، الذي أقصى الدين تماما عن المجتمع بما في ذلك دور الكنيسة والباباوات، بدأت المرأة تتخلص من عبوديتها والقيود التي فرضت عليها تدريجيا، وكان ذلك بمثابة بداية لثورة نسائية أوروبية تُحطّم الظلم الواقع عليهن منذ قرون، واستخدمت المرأة في سبيل تحررها أسلحة عديدة لانتزاع حقوقها، كان منها التظاهرات والإضراب، واستخدمت الصحافة للمطالبة بحقوقها ومنها، الحقّ القانوني والسياسي في التصويت والانتخاب، والتمثيل في البرلمان ومجالس البلديات، واعتمدت على مبادئ العلمانية التي تساوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات في إطار المواطنة وعدم التفريق على أساس الجنس أو الدين أو اللون.

وعلى الرغم من أن أغلب ذلك الزخم للحركة التحررية النسوية كان في فرنسا، إلا أن الدائرة اتسعت لتشمل دول شمال أوروبا وفي

مقدمتهم بريطانيا، والتي كانت هي وفرنسا البلدين الأهم في أوروبا آنذاك، فألفت المفكرة البريطانية "ماري وولستونيكريفن" اقتداء بنظيراتها الفرنسيات كتاب "الدفاع عن حقوق المرأة" عام 1792م، والذي يعتبر أصلاً للحركة النسائية العالمية، ومرجعا فكريا لها، وفي عام 1888 م تأسست جمعية نساء الولايات المتحدة الأمريكية، وفيما بعد تأسست جمعية "نساء العالم" بمبادرة من نساء واشنطن، وهو ما كان له تأثير مباشر في تطوير ودعم الحركة النسوية الأوروبية للتشابه الثقافي والمجتمعي فيما بينهما.

وسرعان ما تصاعدت الحركة النسوية التحررية في أوروبا على نحو أكبر، وخاصة في نهاية القرن التاسع عشر، وأخذت قضية حقوق المرأة مكانة في الحيز الفكري والمجتمعي حتى بين العديد من الرجال الأوروبيين، والذين كان من أشهرهم الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت الذي دافع بقوة عن الحقوق المشروعة للمرأة ورفض اضطهادها وامتهانها والتقليل من شأنها، وظلت أصوات المدافعين عن حقوق المرأة ترتفع شيئا فشيئا إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى ولحقتها الثانية، مما كان له أثر واضح في تاريخ تلك الحركات، وأضاف الكثير من المشروعية والتقبل المجتمعي لمطالبها، وأصبحت الحركات النسوية لها قبول ومكانة شعبية ورسمية، ومع ما كانت تحمله طبيعة العصر الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا من بشائر للتغيير، تصاعدت معه وتيرة محاولات المرأة من أجل المساواة، واعتبرت الحركات النسوية ظاهرة اجتماعية ترتبط بشكل مباشر بالمرحلة الرأسمالية عقب النهضة في أوروبا، حيث بدأت النساء في الدول الأوروبية بتأسيس

المنظمات والجمعيات والنقابات وإصدار الصحف النسائية المعبرة عن طموحات المرأة وأهدافها في المساواة الكاملة مع الرجل في كل شيئ، وعرفت أول حركة للمنظمات النسائية باسم "فيمنيزم" أو الحركة النسوية، ومن أبرز نماذجها، "حركة تحرير المرأة" التي أسستها أنطوانيت فوك، و"الحركة النسوية"، والتي تعد سيمون دي بوفوار من رائداتها، و"الجامعة الفرنسية للمرأة" في بريطانيا.

كانت نساء فرنسا سباقات في التحرر وانتزاع حقوقهن، وسرعان ما احتذت بهن باقي نساء أوروبا، فانطلقت نساء إنجلترا للمطالبة والدفاع عن حقوقهن، وتوالت صرخات التحرر النسوية والمطالبة بالحقوق وقد استطاعت المرأة الحصول على حق التعليم في فرنسا بعد إعلان ميثاق الحقوق والمواطنة عام **1805**، وبعدها بحوالي مائة وثلاثين عاما حصلت المرأة الفرنسية على حق التصويت والترشح بموجب القانون الذي وقّع عليه شارل ديجول في عام **1944**، في حين حصلن روسيا على حقهن في التصويت عام **1917**، ونساء إنجلترا عام **1918**، وأقرّ في ألمانيا عام **1919**

وقد شهد عام **1904** م تأسس "الاتحاد النسائي العالمي" من أجل حقوق المرأة السياسية، وكذلك تأسس الاتحاد النسائي البريطاني، وفي ألمانيا قامت جريدة "كلايشهايت" التي كانت تصدرها النساء الاشتراكيات، بدور كبير في الدعوة من أجل المساواة. ومن شتوتجارت الألمانية اقترح في عام **1907**، اعتبار يوم الثامن من مارس يوما عالميا

للمرأة، من أجل المساواة في الحقوق وكان ذلك نقطة انطلاق في الحركة النسائية التضامنية، وهو ما كان واحتفلت به نساء أمريكا لأول مرة عام 1909، وبعدها بست سنوات احتفلت نساء كل من النمسا وهولندا وروسيا وألمانيا وهنغاريا وسويسرا بالثامن من مارس كيوم للتضامن مع المرأة. وفي العام 1917 حدثت تغيرات فيما يتعلق بقضية المرأة إذ تمكنت الحركة النسوية من الحصول على حق الانتخاب في ست دول هم "النرويج، الدنمارك، النمسا، فنلندا، أيسلندا، نيوزلندا"، وبعدها بأربع سنوات بلغ العدد سبعة عشر بلدا، وتزايد العدد ليصل إلى 121 بلدا عام 1970، واستمر العدد في التصاعد، ولكن مع ذلك بقيت نسبة النساء في التمثيل السياسي أقل من نسبة الرجال، مما يشير إلى أن الاهتمام الاجتماعي كان يسبق الاهتمام السياسي في أولويات الحركات النسوية.

وعلى الرغم من المكاسب التي حققتها الحركات النسوية في أوروبا، إلا أنها واجهت عدة إشكاليات صعّبت من دورها وأجّلت تحقيق أهدافها، منها أن الواقع الثقافي في المجتمعات الأوروبية لم يكن على استعداد كبير لتقبل الحراك الجديد، بجانب محدودية قطاع النساء الأوروبيات ذوات الاهتمام بهذا المنحى وقضايا الحقوق والتعليم والصحة، وكانت الإشكالية الأخطر هي انحراف اتجاه الحركة النسوية من المطالبة المشروعة بحقوق المرأة وتحررها، إلى رفع شعارات غير واقعية كانت سببا في إلحاق الضرر بالنساء أكثر مما أفادتهن، من بين تلك الشعارات: إصرار

الحركة النسائية على المساواة الكاملة بين المرأة والرجل، والتي اعتبرت مغالاة وظلما جديدا للمرأة الغربية.

وقد اختلف التأثير الفكري والمجتمعي للحركات النسوية على المرأة وأوضاعها، بحسب أهداف كل منها، والتي تنقسم إلى نوعين: الأول حركات تدعو للحرية المتعلقة بحقوق المرأة المادية، ومنها الحريات الشخصية في التملك والتعلم والحقوق السياسية والقانونية، والنوع الثاني يتمثل في الحركات التي تدعو للحرية المتعلقة بحقوق المرأة المعنوية والروحية، ومنها حرية الإرادة والاعتقاد والفكر والثقافة والأخلاقيات، ومرت تلك الحركات النسوية خلال مسيرتها التحررية بثلاث مراحل: الأولى وكانت مرحلة الانطلاق، وطالبت بحقوق مشروعة كالحق في التعليم والعمل والامتلاك، ثم المرحلة الثانية وهي مرحلة الصعود، وكانت بعد الحرب العالمية الثانية بصدور كتاب بيتي فريدان "القداسة الأنثوية" عام 1964، واستمرت حتى بداية التسعينات، وفيها اتخذت الحركات النسوية نمطا صراعيا بين الرجل والمرأة، وظهرت المطالبة بالمساواة المطلقة والحرية في الإجهاض، والمساواة في العمل والرواتب، والقضاء على الخطاب الذي يعتبر المرأة أداة متعة لا غير، ونجحت الحركة النسوية خلال تلك المرحلة في استصدار مجموعة تشريعات أضافت الكثير للمرأة منها إقرار المساواة في الأجور، وتجريم التمييز الجنسي في العمل، وإقرار الحق في الإجهاض، وأنشئت المنظمة الوطنية للمرأة "N..W" في الولايات المتحدة، وكانت هناك عدة تشريعات مماثلة في قضايا التعليم والذمة المالية والزواج والطلاق

في أواخر القرن العشرين، وتم التقدم بقانون حق المرأة في الطلاق دون سبب أو ضرر يقع عليها، وأقر فيما بعد.

المرحلة الثالثة في مسيرة الحركات النسوية، وتُعرف بمرحلة "ما بعد الحداثة"، وتوسعت فيها مطالب تلك الحركات، حيث وصلت المرأة لكافة المناصب العليا وقيادة الدول، وتساوت في كافة والحقوق مع الرجل بما في ذلك الحقوق الاجتماعية، بل امتدت تلك الحركات في هذه المرحلة لتصل للتحرر الأخلاقي والديني والجنسي للمرأة، مما ظهر في منظمة "فيمن" النسوية كرمزية للتحرر الكامل للمرأة الأوروبية، وتحررها من كافة القيود الأخلاقية والدينية والاجتماعية والثقافية والمعنوية.

وقد أشارت منظمة الأمم المتحدة لأول مرة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إلى التساوي في الحقوق بين الرجل والمرأة عام 1948م، كما صادقت الولايات المتحدة على مساواة المرأة للرجل في الحقوق السياسية في عام 1920م، وذلك على الرغم من اعترافها بحقوق الإنسان العامة عند إعلان استقلالها.

وكان عام 1946 الأكثر تأثيرا في مسيرة تحرر المرأة الأوروبية، حيث فتحت أمامها أبواب السلطة، ودخلت أول امرأة فرنسية عالم السلطة في منتصف عام 1946، حيث أصبحت أندريه فيينو أول نائب وزير، وكانت في وزارة الشباب والرياضة.

بعد ذلك جاء ما يُعرف بعصر الحداثة الأوروبية انتزعت المرأة حقوقا لم تكتسبها من قبل، كإقرار المساواة في الأجور والعمل، وتجريم التمييز الجنسي، وإقرار الحق في الإجهاض، وتشريعات أخرى مماثلة في قضايا حق التملك والذمة المالية والتعليم، أيضاً إصدار تشريعات لصالح المرأة في الطلاق والزواج في ثمانينات وتسعينات القرن العشرين، وحق التنقل والإقامة للمرأة، كذلك قانون حق المرأة في الطلاق دون سبب أو ضرر يقع عليها، وأنشأت العديد من المنظمات النسوية من أمثال "حركة تحرير المرأة" في أوروبا، والمنظمة الوطنية للمرأة "N..W" في الولايات المتحدة، بعدها اتخذت الحركة التحررية النسوية نمطا صراعيا بين الرجل والمرأة، وظهرت المطالبة بالمساواة المطلقة والحرية في الجسد، والقضاء على الخطاب الذي يقلل من شأن المرأة، ووصلت إلى التحرر الجسدي وتحررت المرأة من كافة القيود الدينية والاجتماعية والثقافية والمعنوية

مع حصول المرأة في أوروبا على كافة حقوقها ووصولها لمرحلة التحرر الكامل، تمكنت من تولي المناصب العليا والقيادية، والمشاركة الفعالة في النهضة والحضارة الأوروبية كتفا إلى كتف بجانب الرجل، حتى باتت تتولى مراكز القيادة في مختلف الميادين .

ولم يكن فوز هؤلاء النساء بجائزة نوبل في الآداب وليد مصادفة أو انطلاقاً من فراغ، لأنه كما يرى علماء ومفكرو الإبداع والمهتمون بالحركة الأدبية أن الإبداع ابن شرعي لمحن وأزمات ومُعاناة، وحالة من القلق وعدم الاستقرار أو التوافق سواء بين المبدع وذاته أو مع الآخرين والمجتمع بصفة عامة، وأياً ما كان السبب فإن الأزمة مردودها سلاح ذو حدين، فإما أن

يُصيب المبدع بحالة من التحفز الإبداعي يدعّمه ويقوّيه ويساعده على الاستمرار والإنتاج الفكري والإبداعي، وإما أن يُصيبه بالإحباط ويجعله مجرد حطام..

وبنظرة متعمقة للسيرة الذاتية لكل فائزة من هؤلاء النوبليات يتضح أنهن تشتركن في وجود معاناة مرت بها كل منهن، وباستقراء هذه الأزمات واستنطاقها يتضح أن المعاناة الذاتية كان لها أبلغ الأثر كحافز إبداعي، وهو ما نراه واضحاً في السيرة الذاتية والمسيرة الإبداعية للفائزات.

بلا أدنى شك لن يكون الحافز والمنطلق للفائزات بنوبل في الآداب دافع تميّز على أساس الجنس، على الرغم من أن معظمهن ذقن مرارة التمييز والعنصرية، ولم يشفع لبعضهن أنهن نشأن في ظلال رفاهية ورقي المجتمع الصناعي الذي تحكمه أسس المساواة، بل يُعد الحافز الأبرز لخوض هذه التجربة وتكبد صعابها، وتألق الإبداع؛ لذا كان من الضروري استقراء السيرة الذاتية لكل منهن، ولما كانت ضرورات الإضافة لرافد المبدعات تترى على الطريق بطبيعة عنصر ديمومة الجائزة نفسها المتجددة، يصبح عنصر الكتابة عنهن ذا طبيعة مفتوحة لاستقبال عروس لنوبل عند كل إتحاف لإحداهن بنيل هذا الشرف الرفيع، ولتبقى للكتاب طبيعته غير الجامدة من حيث الحذف والإضافة وفقاً لمتطلبات الفائزة القادمة، بل القادمات الجدد على طريق نوبل، وهذا ما يجعل ما كتبناه اجتهادا ورؤية خاصة من حيث إنه ليس في إمكان أحد أن يكتب خاتمة القول، ولا أن يضع حتى كاتبه كلمته الأخيرة ونقطة على آخر السطر.

القسم الأول
سيرة وأدب مبدعات نوبل

سلمى لاغرلوف.. ملكة الأدب السويدي

أصبحت سلمى لاغرلوف بفضل ما مرت به من معاناة هي أبرز وجوه الأدب السويدي في القرن العشرين، خاصة وأنها أصبحت من أعضاء الأكاديمية التي تمنح الجائزة في عام 1914 أي عقب فوزها بخمس سنوات فقط.

حين حصلت سلمى لاغرلوف على جائزة نوبل عام 1909 كانت في قمة شهرتها وعطائها ومجدها الأدبي، ولكنها مع كل هذا كانت تنتظر المبلغ المالي الذي تتضمنه الجائزة لتفك الرهن لتستعيد منزل والدها الذي قضت طفولتها فيه، واضطرت لتركه بعد أن تم بيع المنزل الذي قضت فيه طفولتها لسداد ديون والدها الذي مات مديونًا.

إن معاناتها بدأت معها منذ طفولتها المبكرة بل منذ لحظة ولادتها، ولم تفارقها هذه المعاناة حتى وقفت على منصة تتويج نوبل في العاشر من ديسمبر عام 1909م أمام جمع غفير من المدعوين لحضور مراسم التتويج في فندق كبير في العاصمة ستوكهولم أمام ملك وملكة السويد لتتسلم جائزة نوبل.

قالت سلمى لاغرلوف عن هذه المعاناة التي لازمتها حتى قبل أيام قليلة من استلام أرفع الجائزة في الأدب يمكن أن ينالها أديب أو مبدع:

"منذ أيام قليلة مضت، كان الوقت أول المساء، كنت أجلس في القطار متجهة نحو ستوكهولم، وكان يوجد ضوء قليل في مقصورتي، بينما الخارج يغرق في الظلام، كان يغفو رفقائي المسافرون في أركانهم، كنت هادئة جدًا أستمع إلى جلجلة القطار، تلك اللحظات بدأت أفكر في الأوقات التي كنت آتي فيها إلى ستوكهولم، كانت عادة أوقاتا للقيام بعمل صعب مثل إجراء اختبارات للحصول على وظيفة أو البحث عن ناشر لكتاباتي، ولكن هذه المرة أتيت لأتسلم جائزة في الأدب، أعتقد بأن ذلك سيكون صعبًا أيضًا".

ولا مراء أن المعاناة التي مرت بها كانت هي النار التي صهرت موهبتها كما تصهر النار سبيكة الذهب، فلا شيء يجعلنا عظماء إلا ألم عظيم، فإذا استمر الألم والمعاناة لسنين طويلة وتراكمت آثارهما وزادت ضغوطاتهما عبر الزمن غالبًا ما تكون النتيجة هي الإبداع أو التحول كما يحب أن يسميه فرويد.

في 20 نوفمبر 1858م ولدت سلمى لاغرلوف في إقليم ماريا كا الواقع في مقاطعة فارملاند، الذي كان تابعًا لكل من النرويج والسويد معًا، وهو إقليم يقع وسط مناطق الجبال بين البلدين. في هذه المنطقة عاشت أسرة لاغرلوف، وتربت بين أحضان أبيها عقب وفاة أمها وهي صغيرة السن، وكان اليتم هو أول حلقات المعاناة في حياة الطفلة الصغيرة سلمى، ورأت في أبيها مثالا يعتد به في الثقافة والأدب، حيث كان يمتلك مكتبة ضخمة، وكان يحفظ الشعر

وقد أصيبت وهي في التاسعة من عمرها بشلل في الساقين، أقعدها عن اللعب والحركة، وأبعدها عن المدرسة وهي حلقة جديدة من حلقات المعاناة في حياة هذه المبدعة الكبيرة، حيث ولدت في الأساس بعيب خلقي في ركبتها تركها مشلولة لفترة من الوقت، ثم تعافت بعد ذلك، ولكن بقيت تعاني عرجًا بسيطًا، وبالرغم من ذلك فقد عاشت طفولة سعيدة. كانت طفلة هادئة لديها شغف للقراءة.

تلقت تعليمها الأولي في المنزل، ثم درست في كلية المعلمين في ستوكهولم وتخرجت معلمة. بدأت نظم الشعر في سن مبكرة، ثم اتجهت لكتابة الروايات والقصص القصيرة، لكن هذه المعاناة لم تفت في عضدها ولم تجعلها تركن للاستسلام أو العجز، بل العكس من ذلك هو الذي حدث، فقد ساعدها ذلك على الانغماس أكثر في عالم القراءة، وعندما سافرت إلى ستكهولم للعلاج، وراحت تتردد على المسرح السويدي، وتطالع النصوص المسرحية، وما لبثت أن عادت إلى قريتها، وهناك بدت البوادر الأولى لقرضها الشعر.

ولعل لاغرلوف قد اتجهت في البداية للشعر من أجل أن تحظى برضاء أبيها الذي كان يتذوق الشعر بشكل ملحوظ، لكن مع ذلك فإنها لم تضع مخططًا لأهدافها في الحياة والكتابة، فمنذ هذه اللحظة شعرت سلمى لاغرلوف بأنها تستطيع أن تجاري أدباء عصرها فيما قدموا من روائع الفكر والأدب، فكانت تقرأ مؤلفاتهم وتتابع أخبارهم، وتعيد المطالعة في أدب توماس كارلايل الذي كان له تأثير عميق في نفسها

ولكن الحلقة الأهم من حلقات المعاناة في حياتها حدثت عندما توفي والدها وكان مديونًا، فاضطرت أن يباع منزلها الذي نشأت فيه لقاء سداد ديون والدها، فهذه المعاناة التي صهرت موهبتها وجعلت منها المبدعة التي تصمم على تحقيق النجاح في عملها الإبداعي، بل إن سلمى لاغرلوف التي عانت من مرض أقعدها عن الحركة منذ طفولتها اتجهت في كتابتها إلى أن تكتب عن العوالم الغريبة التي تنتقل لها سواء من خلال رحلات قامت بها بالفعل أو تخيلت أنها قامت بها.

هذه المعاناة التي جعلت منها أصغر من نال جائزة نوبل في السنوات العشرة الأولى من القرن العشرين، بل وأصبحت سلمى لاغرلوف بفضل ما مرت به من معاناة هي أبرز وجوه الأدب السويدي في القرن العشرين، خاصة وأنها أصبحت من أعضاء الأكاديمية التي تمنح الجائزة في عام **1914** أي عقب فوزها بخمس سنوات فقط.

ملكة الأدب السويدي

اشتهر عن لاغرلوف بأنها كاتبة الأساطير، فقد كتبت روايات ملحمية تتضمن حكايات أسطورية حول الكهوف الأسطورية الغريبة، وصورت في هذه القصص ملامح النبيلات والشريرات، فنجحت في استلهام قصصها من الأساطير التي كانت تستمع إليها وهي صغيرة.. عاشت مع بيرتا التي أنقذت بذكائها مدينتها، وسمعت الحكيمتين وولبورق وكارين. إنها ملكة الأدب السويدي الكاتبة سلمى لاغرلوف، كاتبة الواقعية التي تتنفس

الأساطير والملاحم وأغنيات المزارعين البسطاء. ابنة فارملاند أرض الطبيعة الفاتنة التي ألهمت بحيراتها الدافئة الكثير من الأدباء والرسامين.

تعد لاغرلوف أول كاتبة سويدية، بل أول كاتبة تحمل جنسية السويد تفوز بجائزة نوبل للآداب لتفتح بإبداعها بوابة نوبل في الآداب لبلادها، ولتستعيد بمبلغ الجائزة منزلها في مارياكا.

كتبت روايتها الأولى "ملحمة قوستا بيرلنق"، وهي معلمة في لاندسكرونا، وساهمت هذه الرواية في انطلاقتها الكتابية، وذلك عندما شاركت بالفصول الأولى من الرواية في مسابقة أدبية، وفازت فيها وحصلت على عقد بالنشر للرواية، كما تلقت دعمًا من راعية الفنون السيدة فريدراكا ليمنال.

وقد تناولت الرواية مقاطعة فارملاند بأسلوب شعري، وظهر في الرواية تأثرها بالناقد والمؤرخ الأسكتلندي توماس كارليل، وقد لعبت هذه الرواية دورًا مهمًا في إحياء الرواية السويدية الرومانسية في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي.

في عام 1894م نشرت مجموعة قصصية حملت عنوان "العلاقات الخفية"، وفي العام التالي حصلت على منحة سفر من العائلة الملكية والأكاديمية السويدية مكنتها من السفر إلى بلدان عديدة حول العالم، بعد ذلك تركت عملها في مجال التدريس وكرست حياتها للكتابة والإبداع.

وبعد زيارة سلمى لاغروف لإيطاليا عام 1897م نشرت رواية "معجزات المسيح الدجال"، وهي رواية ذات نزعة واقعية اشتراكية، أحداثها دارت في جزيرة صقلية. وفي عام 1899م سافرت إلى مصر وفلسطين وألهمتها رحلتها روايتها بيت المقدس والتي جعلتها الروائية السويدية المتميزة.

لكن الإنجاز الأدبي الكبير في حياتها حدث عندما كلفتها هيئة المعلمين الوطنية بتأليف كتاب جغرافيا للمدارس السويدية العامة، وذلك في عام 1902م، وللعمل على ذلك قضت ثلاث سنوات بحثًا في المناظر الطبيعية وفي حياة الحيوانات والنباتات، كما بحثت في تفاصيل الحياة الريفية للسويديين، وفي تاريخ أدب الأساطير السويدية، ومزجت كل ذلك في قصة نيلز هولقيرسون الطفل الصغير، والذي عوقب لسوء معاملته للحيوانات من قبل قزم المزرعة والذي تضاءل حجمه فأصبح قزمًا صغيرًا، وعندما أصبح بهذا الشكل استطاع أن يتحدث إلى الحيوانات المحيطة به ويفهمها، وينتهي به الأمر إلى أن يسافر عبر أراضي مملكة السويد على ظهر أوزة كبيرة، وخلال الرحلة يتعرف على السويد وجغرافيتها وأساطيرها.

ونجح كتاب "مغامرات نيلز" والذي نشرته عام 1906م في تعزيز الرمزية داخل السويد وخارجها. ويعد من أهم أعمال الكاتبة، فقد ترجم إلى أكثر من 30 لغة، ومنها اللغة العربية، كما مثل كمسلسلات تلفزيونية كارتونية للأطفال في عدد من دول العالم، ولم تحقق مغامرات نيلز نجاحًا في مدارس السويد أو في السويد فقط، ولكنها حققت نجاحًا في العالم أجمع. بل إن حكومة السويد قررت أن تظهر صورة الصبي نيلز هولقيرسون خلف

العملة السويدية فئة العشرين كراون، وامتلأت أرفف مكتبات العالم بنسخ مترجمة من كتاب نيلز هولقيرسون.

واعتادت لاغرلوف في كتاباتها على الأساطير وحكايات التراث الإسكندنافي وملاحمه، والتي تكشف من خلالها نزعات الإنسان وصراعه مع نفسه، وميوله ونزعاته كالحب والغيرة والجريمة والطمع والدين، كما في رواية "الكنز" التي نشرت في عام **1904**، وترجمت إلى الإنجليزية عام **1932**م، وهي من أشهر أعمالها التي تم ترجمها للغة العربية، وقد جرت أحداث الرواية في مقاطعة بوسلاند الواقعة على الساحل الغربي للسويد في القرن السادس عشر الميلادي، وتحكي حكاية الكاهن هير أرينز الذي يُقتل هو وأسرته بوحشية على يد لصوص، ليقوموا بعد ذلك بسرقة كنزه العظيم، وتبقى ناجية واحدة من الأسرة هي الابنة بالتبني، والتي يقع عليها عبء اكتشاف هوية القتلة، ولكنها تقع في حب أحدهم.. وتعتبر رواية الكنز رواية الحب والأرواح والوحشية، وقد صنَّفها النقاد بأنها تحمل ملامح من الرواية النفسية.

أما روايتها "حكايات مزرعة"، فقد نشرت عام **1899**، وتصور حكاية شابة تحاول أن تنقذ حبيبها من الجنون. وظفت الكاتبة بلغة إبداعية: الحيوانات، والأقزام، والقوى الخارقة كأبطال، ودمجت الأساطير في أحداث نصوصها، كما كانت سلمى لاغرلوف قريبة إلى الثقافة القديمة، حيث امرأة الكهوف التي عاشت جنبًا إلى جنب مع خير الطبيعة وشر الأرواح الشريرة.

ويمكن القول أن لاغرلوف عرفت في عالم الأدب بعد نشرها "ملحمة جوستا برلنج" عام 1891 التي أذنت بالنهضة الرومانتيكية في الأدب السويدي، وكان لها دور كبير في هذه النهضة، ومنذ ذاك الحين نشرت سلسلة من الروايات والقصص القصيرة الرائعة التي كتبتها سلمى لاغرلوف، والتي ترجمت إلى عدد كبير من اللغات العالمية، وامتازت في كل أعمالها بالأسلوب الساحر، ونعومة الجو، والنبض بالإحساس الديني الصادق، وقد أحلّ ذلك الكاتبة في مقام الطليعة بين كل الأدباء الإسكندنافيين سواء من جيلها أو الأجيال التي تلتها .

ومن الرحلات التي تركت انطباعا قويا في أدبها تلك الرحلة التي قامت بها إلى فلسطين في مستهل القرن العشرين وأقامت سنوات في القدس، ووضعت بعد عودتها إلى بلادها عام 1901 كتابًا ضمّنته انطباعاتها عن هذه البقعة من الشرق.

ومن مؤلفاتها الشهيرة نذكر "الروابط الخفية" عام 1894، و"عجائب المسيح الدجال" عام 1897، و"أورشليم"عام 1901، و"كتاب الأساطير"، و"الرحلة العجيبة لنيلز هواجرسون في أطراف السويد" عام 1906، وفي عام 1912 نشرت روايتها "حوذي الموت" وبعد عامين نشرت رواية "إمبراطور البرتغال"، وقررت أن تعود إلى قريتها مارياكا واشترت الضيعة التي باعها أبوها قبل سنوات، واستقرت هناك حيث عكفت على قراءة مذكراتها التي عنونتها باسم قريتها وكتبتها في ثلاثة أجزاء استغرقت كتابتها الأعوام 1932 –1922، وهي تحت عناوين:

"خاتم آل لوفنسكولد" عام 1925، "شارلوت لوفنسكولد" في نفس العام، ثم "آناسفارو" عام 1932 .

ومن عناوين مجموعاتها القصصية التي أصدرتها: "ضيف عيد الميلاد"، "صورة أمة"، "أسطورة ريور"، "أسطورة عش الطائر"، "نيلز والدب"، "قصة حب زوجة الصياد"، "العم رين"، "الخارجون عن القانون."

تميزت لاغرلوف في كل أعمالها بمداها الملحمي، وهي التي كسبت لها جمهورها الواسع، فابتدعت شخصية حكائية أشبه بجدتي في تراثنا القصصي العربي، وقدمتها في روايتها "الروابط الخفية" عام 1894، والتي تروي من خلالها مجموعة من القصص الشعبية التي عاشت في مخيلة الناس وأثرت فيهم، وفي عام 1897 قدمت لاغرلوف روايتها" عجائب المسيح الدجال "، والتي تناولت فيها الاشتراكية التي كانت بوادرها تزدهر في أوروبا في تلك السنوات، باعتبارها المسيح الدجال في العصر الحديث، لأنها دعت إلى الإلحاد والكفر بالأديان

ولم يكن هذا يعني أن الكاتبة يمينية، بل كانت تدافع دوما عن احتياجات المحتاجين والمعوزين، كما أنها وقفت دائما ضد المناظير المادية التي جاءت بها الحضارات الرأسمالية.. وقد بدا هذا الموقف واضحا في روايتها "قصة ريفية" المنشورة عام 1899، والتي تدور حول الفتاة جوتر التي تبعث من جديد بعد موتها، وهي تعزف على الناي، من أجل إنقاذ فتاة أصابها الجنون عقب تجربة حب فاشلة.

ومع بداية القرن العشرين اتجهت لاغرلوف نحو الاتجاه الديني، فنشرت رواية ضخمة من جزئين "رحلة إلى مدينة القدس"، حيث الرحلة إلى فلسطين، فأبطالها أسرة سويدية نفيت إلى فلسطين، لكنها تجد في منفاها المأوى الروحي الذي يتناسب مع تدينها. ويمكن القول إن هذه الرواية تعتبر درة أعمالها، ويرجح البعض أنها كانت سببا لفوز لاغرلوف بجائزة نوبل للآداب، وقد كتبتها أثناء ضائقة نفسية ألمت بها، دفعتها إلى أن تذهب إلى بيت المقدس لتعيش في رحاب الأرض المقدسة تلتمس الشفاء وخلاص النفس، ومضمونها يدور حول رحلة البحث عن السلام والطمأنينة والعدالة، وهو ما يؤكد أيضا دور المعاناة في خلق الإبداع.

وفي فترة مهمة من فترات حياة لاغرلوف شهدت الكاتبة تحولا في أدبها، حيث اتجهت إلى كتابة قصص الأطفال، ويمكن القول إن كتابها "الروابط الخفية" عام 1894م تناول قصصا عن السحرة التي يعجب بها الأطفال، رغم أنها لم تكن تقصد الكتابة مباشرة للصغار في تلك المرحلة.. ولكنها بعد اثنتي عشر عامًا من هذا التاريخ أرادت أن تقدم تجربة مماثلة لكتاب فرنسي قرأته عن رحلة طفلين إلى فرنسا، فتصورت طفلا سويديا يعشق التاريخ والجغرافيا، ويقوم برحلة عبر السويد. والمدهش أن هذه الرحلة قد استغرقت عامين في كتابها تحت عنوان "الرحلة العجيبة لنيلز هواجرسون في أطراف السويد"، والتي تعتبرأجمل قصص الأطفال المكتوبة في شمال أوروبا بعد "حكايات أندرسن" الشهيرة. ونيلز هنا صبي شرير يسعى للعثور على صحبة مع الرجال البالغين، لأنه يود أن يعقد صلة متينة

مع الطبيعة وحيواناتها، فقد أنجبت الطبيعة حيواناتها ليحكي كل منهم حكايته.

ومن خلال هذه القصة تحاول لاغرلوف أن تقوّم من سلوك الطفل نيلز الشرير، وأن تنقل للأطفال أفكارًا مفادها أنه لا ينبغي للأطفال الصغار ولا حتى للكبار أن يتجهوا في أعمالهم وأفكارهم نحو الشر.

ويمكن القول أيضا إن حكاياتها للأطفال قد اتسمت دائما بالنقاء والبساطة، وفي هذه القصص تعلم الكاتبة – بأسلوبها الرشيق والمحبب الأطفال الصغار– أن حب الوطن من الأمور المقدسة، وتركز من خلال كل قصصها الموجهة للأطفال على فكرة مفادها أن "حب الأوطان هو سبب لجلب السعادة للبشر."

ومن كتبها التي ترجمت فيها لحياتها "ذكريات من طفولتي" و"مذكرات سلمى لاغرلوف". وقد كرست سنواتها حياتها الأخيرة لرواية ثلاثية دائرة لوينسكولدسكا، حيث أصبحت نظرة سلمى للعالم وللإنسان أكثر سوداوية وانعزلت في منزلها القديم، فلم تعد تختلط بالناس كثيرًا، حيث توفيت عام 1940، وهي تعمل على كتابة رواية لم تكتمل.

لكن سلمى لاغرلوف قبل رحيلها عن الحياة، وحتى قبل عزلتها عن الناس، ظلت تنقل لنا طقوس عملها الإبداعي وكيف تنخرط في الكتابة، فتقول: "عندما أكتب أعيش في وحدة كبيرة وعليّ أن أختار بين عيشتي وحدي وأنا أكتب، وبين أن أعيش مع الآخرين، فلا أقدر على أن

أختار بين عيشي لوحدي ووحدتي، وبين أن أكون مع الآخرين فلا أقدر أن أكتب شيئا"

لقد حظيت أعمال لاغرلوف على اهتمام النقاد بسبب أسلوبها الملحمي الرشيق المليء بالشاعرية، وكأنها قد سكبت كل موهبتها كأديبة متفردة من خلال نصوصها الروائية.

هذه الحالة الإبداعية الخاصة التي مثلتها دفعت النقاد لكتابة الكثير من الكتب والدراسات والأبحاث حول إبداعها، وكتبت حول أعمالها والسير الإبداعية الكثير من المقالات النقدية، ولم تقتصر تلك الدراسات والأبحاث على النقاد في وطنها، بل وصلت إلى دول عديدة في العالم.

ناشطة من أجل الحرية

بالرغم من حالة العزلة التي عاشتها لاغرلوف في نهاية حياتها، إلا أنها لم تكن كاتبة معزولة عن مجتمعها وقضاياه في معظم فترات حياتها، ولم تحيا مع أبطال رواياتها وقصصها على الورق فقط، بل كانت على الدوام قريبة من كل قضايا مجتمعها ووطنها الذي كانت تردد دائمًا بأنها مدينة له، فساهمت سلمى لاغرلوف في دعم حق المرأة في الاقتراع وحقها في العمل العام، وشاركت في العديد من المحاضرات التي تدعم حقوق المرأة في السويد وخارجها، وعرف أنها كانت ناشطة ضمن نشطاء الجمعية القطرية

لمنح المرأة حق التصويت في السويد، وهي الجمعية التي كرست نشاطها لمنح المرأة حق التصويت، ونجحت في ذلك في مايو من عام 1919م.

في بداية الحرب العالمية الثانية أرسلت لاغرلوف ميدالية جائزة نوبل التي حصلت عليها والميدالية الذهبية إلى حكومة فنلندا، في خطوة لتعزيز جمع الأموال لمقاومة غزو الاتحاد السوفييتي لبلادها، من أجل حماية استقلال بلادها ووحدة أراضيها، فضربت المثل في حب الوطن، كما كانت تعلم الأطفال دائما من خلال ما تكتبه لهم من قصص ومن حكايات.

ولم يقتصر النشاط العام والحقوقي للاغرلوف على نطاق بلادها فحسب، بل كانت صديقة للكاتب الألماني نيللي ساكس، وقبل وقت قصير من وفاتها في عام 1940، تدخلت مع العائلة المالكة السويدية لتأمين الإفراج عن ساكس من جانب النظام النازي في ألمانيا، ونقل ساكس إلى بلادها في السويد، حيث دعمت لاغرلوف الكاتب الألماني الذي كان مضطهدًا في بلاده من جانب حكومة النازي واللجوء مدى الحياة في ستوكهولم. كما ساعدت الكاتب الألماني ساكس في الحصول على اللجوء في بلادها، وانخرطت أيضا في مساعدة المثقفين والفنانين الألمان على الهرب من الاضطهاد النازي تحت حكم ألمانيا الهتلرية.

إرهاصات نوبل

لم يكن فوز سلمى لاغرلوف بجائزة نوبل وليد المصادفة بين ليلة وضحاها، بل سبق لفوزها بهذه الجائزة إرهاصات، فقد أشاد ألفريد نوبل مؤسس

جائزة نوبل بإبداعها، وفي عام 1907 حصلت على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة أوبسالا السويدية، والتي تعد أقدم جامعة بالسويد، وفي عام 1909م حققت إنجازًا جعلها تحقق الريادة في الأدب السويدي عندما قررت الأكاديمية السويدية المشرفة على منح جوائز نوبل منحها جائزة في الأدب إعجابًا بالمثالية النبيلة، والخيال الحي والنظرة الروحية التي تميز كتاباتها..

وفي عام 1914م أصبحت سلمى لاغرلوف عضوًا في الأكاديمية السويدية، لتكون بذلك أول كاتبة تحصل على جازة نوبل وعضوية الأكاديمية. وامتد حضورها إلى خارج بلدها السويد، ففي عام 1928م حصلت سلمى لاغرلوف على الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب بجامعة قريفسوالد الألمانية العريقة.

قال عنها ناقد سويدي: "لقد أوجدت أدبًا قيمًا استحق أن تنال به جائزة نوبل للآداب، وهي تحتل في الأدب السويدي منزلة الحكَّاءة التي تضم جمهورها حولها كأنهم زمرة من الأطفال يحملقون عيونهم دهشة وانتباهًا"

في فترة من فترات حياتها أحست سلمى أنها قد بلغت السن الحقيقية التي يمكنها فيها أن تكون العمة التي سبق وأن روت قصص الأطفال في روايتها، فبدأت تقص حكايتها ومذكراتها بنفس الأسلوب. فهي عمة تحب الحياة، وهي ذات مبادئ روحية ودينية، وتعرف كيف تنتصر على إرادتها.. إن آثارها الإبداعية كثيرة وواسعة، وتعترف الكاتبة

بأن عملية الإبداع شاقة للغاية، وطوال حياتها لازمها الاعتقاد بأن شخصا آخر هو الذي كتب لها هذا الإبداع الخلاق.

إن مواهب لاغرلوف الملحمية فذة، فهي تقص قصصها في قناعة وتوتر درامي يجلب المتعة للمتلقي، ولغتها فيها طبيعة القصص الشعبية، وهي تحسن أكثر من كل إنسان أن تستخرج مناسبة درامية تبني عليها قصتها. وهي بريئة وتلقائية في سردها، وتعد في عداد الكتاب السويديين الذين تجاوزوا بما كتبوا حدود بلادهم. فقد قرأ كتبها ملايين الناس، أحبها القراء ذوو الخيال، ولكنها كانت محتقرة خلال عقود سلفت، واتهمت بالسذاجة والسطحية، والشيء الوحيد الذي لم ينكره الناس عليها دائمًا هو الخيال الفياض والتلقائية، إلا أن النقد القاسي لم يوقفها قط عن العمل، فظلت تكتب حتى آخر لحظة في حياتها عام **1940**.

وبعد أن رحلت عن الحياة فلا زالت بلادها تتذكرها وتفخر بها، ليس فقط من خلال وضع صورة أحد شخصيات أدبها على العملة السويدية، بل إنه في السويد الآن يوجد فندقان يحملان اسمها في مدينة سن بمقاطعة فارملاند، كما أن منزلها الذي عاشت به في مدينة موريا كا تحول إلى متحف يضم مقتنياتها وآثارها.

إنها سلمى لاغرلوف والتي تتبع مقولة نيتشه "إن جوهر كل الفنون الجميلة والعظيمة الامتنان" فهي تمتن لكل من كتب عنها كلمات ولو قليلة، وهي أيضا تمتن لأولئك الذين يسكنون الأراضي البعيدة عن أرضها وعملوا من أجلها، تمتن لإطرائهم ونقدهم معًا.

المراجع :

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.
2) عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، القاهرة، 1994
3) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991
4) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
5) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990

جراتسيا ديليدا .. التمرد والخروج من القمقم

تمردت على عادات وتقاليد مجتمعها، دفعها طموحاتها للخروج من قمقم تلك الجزيرة الصغيرة التي ولدت بها، لم تتزوج سوي بالرجل الذي استطاع نقلها إلى روما، بعدها تحرر فكرها وإبداعها،

رغم أن ظروف معيشتها الصعبة كانت سببا في حرمانها من إكمال دراستها، وبقت وهي في سن الستين من عمرها تتأمل ما مضي من حياتها وما قدمته من ابداع ، وتتطلع نحو تحقيق مزيد من الابداع لتعويض ما مضى.

"جراتسيا ديليدا" هي المرأة الثانية في تاريخ جائزة نوبل العالمية الرفعية التي حصلت على جائزة نوبل في الأدب عام **1926**م، وكان لحصولها على الجائزة رد فعل كبير بين الأوساط الأدبية والنقدية، لأن "جراتسيا ديليدا" في حقيقة الأمر اشتهرت بأنها تكتب ما يمكن أن يسمى بأدب التمرد على الواقع الاجتماعي، وكتابة مثل هذا الأدب هو الذي يسبب معاناة نفسية كبيرة لمن يقرأه أكثر من مجرد المتعة الناتجة عن الاستمتاع بقراءة عمل أدبي يتسم بالجمال الحسي أو المعنوي.

ولدت أديبة نوبل الإيطالية "جراتسيا ديليدا" عام **1871**م في مدينة "نورو" بجزيرة "سردينيا" الإيطالية وهي واحدة من أشهر الجزر

التاريخية في إيطاليا وتميزت بتراث أدبي عريق، ولدت في أسرة محافظة ومتدينة كمعظم العائلات الإيطالية في هذه المنطقة خلال هذه الفترة من الزمن، وكانت عائلتها ميسورة الحال وتعمل بالتجارة، ودرست جراتسيا في المدارس حتى الصف الرابع الابتدائي، وفي ذلك الوقت لم يكن يسمح للبنات في الجزيرة وقتها بتجاوز هذه المرحلة الدراسية من التعلم.

لكن مع حرمانها من استكمال التعليم كانت جراتسيا ذات خيال خصب، ومنذ طفولتها كان لديها ولع ونهم شديد للقراءة، ولنبوغها وخيالها الخصب فقد شجعها والدها الذي كان تاجرا مثقفا من تجار الجزيرة في هذه الفترة المبكرة من حياتها على أن تمضي قدما نحو حب المعرفة والثقافة.

وقد بدأت جراتسيا بقراءة القصص والروايات التي كانت تنشرها الصحف والمجلات المحلية ، ثم اتسعت دائرة قراءاتها تدريجيا. وكانت أمنيتها منذ الصغر أن تكون كاتبة وشاعرة، وقد بدأت محاولاتها في قرض الشعر، وفي كتابة القصة القصيرة في سن السابعة عشرة، وكانت ترسل إنتاجها الأدبي إلى الصحف المحلية، وقد نشرت أولى رواياتها على حلقات في إحدى الصحف المحلية، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، وتأثرت في هذه الفترة بالكثير من الأدباء من أمثال: شاتو بريان وفيكتور هيجو وبلزاك، ومن الإيطاليين: كاردوتشي، ودانو نتسيو، بالإضافة إلى الأدباء الروس، وكان تأثيرهم واضحًا في روايتها "في البحر الأزرق" المنشورة عام 1890، ومن بعدها أصدرت روايتها "أرواح شريرة" عام 1896 والتي كتب مقدمتها الكاتب الإيطالي الشهير آنذاك روجيرو بونجي.

وكان من الطبيعي أن تتأثر جراتسيا بالبيئة التي ولدت فيها، ففي جزيرة سردينيا التي تنتمي لها، عاشت على أرض هذه الجزيرة العريقة حضارات عديدة من اليونان إلى العرب إلى الرومان، لذلك من المهم عندما نتحدث عن "جراتسيا ديليدا" أن نبحث في طبيعة العلاقة بين الكاتبة وبين هذه الجزيرة التي عاشت فيها من ناحية، وثقافة البحر المتوسط من ناحية أخرى.

وبصفة عامة، فإن ثقافة البحر الأبيض المتوسط هي ثقافة ذات شكل مميز، تبدو واضحة في أدب الذين ولدوا في أحضان الجزر الإيطالية، مثل سردينيا، وصقلية، خاصة وأن سردينيا أرض ذات نكهة خاصة، وفوق هذه الأرض تولدت أهم مدارس الشعر الإيطالي في القرن الثامن عشر، كما اهتم الإمبراطور فريدريك الثاني بالمدارس الفنية في القرن التاسع عشر، وقد انعكس التاريخ واضحًا على هذه المدينة، لكن هناك فارقا بين ثقافة سردينيا وثقافة صقلية، التي أنتجت أدبًا مكتوبًا، أما سردينيا فأدبها شفاهي، ولذا فإن حالة جراتسيا ديليدا قد غيَّرت الكثير من شكل الأدب هناك، حيث كتب وجودها انتهاء عصر الأدب الشفاهي تقريبًا وبداية الآداب المدونة، كما عكس مكانة المرأة في مثل هذه المجتمعات، بالإضافة إلى تميزها في الرواية فإن الجزيرة أنجبت شاعرة معروفة أخرى هي "إدانيجيري"

كان لنشأة "جراتسيا ديليدا" في سردينيا انعكاسات واضحة على كتاباتها، إذ دارت أحداث معظم أعمالها في أحضان الطبيعة البكر التي

تميز ت بها، وحرصت في رواياتها وقصصها على رسم ملامح نفسية لشخصيات لها القدرة الفطرية على التميز والإدراك، وشخصيات تعاني من أسر المبادئ الدينية المتشددة، وقد استمدت هذه الصورة من ملامح سكان الريف مثل بطل أشهر رواياتها "إلياس بورتليو" الذي اختار حياة الرهبنة لمعاقبة نفسه على جريمة زنا ارتكبها مع خطيبة أخيه أثمرت طفلًا غير شرعي، ولم يستطع البطل استعادة سلامة النفس إلا بعد وفاة الطفل.

وفي هذه الأثناء قامت جراتسيا بتأليف العديد من القصص والروايات التي لاقت نجاحًا كبيرًا ومنها: "نصوص سردينيا "عام 1892 ورواية "أبيض غامض" عام 1915، ونشرت رواية "الطفل المختبئ" و"ماريانا "و" الأم "عام 1920، و"إله الأحياء" عام 1922

وبرغم تعلق جراتسيا بسردينيا، فإنها كانت تتوق إلى الانتقال إلى إيطاليا الأم لتوسع أفقها، ولتنهل من مناهل الثقافة التي لم تتح لها في جزيرتها، وقد أتيحت لها هذه الفرصة، فبعد ذلك هاجرت "جراتسيا ديليدا" إلى مدينة "كالياري"، وتزوجت عام 1900 من موظف في وزارة المالية وانتقلت معه إلى روما، وهناك شعرت أن روما هي المدينة التي بحثت عنها طويلًا، لقد اكتشفت عالمًا أكثر رحابة متمثلًا في المدنية بأبعادها الثقافية والحضارية المختلفة، ومتمثلاً أيضاً في المؤلفات الأجنبية التي غاصت فيها جراتسيا ديليدا تلتهمها بنهم، حيث كان لهذه الاكتشافات الأثر العظيم في كتاباتها التي صارت أكثر تنوعاً وانفتاحاً، لتصبح "جراتسيا

ديليدا" بعد ذلك واحدة من أعظم من كتبن القصة القصيرة في تاريخ العالم، ونالت جائزة نوبل للآداب عن مجمل أعمالها الأدبية.

التمرد يصنع أدبًا

من يقرأ أدب جراتسيا ديليدا، فإنه يلاحظ أن معظم قصصها ورواياتها تدور حول المرأة والحب والتمرد على التقاليد البالية، لكن موضوع الحب كان دائما يدور حول "الحب المحرم" أو "الحب غير المتكافئ اجتماعيا"، وكان هذا الاتجاه لدى الكاتبة نتيجة طبيعية لمولد الكاتبة في جزيرة "سردينيا" الإيطالية، وهي الجزيرة الإيطالية التي فرضت عليها وحدة جغرافية، عانت التقاليد البالية المجحفة بحق المرأة، فكل شيء مغلق، الناس يعيشون أسلوبًا واحدًا مكررًا، يؤمنون بالسحر والأساطير، مما جعلهم مادة خصبة استمدت منها جل أعمالها.

ولذلك فقد دفعت هذه الظروف جراتسيا ديليدا إلى أن تكون كتابتها متمردة على عادات وتقاليد مجتمعها، ولذلك فقد دفعت طموحاتها للخروج من قمقم تلك الجزيرة، فلم تتزوج سوى الرجل الذي استطاع نقلها إلى روما، بعدها تحرر فكرها وإبداعها، رغم أن ظروف معيشتها الصعبة كانت سببا في حرمانها من إكمال دراستها، وهو ما جعلها تثأر لحريتها المكبوتة، وبقيت وهي في سن الستين من عمرها تتأمل ما مضى وتتطلع نحو تحقيق مزيد من النجاحات لتعويض ما مضى.

وابتداء من عام 1912 اهتم النقاد بشكل واضح بأدب الكاتبة، فقدمت "أبيض غامض"، و"الحب والحقد"، وفي عام 1915 قدمت "الطفل المختبئ"، و"ماريانا" ثم نشرت "الأم" سنة 1920، ثم نشرت رواية "إله الأحياء" عام 1922، وفي عام 1923 نشرت رواية "بوص تحت الريح"، وبعد سنوات نشرت رواية بمثابة سيرة ذاتية تحمل اسم "كوزيما"، وماتت قبل نشرها بسنة تقريباً، حيث توفيت في روما في 15 أغسطس 1936

ولكن الرواية التي عادت عليها بالشهرة كانت بعنوان "إلياس بارتولو" نشرتها عام 1903، وترجمت فور ظهورها إلى عدة لغات أوروبية، واستمرت مسيرتها مع الرواية، فكتبت أكثر من عشرة روايات وبضع مجموعات من القصص القصيرة، فضلًا عن بعض الأشعار ومسرحية في ثلاثة فصول شاركها في تأليفها أديب غير مشهور، وقد ظهرت لها بعد وفاتها روايتان أخريان.

ومن أشهر أعمال "جراتسيا ديليدا": "البحر الأزرق"، وهي مجموعة قصصية نشرت في عام 1890 لاقت نجاحا كبيرا، وروايات "نصوص سردينيا" التي نشرت عام 1892، و"زهور سردينيا" عام 1894 و"أرواح شريرة" عام 1896، و"عجوز الجبل" عام 1900، والتي تعتبر مفتاحا للكثير من أعمالها، ثم تلت ذلك بروايات "إلياس بورتولو" عام 1903، ثم روايات "رماد" و"أموت أو أحبك"، ثم في عام 1912 نشرت رواية "أبيض غامض"، "الحب والحقد"، وفي عام 1915 نشرت "الطفل

المختبئ" و"ماريانا"، ثم رواية "الأم" عام **1920**، و"إله الأحياء" عام **1922**.

ومن أعمالها أيضا: "إلياس بورتولو" عام **1903**، "النبات المتسلق" عام **1906**، "سر الرجل" عام **1921**، " العجوز والشاب والفتاة" عام **1934**، بالإضافة إلى "كوزيما" رواية سيرة ذاتية نشرت عام **1936**م.

كانت جراتسيا ديليدا غزيرة الإنتاج، فقد صدر لها أكثر من خمسين كتابًا تضم الأعمال الإبداعية التي تشمل أشعارها وقصصها ورواياتها.

وفي هذا الإنتاج الغزير تبدو فيه متعلقة أكثر ما يكون التعلق بالطبيعة، لكنها مع ذلك كانت شديدة الإيمان بالله متعاطفة مع البشر في خيباتهم وكبواتهم. وقد عاشت بعد زواجها في العاصمة الإيطالية روما وأقبلت "جراتسيا ديليدا" على الكتابة والتأليف حتى أواخر حياتها عام **1936**م، ومع ذلك انزوى إنتاجها بعد وفاتها، كما حدث مع زميلتها السويدية "سلمى لاجيرلوف" ولم تعد سوق القراءة تقبل عليه.

ويمكن القول إنه عندما حصلت "جراتسيا ديليدا" على جائزة نوبل، لم تفتح فقط باباً للأدب الإيطالي، بقدر ما فتحت بحصولها على هذه الجائزة أبوابًا للعالم أن يتعرف على الأدب المكتوب في الجزيرة الإيطالية

التاريخية سردينيا، وخاصة الأدباء الذين جاءوا بعدها، مثل جوزيه ديساي، وچان فرانكو كونتيني الذي يطلق عليه النقاد "بروست سردينيا"

لذلك فإن النقاد الذين تناولوا أدب "جراتسيا ديليدا" أكدوا على أنه عنها، فيجب الاهتمام بالعلاقة الخاصة التي ربطت بين الكاتبة والجزيرة التي ولدت فيها وتأثرت بها، كما تأثرت في نفس الوقت بثقافة البحر الأبيض المتوسط على وجه الخصوص، وهي ثقافة تنعكس على أدب الكثير من المبدعين الذين ولدوا في هذه المنطقة الجغرافية، وهي ثقافة ذات شكل مميز تبدو واضحة في أدب الذين ولدوا في أحضان الجزر الإيطالية، مثل سردينيا، وصقلية، ومنهم على سبيل المثال بيراند يللو، وليوناردو شاشا .

المعاناة مفتاح الابداع

من رحم المعاناة تأتي العظمة، ولم لا والكتابة إحدى وسائل التعبير عن الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان، فالقلب يترجم الأحاسيس والمشاعر، ويلعب الخيال دورًا مهمًا في حسن التصوير والإبداع الفكري والأدبي، ومنه تخلق أعمال أدبية عظيمة.

يمكن القول المعاناة في حياة "جراتسيا ديليدا" تظهر من خلالها محاولاتها المستمرة الهروب من واقعها الاجتماعي، فالنقاد اتفقوا على أن حياتها، بمثابة مجموعة من حالات الهروب، وهذه المحاولات المستمرة للهروب هي في حقيقة الأمر ما شكل حالة المعاناة عندها وانعكس على

مسار حياتها، ثم انعكس بالتالي على أدبها وإبداعها، فكل ما كتبته من إبداع يمكن اعتباره في حقيقة الأمر شكلا من أشكال السرد الأدبي الذي يعكس حالة من المعاناة النفسية

المفارقة في حالة جراتسيا ديليدا أنها لم تتجه إلى الكتابة إلا هربا من رغد المعيشة في أسرتها الميسورة، حيث اكتشفت أن القيم الخلقية ليست على ما يرام هناك لذا اهتمت بحياة الرعاة، وراحت تتأملهم عن قرب، كما كان وجودها الدائم في مكتبة الأسرة بمثابة هروب آخر، حيث اهتمت بالروايات المسلسلة، والشعر العاطفي وروايات الفروسية، وهو ما خلق لديها معاناة نفسية بشكل خاص.

وقد انعكست معاناتها النفسية في حياتها بشكل واضح في روايتها الشهيرة "الأم"، وهي الرواية التي أشارت إليها لجنة نوبل في حيثيات حصولها على الجائزة، ويدور موضوعها حول رهبانية القسس، وهي ليست رواية أحداث بقدر ما هي رواية أزمات نفسية عاشتها أم القسيس باولو حين اشتبهت في أن ابنها ارتكب الخطيئة مع الأرملة آنييس. كانت الأم امرأة جاهلة ولكنها تعرف، صارحت ابنها باكتشافها، وأخذت عليه عهدا بأن يقطع صلته بآنييس، ولكن عذاب ابنها جعلها تنظر إليه على أنه ضحية لقانون الكنيسة. ودارت أحداث الرواية في بلدة صغيرة من خلقها أسمتها "آر" في مكان لم تسمه، ولا خلاف بين الدارسين على أن وصف البلدة والمنطقة المحيطة بها وأهلها ينطبق على وصف أية بلدة صغيرة في جزيرة "سردينيا" مسقط رأس المؤلفة.

وقد لجأت الكاتبة إلى اللغة الشاعرية، لكي تلطف من قتامة الرواية التي وصفها أحد النقاد الإيطاليين بأنها أكثر روايات المؤلفة سوادا، وهي التي لا تكتب الا روايات سوداء ووصف ناقد آخر هذه الرواية بتوترها المتصاعد، وبقلة عدد شخصياتها. وقد ترجمت القصة إلى لغات عديدة، وهي من الأعمال التي مازالت تلقى إقبالا لدى الجمهور الإيطالي حتى يومنا هذا.

المراجع :

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م
2) جراتسيا داليدا: الأم، روايات جائزة نوبل، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1992
3) https://arz.wikipedia.org/wiki/
4) عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، القاهرة، 1994.
5) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991.
6) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
7) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990.

سيغريد أندسيت.. كاتبة السنوات الطوال

الإبداع الجيد هو الذي يعرف كيف يصور النفس البشرية بكل ما فيها، خيرًا أو شرًا. وبالنسبة للقارئ العربي من المهم أن يعرف أن المحظور الحديث عنه في مجتمعاتنا الآن، هو نفس المحظور الذي تجاوزته المجتمعات الأخرى منذ زمن طويل.

عندما فازت الكاتبة سيغريد أندسيت سنة 1928م كانت هي أول كاتبة تحصل على جائزة نوبل، وتنتمي تقريبًا إلى القرن العشرين، فحين بدأ القرن سنواته كانت في الثامنة عشرة من عمرها، حيث ولدت في مايو 1882 وحين نشرت أول أعمالها الأدبية كان ذلك في عام 1907.

ولدت في مدينة "كالوندبورغ" في الدنمارك، وهي ابنة "إنجفالد" عالم الآثار، وأمها "أنا شارلوط" ابنة محامي دنماركي، تأثرت بوالدها فأصبحت لديها نظرة ثاقبة فيما يتعلق بالقصائد القصصية والمثيولوجيا وأساطير تاريخ العصر الوسيط في الدول الإسكندنافية، وأخذت من أمها نظرة واقعية للحياة بصفة عامة.

وفي سن الحادية عشرة فقدت والدها عالم الآثار الذي تعرض لمرض عانى منه سنوات طويلة. في سن السادسة عشرة من عمرها تخرجت

في كلية التجارة وعملت في مكتب كئيب، قابض للصدر، لمدة عشر سنوات لتساعد أمها وأختاها ماديا.

وفي فترة من فترات حياتها استقرت سيغريد في روما، وهناك تعرفت على مجموعة من الأصدقاء أغلبهم من الفنانين الإسكندنافيين، وأحبت رسامًا نرويجيًا، بادلها الحب فطلق زوجته ليتزوجها، تلك الفترة القصيرة بحريتها ونشوتها كانت أسعد اللحظات في حياتها. بعد الزواج عادت إلى النرويج حين كان زوجها يمارس الرسم، حيث كانت تهتم بتربية أطفالها الخمسة، وكتبت أعمالا روائية مختلفة تصوّر مناح مختلفة من إحساسات قلب الإنسان وتشكيل خيالي شامل للمجتمع النرويجي، كما تراه من خلال تجربتها خارج النرويج وداخلها.

ويمكن القول إن حياتها غلب عليها المشاهد المأساوية فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة من عمرها، وعانت أسرتها مرارة الديون، جرفتها لسنوات من الفقر والحاجة، وأثر فيها بعمق، وهو ما دونته سيغريد أندسيت في إحدى أهم رواياتها "السنوات الطوال" التي صدرت عام 1934.

حلمت سيغريد بدراسة الرسم، لكن دحر حلمها تحت حجر العوز والحاجة، مما كان سببا في تركها لدراستها والعمل بإحدى المؤسسات التجارية. وفي عام 1940 هربت من النرويج إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بسبب وصول النازية إلى بلادها ولكنها عادت بعد الحرب العالمية الثانية وتوفيت في 10 يونيو 1949 م.

أديبة العصور الوسطى

شغفت سيغريد منذ صغرها بدراسة التاريخ والأدب، وهكذا جمعت بين الدنمارك والنرويج حسب جنسية أبويها، وعاشت طفولة سعيدة في أوسلو بين أم مثقفة، وأب من مشاهير علماء الآثار. اشتهرت بكتاباتها حول نمط الحياة في الدول الإسكندنافية خلال العصور الوسطى، كانت بداية انطلاقة سيغريد أندسيت في كتابة الرواية تتركز حول الموضوعات المعاصرة وبالتحديد حول مشاكل النساء اللواتي يعشن في المدن. أغلب بطلات رواياتها يواجهن عواقب مأساوية حين يكن غير مخلصات لحقيقة ذاتهن الداخلية، أو التحدي المثالي للأدوار التقليدية لكلا الجنسين، ومن أشهر أعمالها "ثلاثية القرون الوسطى" التي لاقت إقبالًا واسعًا من القراء في أمريكا عام 1920.

والروايات التاريخية كانت ترتكز بشكل خاص على محور أساسي، وهو الحياة الشخصية والمشاكل النفسية المشتركة لكلا الجنسين، وبطبيعة الحال تتبادر اعتراضات إلى الأذهان في هذا الصدد عن هذه الكاتبة التي كانت كتاباتها أكبر من كلامها وتكره تحديدا أن تتحدث عن نفسها، ومن خلال هذه الكتابات استطاعت أن توصل أفكارها. حيث يمكن القول إن سيغريد الإسكندنافية وشخصياتها الروائية مثل النرويج نفسها، نصف روحها ينتمي إلى الفايكنغ، والنصف الثاني يتمزق بين مغامرات جريئة ورفض الذات بشدة. وفي نفس الوقت، فإن أعمال الروائية، تعكس جمال وشفافية الشعر للنرويج القديمة.

وبالرجوع إلى روايتها "السيدة مارثا أولى" التي أحدثت ضجة في المجتمع النرويجي المتزمت آنذاك، وقوبلت بالرفض من دور النشر، ولكنها وجدت طريقها للنشر بعد عناء شديد. هذه الرواية تناولت المحظور الذي لا يجب التحدث عنه في تلك الفترة في النرويج. ذلك التابو الذي كان مسجونًا في قلب المجتمع وعقله، ويمارس وراء الكواليس، وتبقى تلك الممارسات الغريبة في المجتمع مدثرة بحجاب الصفاء والنقاء مادام المرء لا يتحدث عنها.

تدخل الكاتبة القارئ إلى عالم كوامن المرأة ومتطلباتها. كما تدخل القارئ بين علامات استفهام كثيرة حول المرأة والإنسان بصفة عامة، إنها إشكالية الذات والآخر، ومعضلة التملك والطموح إلى الكينونة، ثم إشكالية صراع الذات مع النفس "السوية" والمعاناة وتأنيب الضمير. ولم تكن الرواية محض خيال بقدر ما هي من الواقع، لشخصية تصارع ذاتها التي تريد الآخر أن يكون امتدادًا لها لا أن يكون امتدادًا لتحقيق شهوة التملك.

وتنتهي الرواية بأن تضع الكاتبة القارئ أمام أبواب مفتوحة لتساؤلات متشعبة حول العلاقات الكائنة بين الزوج والزوجة، وبين الأنا والآخر، وبين الأنا ومعرفة الذات، وبين وجود الآخر ودوره بالنسبة للأنا. وكيف يصبح الإنسان حين يفقد حبه، فيصبح كمن يقضي حياته ممدداً في العراء وسط صحراء يحيطها سراب من كل الجهات، وخالية من كل أثر للحياة. إنه موت المشاعر الجميلة عند المحبين التي تموت عندما تتوقف

القلوب عن دقاتها التي تعطي الحياة حسا، ونهاية العالم عند المحبين تعني موت الأحاسيس والمشاعر الجميلة

إن الأدب الجيد هو الذي يعرف كيف يصور النفس البشرية التي مهما اختلفت عبر العصور، تظل هي العامل الذي يعطي للحياة معناها، خيرًا أو شرًا. وبالنسبة للقارئ العربي الذي لم يقرأ هذه الرواية التي كتبتها سيغريد أندسيت، فمن المهم أن يعرف أن محظور الحديث عن الجنس المعاش في الوطن العربي الآن، هو نفس المحظور الذي تجاوزته المجتمعات الأخرى منذ زمن طويل، ورغم ذلك فحديثهم عن الجنس لا يرقى مطلقا لانفتاح عاشه العرب منذ قرون، قبل سيطرة التيارات السلفية المتزمة، فمن تجرأ اليوم أن تصرخ: نعم.. خنت زوجي.

ولا يمكن أن نتكلم عن سيغريد بدون أن نشير للمعاناة التي عانت منها منذ طفولتها وطوال حياتها، فقد توفي والد سيغريد أندسيت، وهي في الحادية عشرة من عمرها، فعانت الأسرة بعده من صعوبات مالية، وكان لهذه السنوات تأثير بالغ في حياة سيغريد، وقد يكون سبب هذه الأزمة والمعاناة خارجيا يتعلق بالمجتمع، أو ما يمكن تسميته بأزمة مجتمعية عامة حافزة للإبداع، وقد سجلت هذه الذكريات فيما بعد في روايتها "السنوات الطوال" عام 1934، فقد قررت أن تدرس فن الرسم إلا أنها اضطرت للعمل في أحد المكاتب التجارية وظلت في عملها عشر سنوات، فكانت تتكسب من العمل بالكتابة بما يعينها على العيش إلى أن تركت العمل، وانصرفت للكتابة حتى أحرزت نجاحاً عالميًا بروايتها التاريخية "كريستين

لافرنسداتر" فمنحت لأجلها جائزة نوبل، لقدرتها على وصف الحياة في البلاد الإسكندنافية خلال القرون الوسطى.

ويمكن القول إن الكاتبة سيغريد أندسيت قد وضعت كافة خبرتها، وتجربتها في كتابة ثلاثيتها الروائية "كريستين لافراند شاتر"، ولذا كشفت عن موهبتها الروائية الناضجة. هذه الرواية تدور أحداثها في التاريخ القديم للنرويج إبان عصر الفايكنج، وقد كتبت الرواية كنوع من التكريم لأبيها الباحث الأثري، الذي كرس حياته للتنقيب عن آثار الفايكنج، غزاة الشمال، ولذا جاءت بمثابة حياة كاملة لتاريخ وعصر، ولم يكن لكاتبة أن تكتب مثل هذه الرواية إلا إذا عرفت الكثير عن هذا التاريخ، وعن هؤلاء الناس، عن الأعياد والتقاليد، والأسواق والقداس والثقافة الشعبية، والأسباب التي أدت إلى تحطيم هذه الممالك.

وقد رشحت سيغريد لمواقفها الوطنية أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها، فكانت لها شفاعة تزيد على شفاعة الفن والقيمة الثقافية على رجاحة هذه القيمة بمقياس النقد الأدبي، ومقياس العلم الواسع بتاريخ البلاد الشمالية"، وقد اعتبر النقاد عملها الأدبي "كريستين لافرنسداتر" مشابها لرواية "جان كريستون" التي كتبها الروائي الفرنسي رومان رولان، وقد خصصت سيغريد جانبًا كبيرًا من إنتاجها الأدبي الروائي لموضع النساء المعاصرات لها اللاتي يبحثن عن القيم في حياتهن، وقد كان لديها موهبة فائقة في رسم الشخصيات في رواياتها التي كانت أولها بعنوان "السيدة مارتا أولي" التي كتبتها عام **1907**، وفيها دراسة اجتماعية حقيقية وواقعية

لامرأة من الطبقة الوسطى، وبدءًا من هذه الرواية اتجهت الكاتبة نحو منهج الواقعية الاجتماعية، حيث تمضي في واقع الحياة اليومية فتصور كل دقائق هذه الحياة وجزئياتها، وقد نقلت لنا صورة صادقة لحياة امرأة. والجزء الأول من ثلاثية كريستين يحمل عنوان "التاج "يدخلنا إلى النرويج في بداية القرن الرابع عشر، وهو عصر مليء بالمتاعب، حيث راحت الكنيسة تفرض سيطرتها على البلاد. وكريستين هي ابنة لافارن الذي يعمل في بلاط الملك. إنها تعيش طفولة سعيدة بين أبويها، وعندما تبلغ السادسة عشرة تخطب تبعًا لرغبة أبيها إلى سيمون دار، رجل طيب وكريم تحترمه كثيرًا، ولكنها لا تحبه بشكل عام، مما يعني أنها مستعدة لأن تفتح قلبها لرجل آخر هو أرلندا، وهو أب لطفلين ولدا من علاقته بامرأة أخرى، وتتطور الأحداث بسرعة حيث تموت عشيقة أرلندا مسمومة، وتعترف كريستين لزوجها بأنها أصبحت خاطئة، وتطلب منه الصفح، ويعلم أبوها أنها حامل، فيسعى إلى أن يزوجها من عشيقها بأي ثمن. يقام حفل ضخم لزواج أرلندا، ثم يرزق بطفلين آخرين من زوجته الجديدة، ثم يدخل السجن بعد أن يتم اتهامه بأنه دس السم لعشيقته القديمة، وذلك بعد أن دبر له سيمون التهمة

وفي الجزء الثاني من الثلاثية والذي يحمل عنوان "الصلب" تسعى كريستين إلى تربية أبنائها السبعة من الرجلين الذين تزوجتهما. لقد كبر الأطفال، وخرج أرلندا من السجن، ولم يشأ أن يعود إليها، أما سيمون فقد مات، وتحاول المرأة أن تعود إلى أرلندا بأي ثمن، فتسافر إليه في المنفى الذي اختاره لكنه يبقى عند موقفه، فتموت مصابة بحسرة شديدة.

وقد وصفت الكاتبة، في هذا العمل، من خلال حياة هذه المرأة كيف عاش الأجداد في النرويج، وكيف كانت وقائع الحياة هناك، علمًا بأنها قد سعت دومًا إلى اجتياز التاريخ، مثلما فعلت في أقصوصة "الساحرة" التي استوحتها من إحدى قصص أندرسون، حيث حكت كيف أن امرأة حاولت أن تكتشف وهي تمر في الغابة أنها لم تنظر إلى زوجها كما يجب، وأن عليها أن تعبر عن منظورها إليه.

مناضلة من أجل المرأة

بعيدًا عن الفن الروائي، فإن الكاتبة قدمت مجموعة من الدراسات حول النرويج، فنونها، وآدابها، وناهضت النازية في كتاباتها، خاصة عقب الغزو الألماني لفرنسا في أبريل عام 1940، مما جعلها تهرب إلى الولايات المتحدة، حيث أقامت هناك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

وكما اشتهرت من خلال أعمالها التاريخية التي تصور الحياة في النرويج في العصور الوسطى، مثل ثلاثية "كريستين لافرنسداتر"عام 1922، ورباعيتها "سيد هستفيكن"عام 1925م ، التي عكست رؤيتها الدينية واهتمامها بقضايا ومشكلات المرأة النرويجية، والمرأة هي الشخصية الرئيسية المحركة للأحداث، مثلما في "جيني" و"مدام مارت منسيه"، فهما امرأتان يمكنهما أن تعيشا مستقلتين عن الرجال، وأن تكونا بمعزل عن العالم.

كتبت سيغريد عن الاستقامة في أعمالها التالية، وهي دائما تهاجم النساء الخائنات، مثل روايتها "الزوجة الخائنة" عام 1936، فالزوجة تسعى دائمًا إلى أن تكون مستقلة اقتصاديًا عن زوجها، وترفض أن تقع بين براثن رجل تكون بالنسبة له مجرد جسد، وترى الكاتبة أن هناك بابًا ضيقًا أمام كل امرأة عليها أن تجتازه كي تكون حرة، وكي تحتفظ بمعنوياتها، ولا تخفي الكاتبة أن التحليل النفسي لفرويد كان دافعًا لها وهي تكتب عن هؤلاء النسوة، فهن نساء يحملن عبئًا ثقيلًا من العواطف المتناقضة، وتسكن في داخل كل منهن أصوات الآباء والأمهات، ولذا فإن العالم الذي تفتحه الكاتبة للنساء متسع، وغير محدد المعالم به الأضواء والظلال، وكما قالت الكاتبة "إن الحياة مليئة بالأشياء الرائعة والعجيبة"، مثلما نطقت الشخصية الرئيسية في رواية "زهور الأوركيد البيضاء" عام 1929، ولكن هذه الأشياء أكثر خطورة وثراء من كل القيم التي نحلم بها."

في روايتها "مدام دورثيا" عام 1939 نرى امرأة متزوجة تضطر أن تنفصل عن زوجها، ولكنها تقع فريسة بين مشاعرها الدينية، وبين أبنائها الذين عليها أن تربيهم، وبين أفكارها الغريبة، والرواية لا تدور في العصر الحديث، بل إن الكاتبة تتعمد أن تجعلها تدور في القرن الثامن عشر، باعتبار أن المرأة المتمردة على الرجل موجودة في كل عصر.

وبمثل ما كتبت سيغريد أندسيت عن المعاناة في حياة المرأة فقد عاشت هي أيضًا حياة حافلة بالمعاناة، ففي عام 1912 وقبل فوزها بجائزة نوبل تزوجت من الفنان التشكيلي سفاردست، الذي كان مطلقًا وأبًا لفتاة

مختلة عقليًا، واستمر الزواج حتى عام 1925، وفي آخر أيامها انشغلت سيغريد أندسيت بتأليف كتاب عن السياسي الإنجليزي "أدموند بورك" لكنها لم تستطع إنهاءه، فقد تأثرت بمرضها وتوفيت في بلدة "ليلهامر" بالنرويج في 10 مايو 1949.

المراجع :

1) مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، ألفريد نوبل وجوائز . إعداد لجنة الجوائز العالمية .كتب جائزة نوبل 1966.

2) سيغريد أندسيت، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، عمان 1999.

3) عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، القاهرة، 1994

4) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991

5) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

6) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990

بيرل باك والفانوس السحري

"الأرض الطيبة" أشهر رواياتها، لدرجة أن الكثيرين يعتقدون أنها قد نالت جائزة نوبل عن هذه الرواية، والحقيقة أنها نالتها عن هذه الرواية وغيرها من الروايات الأخرى التي كانت قد كتبتها حتى فوزها بالجائزة عام 1938،

وقد قامت بنشر "الأرض الطيبة" في عام 1931، وحصلت في نفس العام على جائزة بوليتزر، والرواية تصور حياة فلاح صيني يدعى "وانج لانج"، وأسرته وتعلقه بالأرض، ومدى ارتباط حياته بها.

الكاتبة الأمريكية بيرل باك، تعد أول كاتبة امرأة من الولايات المتحدة الأمريكية تفوز بجائزة نوبل للآداب في عام 1938م، ولدت "باك" في 26 يونيو 1892م في بلدة هيلسبور، بفيرجينيا الغربية في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها وقبل أن تبلغ من العمر خمسة أشهر عاد بها والداها إلى الصين حيث كانا يعملان في التبشير، وحيث اشترى والد ووالدة بيرل باك منزلًا في حي صيني في مدينة شين كيانج الصينية، حيث بدأ الأبوان في هذه الفترة رحلة تبشير بين الصينيين لتحويل الشعب الصيني للإيمان بالديانة المسيحية بدلًا من الديانة البوذية، وهي الدين التقليدي في الصين، وكانت وظيفة والد ووالدة بيرل باك في التبشير سببا لمعاناتها فيما بعد.

وفي هذا الحي مكثت معظم سنين طفولتها، حيث قالت فيما بعد حول هذه الفترة المبكرة من طفولتها: "لم أشعر بأي فرق بيني وبين الأطفال الصينيين"، وهو ما أثر وانعكس في حياتها فيما بعد، وفي هذه السن المبكرة من سنوات طفولتها تأثرت بيرل باك بقصة علاء الدين والفانوس السحري، وظل التأثير الشرقي بل والآسيوي والصيني بشكل عام منطبعًا على أدبها حتى أنها لقبت بالكاتبة الصينية.

وعند بلوغها أربعة عشر عامًا من عمرها التحقت بمدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية في مدينة شنغهاي الصينية لتتعلم لغتها الأم لأول مرة، لكن وبعد عامين سافرت للولايات المتحدة والتحقت بمدرسة التعليم العالي في ولاية فرجينيا.. في تلك الأثناء بدأت بنشر كتاباتها حيث حازت على بعض الجوائز، وعند بلوغ بيرل باك الثانية والعشرين عملت بالتدريس، ثم ما لبثت أن تلقت خبرًا بمرض والدتها في الصين، حيث عادت للصين مرة أخرى، وفي الصين استمرت بممارسة مهنة التدريس، وفي عام 1917 تزوجت من رجل إقطاعي من ولاية كنزاس الأمريكية منتدب لدراسة الفلاحة في الصين.

وفي الصين أيضًا التي تحولت لما يمكن القول عنه أنه وطن بيرل باك الثاني، استقرت مع زوجها في بلدة صغيرة شمال الصين، حيث عانت من شظف العيش وصعوبة الحياة، حيث وصفت الكاتبة حياتها في تلك البلدة في روايتها "الأرض الطيبة"

انتقلت بعد ذلك مع زوجها إلى مدينة نانكين، حيث عملت بيرل باك في التدريس بالجامعة القديمة، ثم سافرت لإكمال تعليمها مع زوجها إلى الولايات المتحدة هناك، وأنهت بتفوق دراسة الأدب الإنجليزي، وحازت على جائزة عن بحثها الصين والغرب.

وفي عام 1925 عملت كمحاضرة في الأدب الإنجليزي بجامعة نانكنج، وفي عام 1926 عادت إلى الولايات المتحدة، حيث حصلت على درجة الماجستير من جامعة كورنل، وعادت بعد ذلك إلى الصين، واستكملت نشاطها الأدبي، وانشغلت بالنشاط الاجتماعي، وقد اشتهرت بحبها للأطفال، ولذلك فقد خصصت بيرل باك الكثير من وقتها في الخدمة في مؤسسات رعاية الأطفال وظلت على نشاطها هذا، بالرغم من تدهور صحتها في الأيام الأخيرة، وكان آخر عمل قامت به من هذ النوع هو افتتاحها مؤسسة للبنين في سيول عاصمة كوريا الجنوبية في عام 1968.

وانصب أكثر نشاطها الأدبي على كتابة الرواية؛ فروايتها الأولى "ريح الشرق، ريح الغرب" نشرت عام 1930، وتدور أحداثها في الصين من خلال الفتاة كويلان التي تربت على احترام أبويها والعادات الاجتماعية .

الأرض الطيبة

الأرض الطيبة"، هي أشهر رواياتها، لدرجة أن الكثيرين يعتقدون أنها قد نالت جائزة نوبل عن هذه الرواية، والحقيقة أنها نالتها عن هذه الرواية

وغيرها من الروايات الأخرى التي كانت قد كتبتها حتى فوزها بالجائزة عام 1938

وقد قامت بنشر "الأرض الطيبة" في عام 1931، وحصلت في نفس العام على جائزة بوليتزر، والرواية تصور حياة فلاح صيني يدعى "وانج لانج"، وأسرته وتعلقه بالأرض، ومدى ارتباط حياته بها، وحرصه على الاحتفاظ بها وزيادة رقعتها قدر الإمكان، وأنه صمم على عدم التخلي عن شبر واحد منها، حتى لو اضطر أن يبيع ابنته الطفلة الصغيرة، كي يحصل على بعض المال ليعيش به ولو لأيام معدودة أثناء المجاعة التي اضطرته إلى الهجرة من أرضه طلبا للقوت، مفضلا التشرد والعمل الشاق في حرف لم يزاولها من قبل، ثم يعود إلى أرضه بعد أن أصبح ثريًا، فيشتري الأرض، ويصبح إقطاعيًا وتتغير حياته تبعا لذلك، حيث يبني قصرًا مجاورًا لبيته القديم ويتخذ عشيقة.

وقد فازت الرواية عام 1935 بميدالية دين هولز الذهبية، التي تمنح كل خمس سنوات كاعتراف وتقدير من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب لأحسن قصة أمريكية تنشر خلال خمس سنوات، وقد تجاوز توزيعها في أمريكا وحدها مليون نسخة، وتمت ترجمتها إلى ما يزيد عن عشرين لغة.

واستكملت هذه الرواية برواية أخرى في عام 1932 تحمل عنوان "أبناء وانج لانج"، تبعتها برواية "الأسرة المشتتة" حيث يعيش وانج حتى

يرى أبناءه يتعاملون مع الأرض، خاصة "يوان" الذي يذهب إلى أمريكا من أجل الدراسة هناك، وهو لا يعي أبدًا الدور الذي ينبغي عليه القيام به.

وتقول الكاتبة بيرل باك في مقدمة لطبعة مختصرة لـ "الأرض الطيبة" صدرت في عام **1949**: "منذ عشرين عامًا أو حوالي ذلك، وفي صباح يوم من أيام شهر فيفري في مدينة نانكنج، عاصمة الصين في ذلك الوقت، صعدت درجات السلم إلى الحجرة العليا وبدأت أؤلف كتابًا، ولم يكن هناك شيئًا مرسومًا أو مخططًا أماميًا لا الوقت ولا المكان ولا الكتاب، وعندما جلست للكتابة، جلست في سهولة ويسر، ممتلئة بأحاسيس عميقة، أحاسيس لا تمنحها الروح إلا لحياة دارت بعمق وإدراك بين شعوب عدة.. وبدا لي لأول مرة في حياتي أنه من المحتم أن تتجه أفكاري إلى الشعب إلى الذين يعيشون على الأرض، فاستعرضت ذكرياتي منذ الطفولة إلى البلوغ فبدت أمامي صور هؤلاء الناس التي غطت صور الآخرين لبساطة أصحابها وطيبتهم الخيرة.. ورأيت "وانج لانج" و"أولان" وأطفالهما وبيتهم الريفي وكفاحهم ليعيشوا ويتمتعوا بالحياة، كانوا هم الذين يتركون أرضهم ومنازلهم ويهيمون في الأرض القاحلة بحثًا عن الطعام إلى أن يعودوا إلى أرضهم دائمًا"

ولم يهتم النقاد بالجزئين الثاني والثالث من الثلاثية، واعتبرت: "الأرض الطيبة" بمثابة درة أعمال بيرل باك، في عام **1936** كتبت روايتها "المنفعية" حول كارولين (أم الكاتبة) ومهمتها في الصين، وقد انتهت

الكاتبة بيرل باك من تأليف هذه الرواية قبل رحيل أمها بقليل، أما عن أبيها فقد روت سيرته الذاتية في كتابها "الملاك المناضل"

ويقول الناقد نثائيل لويس: "إن بيرل باك قد حصلت على جائزة نوبل من أجل كتابيها عن أمها وأبيها، وقد أثار فوزها بالجائزة ضجة كبيرة، ليس فقط لأنها صغيرة السن (كانت في السادسة والأربعين) ولكن أيضًا أن كتاباتها لم تكن ترقى في تلك الفترة إلى مستوى الجائزة، وقد عبرت الكاتبة بنفسها عن ذلك حين قالت: "لقد أعطتني الجائزة الثقة في نفسي"

وإذا كانت بيرل باك قد دافعت عن أبناء الصين في رواياتها التي دارت أحداثها في الصين، فإنها تبنت الدفاع عن الملونين بعد عودتها إلى بلادها، وذلك في وقت كانت التفرقة العنصرية على أشدها في الولايات المتحدة، مما عرّضها لهجوم شديد، لكنها استمرت في هدفها المنشود، وبدأت بيرل باك تكتب عنهم روايات كثيرة، كما كتبت عن المطحونين في أرجاء عديدة من العالم، وقد آمنت بيرل باك أن الجنس الأبيض في العالم كله لا يزال أقلية لأن أغلبية شعوب العالم ملونة، ولكن الذي آلم قلبها أكثر من أي شيء ليس كونها عانت شيئًا من الرجل الأبيض وعجرفته ضد الملونين، ولكن لأن شعبها يرتكب الكثير من السوءات في حق الشعوب الأخرى وخاصة الزنوج.

وبعد أن حصلت بيرل باك على جائزة نوبل كانت أمامها رحلة طويلة من العطاء، فنشرت في عام **1939** رواية "المواطن" ثم "ابن التنين" عام **1942**، و"الوعد" في عام **1943**، وقد صُدمت الكاتبة كثيرًا عندما

قامت القوات اليابانية بغزو الصين، وفي عام **1945**، ولأسباب غير مفهومة، قامت بيرل باك باتخاذ اسم مستعار لرجل يُدعى جون سيدج وراحت تنشر به خمس روايات منها "المغامرة الكبرى"عام **1945** و"صوت القلب" عام **1953**، وعن القنبلة الذرية قدمت رواية "هل أنت سيد الفجر" عام **1959**، و"الحياة لا تنتظر" عام **1967**.

وفي عام **1954** أصدرت كتابها "دنيواتي العديدة" وهو سيرة ذاتية كاملة لحياتها الشخصية.. وتصف الكاتبة في هذا الكتاب البلدان التي قضت فيها سنوات عديدة من حياتها بأسلوب ممتع، وأكبر جزء من الكتاب عن الصين والحياة فيها، كما تعرضت فيه إلى الحديث عن بقية الشعوب التي زارتها مثل: الهند واليابان وكوريا وفيتنام، ولم تكف بيرل باك عن تأليف الكتب سواء باسمها الحقيقي أو باسمها المستعار حتى وفاتها في عام **1973**، ومن بين أعمالها الأخيرة "الأرض الكورية" **1963** و"ماتدالا" عام **1970** "الحب يبقى" عام **1972**.

المعاناة

تلعب المعاناة دورًا كبيرًا في حياة كل مبدع، فمن رحم المعاناة تأتي العظمة، ولم لا والكتابة إحدى وسائل التعبير عن الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان فالقلب يترجم الأحاسيس والمشاعر، ويلعب الخيال دورًا مهمًا في حسن التصوير والإبداع الفكري والأدبي، ومنه تخلق أعمالًا أدبية جميلة، فالإنسان المبدع هو ذلك الذي يستطيع أن يترجم أحاسيسه ومعاناته وآلامه وآماله من حالة غير ملموسة أو مشاهدة ثم يحيلها الى صورة ناطقة

معبرة تدعو – وبإلحاح شديد – إلى الوقوف أمامها والتأمل فيها، والتفاعل مع رموزها وإيحاءاتها.

فلا شيء يجعلنا عظماء إلا ألم عظيم، فإذا استمر الألم والمعاناة لسنين طويلة وتراكمت آثارهما وزادت ضغوطاتهما عبر الزمن غالبًا ما تكون النتيجة هي الإبداع أو التحول كما يحب أن يسميه فرويد؛ فالمعاناة التي تتلبس الإنسان ويعيش تحت وطأتها رهينًا لغربة كبيرة عن مُثله ومبادئه وأهدافه وآماله هي التي تفجر الإبداع، وقد يكون سبب هذه الأزمة والمعاناة خارجيًا يتعلق بالمجتمع أو ما يمكن تسميته بأزمة مجتمعية عامة حافزة للإبداع، وهذا ما يمكن أن نلمسه في حياة بيرل باك منذ طفولتها، فبيرل باك عاشت سنوات عمرها المبكرة بعيدة عن بيئتها الطبيعية وفي مناخ يحمل لها الكثير من التهديد حتى لحياتها، بالرغم من أن بيرل باك أحبت بعد ذلك هذه البيئة التي نشأت فيها وكانت سببا في كثير من نجاحها كمبدعة وكاتبة، نشأت في الجزء الإمبريالي من الصين تحت رعاية والديها المبشّرين. كان والدها أبسالوم بروستانيا متشددًا، وعزمه على تغيير الصينيين إلى المسيحية كلفه حياة أربعة من أبنائه السبعة، والذين ماتوا بعد إصابتهم بالكوليرا والملاريا والدوسنتاريا، وهي معاناة أسرية طاحنة عانت منها بيرل باك في حياتها.

وبعد أعوام من هجرة عائلة والد بيرل باك في مناطق الأهوار في الريف الصيني، حيث الناموس الذي لا يمكن التخلص منه، اتخذت زوجته كاري والدة بيرل باك موقفًا واضحًا وحازمًا، معلنة غضبها: "بإمكانك

القيام بالوعظ من بيكين إلى كانتون ولكني وأطفالي لن نذهب معك بعد اليوم وأنا عبر تجوالي معك أفقد أطفالي"

ولذلك فقد نشأت بيرل وهي محاطة بـ" أشباح" أشقائها الذين انتقلوا إلى العالم الآخر، وتقول بيرل باك عن ذلك وعن مشاعرها تجاه إخوتها: "بدوا أحياءً بالنسبة لي"، وقالت بيرل باك ذلك في إشارة إلى العظام المبعثرة في الفسحة التي تحيط بالمنزل والعائدة لأطفال

وحتى بلوغها الثامنة من عمرها وفي هذه السن المبكرة، ظنت بيرل أنها صينية، وكانت تمضي وقتها في أحاديث مع صديقاتها الفلاحات في الحقول، وعلى هذا كانت اللغة الصينية هي لغتها الأولى في هذه الفترة المبكرة من عمرها، وهو ما انعكس على ثقافتها وتكوينها بعد ذلك، وهو أحد أوجه المعاناة التي استمرت مع بيرل باك، حيث اضطرت بيرل باك بعد ذلك لتعلم لغتها الأصلية كلغة أجنبية عنها بعد أن عادت إلى بلادها في الولايات المتحدة.

ولم تقتصر معاناتها على فترة طفولتها فقط بل إن فترة شبابها شهدت مأساة إنسانية من نوع مؤلم ففي عام 1917 تزوجت من شاب أمريكي متخصص في الزراعة، وكان مبعوثًا في الصين اسمه "جون لو سنج بك" وعادت بعد ذلك إلى الصين، ثم عادت بيرل باك إلى أمريكا نهائيًا بعد أن قامت بجولة في الصين وفيتنام والهند وأندونيسيا.

في الأعوام الأولى من حياة بيرل باك كأم شابة مرت بمعاناة من نوع آخر، فقد تزامنت مع أولى المعارك الشرسة ما بين الشيوعيين والوطنيين، وفي خلال حادثة "نانجينج" عام 1927، أمضت بيرل باك مع زوجها طوال يوم في كوخ خلف منزلهما يستمعان إلى صراخ الناس من حولهم، إذ كان رجال العصابات يحاصرونهم ويهددون بقتل سكان المدينة، وفي ذلك اليوم أمضيا الوقت كله ساكنين دون القيام بحركة ما خوفًا من الكشف عن مكانهم. وبعد ذلك الحادث غادرت العائلة إلى اليابان، وأدت هذه الحادثة إلى دفعها لترك مخطوطة روايتها الأولى والتي اختفت بعدئذ وإلى الأبد.

وقد أثمر زواج بيرل باك بنتًا واحدة ولكنها كانت مصابة بالقصور العقلي، وعاشت عمرها بعد ذلك في إحدى المؤسسات المخصصة للأطفال المعاقين بالولايات المتحدة، وفي عام 1935 ساءت حالة ابنتها المريضة، وقررت أن تعود إلى أمريكا وخاصة أن الخلاف بينها وبين زوجها بشأن ابنتهما وغير ذلك من الأمور قد أصبح مستحكمًا، وهو جانب آخر من المعاناة التي مرت بها بيرل باك حيث فشلت في حياتها الزوجية، ولكن بيرل باك لم تكن يائسة لفشلها في الزواج بعد سبعة عشر عامًا، وفي عام 1935 حصلت على الطلاق من زوجها، ولكنها ظلت بعد ذلك تكتب تحت اسم "باك" وذلك بالرغم من زواجها من ريتشادر والش، الناشر الذي يقوم بنشر كتبها.

هذه المعاناة التي مرت بها بيرل باك في حياتها الشخصية انعكست على ما كانت تقوم بكتابته، حتى أنها كانت مدفوعة للكتابة وكأنها بذلك

تبتعد عن إحساسها بالذنب بشأن ابنتها كارول، منشغلة بالكتابة باستمرار رافضة الراحة. وكان موضوعها الأخير "عدم التكافؤ بين الجنسين"، كما أنها كتبت ذكرياتها عن والديها وأسست دار "ويلكم" الوكالة العلمية الأولى ضد العنصرية، مطالبة بالسلام، وحقوق الأطفال وضد التمييز العنصري والجنس، وفي خلال تلك الأعوام أصبحت بيرل صوت العقل والتوازن في السياسة الأمريكية وكانت بذلك متقدمة عن زمنها، بعد وفاة زوجها الثاني انعزلت تدريجيًا عن كل شيء، وظلت تعيش مثل إمبراطورة صينية في منزلها على الطراز الصيني حيث كانت وفاتها في 6 مارس عام 1973م. وعندما توفيت كانت في الثمانين من العمر

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل .. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م .
2) عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، دار المعارف، القاهرة، 1994.
3) ماهر شفيق فريد: تساعية نقدية، مكتبة الآداب، القاهرة ، 2007م
4) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991.
5) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
6) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990.
7) منيرة عبد الجواد، سهير القلماوي: بيرل باك أول أمريكية تفوز بجائزة نوبل، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963.

جابرييلا ميسترال.. صوت أمريكا اللاتينية

لم تكن جابرييلا ميسترال تقبل على الكتابة سعيًا وراء خلاص، ولم تكن الكتابة بالنسبة لها مصدراً للألم، كانت أسيرة قلمها الذي يأخذها إلى عالم التأملات والأفكار،

كانت تنكب على الكتابة، لكن هاجسها الفعلي كان يكمن فيما وراء الكلام، في الصفحة البيضاء الصامتة، وكانت تتوغل في الكتابة، ربما لبلوغ هذه الصفحة بالذات، إنها في حاجة إلى لغة بسيطة إلى أنةٍ إلى صرخةٍ.

جابرييلا ميسترال، هو اسم مستعار للوثيا دي ماريا، وهي الشاعرة التي أطلق عليها صوت أمريكا اللاتينية، بعد أن تم تتويجها للحصول على جائزة نوبل في الآداب عام 1945م، وتعتبر جابرييلا ميسترال واحدة من الشخصيات الرئيسية في الأدب التشيلي، وتعد أول امرأة لاتينية أمريكية حصلت على نوبل في الآداب.

وجابرييلا ميسترال، والدها خوان خيرونيمو جودوي بيانوبيا، كان يعمل مدرسًا، وينتمي إلى إحدى السلالات الباسكية، وعلى الرغم من أن جابرييلا غادرت منزل والدها وهي لم تبلغ بعد ثلاث سنوات من عمرها، إلا أنها كانت تحبه وتدافع دائمًا عنه، وأول أبيات شعرية كتبتها أهدتها لوالدها، وقالت في أكثر من مناسبة "لقد أيقظ أبي بداخلي العطفة الشعرية

وقد عملت بمهن مختلفة فهي معلمة ودبلوماسية وشاعرة، وُلِدَت في مدينة فيكونيا الشمالية بشيلي، وتنامى لديها اهتمام مبكر بالشعر والأدب والكتاب المقدس والبيئة الطبيعية، حيث قضت طفولتها في قرية مونتي غراندي. واعتمدت بشكل كبير في حياتها على التعليم والتثقيف الذاتي، وبدأت العمل من الخامسة عشر من عمرها كمساعدة مدرس لتُعيل نفسها وأمها، وفي عام 1904م تسلمت وظيفتها التي عملت من خلالها كمدرسة مساعدة في مدرسة محلية، كما بدأت أيضًا في نشر مقالاتها في صحيفة كوكيمبو السيريانية، ونشرت أيضًا في صحيفة "صوت إلكي" في يكونيا عام 1908م.

في عام 1910م فقد حصلت جابرييلا على أول شهادة تدريس مهنية تؤهلها أن تتقدم في وظيفتها وظيفتها، ونجحت جابرييلا في أن يكون لها إسهامات مهنية ناجحة في عملها كمدرسة، بالرغم من عدم استطاعتها الالتحاق بأية دراسة منتظمة، وهذا النجاح المهني أعطاها فرصة لأن تسافر كثيرًا في أنحاء تشيلي لتلم بالظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة في بلدها، وهو ما انعكس على ما قدمته من أدب، حيث نَظَمت الشعر والنثر وكَتبت المقالات وكانت لها مراسلات ثرية مع عدد من المفكرين البارزين في هذا الوقت.

بل إن مثابرة جابرييلا في مهنتها هو ما أهلها لأن تكون المعلمة للدولة في المدارس الثانوية بمعارفها وخبراتها دون الالتحاق بالمعهد التربوي

التابع لجامعة تشيلي، وبرهنت بعد ذلك على قيمتها المهنية عندما قامت بالتعاقد مع الحكومة المكسيكية لإرساء أسس نظامها التعليمي الجديد.

وفي عام 1914م فازت بالجائزة الكبرى في المسابقة الشعرية خويغوس فلوراليس (ألعاب الأزهار) عن سونيتوس دي لا مويرتي (سونيتات الموت)، وكان من ضمن حكام هذه المسابقة الشاعر التشيلي مانويل ماغايانِس موري (1878 – 1924)، الذي كانت جابرييلا قد بدأت مراسلته قبل ذلك بفترة، وحيث يظهر مما تبقى من هذه الرسائل المتبادلة جوانب مختلفة من شخصية جابرييلا وتُظهِر حيوية واتساع مجال النثر الذي كتبته.

وللمفارقة، فقد كان أول عمل أدبي ناجح يلفت الأنظار بشكل كبير لها، هو ما نشرته خلال وجودها في المكسيك، فهناك نشرت عملها "قراءة من أجل النساء"، أما في تشيلي فقد ظهر الإصدار الثاني من كتاب "إقفار" بتوزيع عشرين ألف نسخة، كما ظهر في إسبانيا كتاب "مختارات" من أفضل الأشعار بمقدمة لمانويل فونتوليو.

وعقب قيامها بجولة داخل الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، عادت إلى تشيلي حيث تأزم الوضع السياسي وأصبحت مضطرة للخروج من بلادها في سنة 1926م وأن تعمل في أوروبا كمسؤولة أحد أقسام عصبة الأمم. وفي نفس العام شغلت ميسترال منصب أمانة معهد التعاون الدولي وعصبة الأمم في جنيف، وفي هذه الأثناء كانت قد قامت بنشر كتاب "تيرنورا" في مدريد، وفيه قامت بعمل بعض التجديدات في "الشعر

التعليمي"، مستحدثة أيضًا الأنواع التقليدية للأشعار الخاصة بالأطفال، على سبيل المثال "أغاني المهد والتهويدات"، من واقع تجربتها الشعرية.

وفي عام 1924 توفيت والدتها بترونيلا ألكايجا، ولذلك خصصت لها الجزء الأول من كتابها "تالا". ومنذ ذلك الوقت تحولت حياة ميسترال إلى سلسلة من العمل المستمر الذي بدأته في تشيلى، وكان ذلك دون وجود موقف محدد تستخدمه لإثبات موهبتها، وفضلت أن تعيش ما بين أمريكا وأوروبا، وهو ما استمر طوال حياتها.

الأديبة والمعاناة

ككل المبدعين كانت المعاناة هي مرادف الإبداع، لأن الإبداع لا ينتج عن شخص عادي يعيش في ظروف عادية، وإلا أنتج أدبًا عاديًا، أما الإبداع فإنه ثمرة مميزة يصدر عن شخص مميز يحيا ظروفًا خاصة غالبًا ما تكون معاناةً وقهرًا أو إحساسًا بالظلم، إن عملية الإبداع في الواقع هي تعبير عقلي قائم على مضمون وأحاسيس. دائما الألم لدى المبدعين هو الوقود للسير في طريق الإبداع والخلود، وأجنحة حلق بها أصحابها في عوالم الفكر والشعور، ومعارج عرجت بهم إلى قمة العطاء، جاعلين من الألم في حياتهم ليس فقط أحاسيس عابرة وذكريات أليمة، وإنما الألم هو ثقافة وفكر وخيال واختزال لمآسي البشر ومحفز للبحث عن النور في ظلمة الأيام والمسؤول الأول عن ولادة الإبداع.

ونجد كثيرًا من المبدعين الذين يحدثنا عنهم التاريخ أو ممن يعيشون بيننا كانوا قبل أن يتفجر فيهم نهر الإبداع يرزحون تحت وطأة ظروف معينة، ويعانون من قسوة تلك الظروف، وهي كما يبدو معاناة مؤلمة وكبيرة لم تتوافر لديهم أدوات التغلب عليها، وأصبحت مصدر ألم وأسى وقلق، وبمعنى أدق أصبحت معاناة يقتاتون منها خواطرهم وشجونهم وهمومهم. وتلبستهم تلك المعاناة وعجنت دماءهم وبشرتهم معها حتى أصبحت جزءًا منهم وهم أصبحوا جزءًا منها، وبالتالي تمازجت المعاناة مع نبض الحياة وسرت في داخله سريان الدماء في الشرايين، وبذلك فإنها تكون منبع الإبداع، وشرارة تشتعل منها شموع اتساع الأفق والقطرة التي يتكون منها عمق بحر التجربة، فيكون العمل الإبداعي صورة حية تنطق بما يختلج في قلب وفكر المبدع وينبض بروح الحياة في العمل الفني.

والإنسان المبدع هو ذلك الذي يستطيع أن يترجم أحاسيسه ومعاناته وآلامه وآماله من حالة غير ملموسة أو مشاهدة، ثم يحيلها إلى صورة ناطقة معبرة تدعو وبإلحاح شديد إلى الوقوف أمامها والتأمل فيها، والتفاعل مع رموزها وإيحاءاتها ومحاولة استنطاق مواطن الجمال والإبداع فيها، وبمعنى آخر، فالمبدع هو ذلك الشخص الذي يجبر المتلقي على قبول العمل الذي قام به المبدع فيقبله قبولا ممزوجا بالإعجاب واستلاب الألباب.

وحياة جابرييلا ميسترال خير مثال على المعاناة التي تصنع الإبداع والمبدعين، فجابرييلا حُرمت منذ طفولتها المبكرة من أبيها، حيث فارقته

ولم يزد عمرها عن ثلاث سنوات، وبعدها كان الفقر والحاجة هما رفيق جابرييلا ميسترال في الفترة المبكرة من حياتها، لدرجة أنه حتى بعد أن ذاعت شهرة جابرييلا ميسترال ككاتبة بعد فوزها بجائزة تشيلي في الأدب عام 1914 عن مجموعتها قصائد الموت، وهو الحدث الذي شغل الجميع في وقتها لأنها كانت المرة الأولى التي تمنح فيها هذه الجائزة لكاتبة غير معروفة في الوسط الأدبي التشيلي لتفوز بها معلمة فقيرة أثبتت موهبتها، إلا أن جابرييلا ميسترال التي كانت تتشوق لمثل هذه المناسبة، لم تتمكن من حضور حفل تكريمها، وعوضًا عن هذا أرسلت مجموعة من قصائدها إلى منظمي الحفل لإلقائها نيابة عنها. أما عن السبب فقد اتضح فيما بعد، فالشاعرة التي نالت أرفع جائزة أدبية في تشيلي لم تجد بأثواب خزانتها سوى ثوبًا واحدًا لا يليق بحضور أكبر حفل أدبي تشهده تشيلي في هذه الفترة.

وبتأمل هذه الحادثة نجد فيها ما يلقي الضوء على جزء كبير من حياتها ومعاناتها، فهي الفقيرة التي كدحت طويلًا لإعالة أسرتها من بعد رحيل الأب، وهي الانطوائية العاشقة التي تألمت كثيراً لأجل الحبيب الذي انتظرته طويلًا لتصدم بعد فترة بقصة زواجه من أخرى. كل هذا لم يبرح خيالها فإن نامت كان أنيسها بأحلامها وإن صحت يركض حنينها إلى السلام عليه ومنادته، لتكتمل فصول مأساتها بحادثة موته الغامضة لتظل بامتداد حياتها وفية لذكراه عازفة عن الزواج مع أنها مسكونة بالأمومة حتى النخاع.

في عامها الواحد والعشرين كان الحب: عندما أحبت "روميليو أوريتا" كان عاملا في شركة سكة حديد، فكان هو الحب الأول، وربما الأخير أيضًا، أحبته ميسترال لدرجة الجنون، كانت ترى الكون من خلاله، وتراه هو الكون، "أريد أن أتبسم في الطرقات كلها، وأثق بالناس جميعًا مادمت قد جئت إليَّ، غير أنني تعلمت أن أخاف حتى في أحلامي، وأتساءل: أأنت هنا؟ ألن تذهب؟"

لكنه الفراق الأبدي، الانتحار؛ قتل حبيبها نفسه بعد اتهامه في قضية اختلاس، أطلق الرصاص على نفسه، وتركها تواجه الدم والحنين، تركها وحيدة في هذا العالم، هكذا قالت في قصيدتها "أن أراه ثانية؟"

"ألن أراه أبدًا بعد؟

حسبي أن نكون معًا في الربيع أو الشتاء

وأن تكون يداي أكثر لطفًا من النسيم

وهما تطوقان عنقه المغطى بالدماء"

ولم يكن انتحار خطيبها هو الحادث الوحيد الذي عانت منه من حوداث انتحار المقربين منها، وما يرتبط بمثل هذه الحوادث من آلام، بل وقد تزامن حصولها على جائزة نوبل مع حادثة انتحار ابن أخيها ين ين خوان ميجيل ميندوثا في سن الثامنة عشرة، والذي قامت برعايته بمشاركة صديقتها بالما جيين منذ أن كان في سن الرابعة، ليظل الألم والمعاناة رفيقين لها طول سنوات حتى بعد فوزها بجائزة نوبل للآداب، فقد كانت جابرييلا

ميسترال امرأة حزينة ومحطمة، ومصابة بمرض خطير لم يمهلها سوى سنوات قليلة، ورغم أن بلادها قد احتفت بها في مناسبات عديدة، خاصة حين عودتها من رحلة علاج عام 1954، إلا أن المرض والأحزان كانا ثقيلين عليها فماتت في مستشفى بمدينة نيويورك في يناير 1957.

تجربة خاصة جدا

المتتبع لأعمال جابرييلا ميسترال يجد أن ديوان "إقفار" هو أول عمل رائد لها، حيث ظهر في نيويورك في عام 1922، وبصفة عامة فقد كانت جابرييلا هي الأم التي تغنت بأبناء لم تستطع إنجابهم سوى في قصائدها، وهنا تحديدًا نستطيع فهم هذه الترانيم الدافئة بالحنين إليهم فهي استطاعت بتغنيها بالأمومة طرد شبح الوحدة المرعب عنها، الأمومة هي سر شخصية ميسترال بجانب الحب. حبيبها انتحر، وحرمت من الإنجاب، رفضت أن تتزوج غيره، ولكنها استمرت في مشاعر الأمومة، وكأنها تقرب إلى إيزيس، إله الأمومة، صراع الغضب من الموت، أمام هدوء الأمومة والحب: "الكراهية هي لحظة، وأبدي هو الحب"، هكذا كانت ميسترال بكل بساطة، هي من ترى في الأمومة السلام النفسي وكنز السعادة وحلم الهدوء وبراح الحياة والوداعة، كما في قصيدة وداعة:

"أهدهدك.. طاردة كل قسوة من أغنيتي حيث الفهود والأفاعي وديعة كأنفاسك".

ترى الطفل هو سر الكون كالحبيب، ربما صار هو الكون حقًا بعد انتحار الكون "الحبيب"، وكأنها أم حزينة تقول في قصيدة بنفس الاسم: "في نومك يغفو قلقي وكآبتي، وآلام إساءة الناس إليَّ، إغماضة عينيك إغماضة لي، أنا يقظى وقلبي نائم"

الأمومة لديها حضور فعال ضد الوحدة والموت واليأس، على الرغم من أنها عملت مدرسة في سن مبكرة، حتى تساعد أسرتها، كما نشرت في سن مبكرة أيضًا بعض المقالات والأشعار في عام 1905، إلا أنها ورثت الشعر عن أبيها وعملت مدرسة في الريف فترة طويلة فلما شهرها الأدب طلقت التدريس وتفرغت للأدب، مع أنها عملت بعدها في السلك السياسي والدبلوماسي، وعملت في عصبة الأمم، وقد عاد عليها الأدب ببضع درجات دكتوراه فخرية من جامعات أوروبية وأمريكية. وفي العشرينات من عمرها تأثرت جابرييلا ميسترال بالفيلسوف الفرنسي هنري برجسون..

إننا أمام شخصية مزجت في داخلها بين التجربة الخاصة الغنية، وبين الثقافة الإبداعية المتميزة، وعلوم التربية، وقد تركت جابرييلا أثرًا في مناهج التربية والتعليم بأمريكا اللاتينية ما يعادل أهميتها كشاعرة تمتاز أشعارها بالبساطة والاسترسال والبلاغة، وبخصوبة الخيال وإنسانية الرؤية ورقة الأداء.

لم تكن جابرييلا ميسترال تقبل على الكتابة سعيًا وراء خلاص، ولم تكن الكتابة بالنسبة لها مصدرًا للألم، كانت أسيرة قلمها الذي يأخذها إلى

عالم التأملات والأفكار، كانت تنكب على الكتابة، لكن هاجسها الفعلي كان يكمن فيما وراء الكلام، في الصفحة البيضاء الصامتة، وكانت تتوغل في الكتابة، ربما لبلوغ هذه الصفحة بالذات، إنها في حاجة إلى لغة بسيطة إلى أنةٍ إلى صرخةٍ.

إن سعيها إلى الصمت والتأمل يعشش بين ثنايا أحرفها، لكنه الصمت الشاعري المليء وليس صمت الفراغ الخاوي، صمت الأسئلة المؤججة في الحوار الداخلي لشخصيات رواياتها، وقد بدت هذه السمات في دواوينها العديدة، ومنها "مرثيات" المنشورة عام 1923 و"تالا" عام 1938 و"أشعار دينية"

وقد أثارت أشعار ميسترال جدلًا دائمًا، فيما تتضمن رسائل الحب بين البشر والاحترام والطاعة، وكم جذبت انتباه الأطفال لضرورة الاتصال بالطبيعة، هذه الطبيعة التي بدت واضحة في جزء من قصائدها المنشورة في ديوان "تالا" حيث بدت مشغوفة بحضارة الإنديز التي قدست الشمس، وبالجو الاستوائي، والبحر الكاريبي، وأيضًا بمزارع الذرة، وبالبراكين، وقد أطلقت الشاعرة علي نفسها تسمية "حكاءة العالم" أثناء تلك الفترة التي عاشتها في المكسيك.

وقد انعكس اهتمامها بأسس التربية والتعليم كشاعرة في الكثير من قصائدها: مثل قصيدتها عن "الطفل المكسيكي" التي تقول فيها

عيناه من الياقوت الأسود تلقي عليَّ نظرة مليئة بالحياة الأبدية وأنا، بمشاعري الأبدية أقبضه بين يديَّ وأداعب شعره، وبقدر ما هو ناعم بقدر ما يفصلني عنه.

هناك أيضًا الماء والضوء، وهما من المفاتيح الأساسية للدخول إلى عالم جابرييلا ميسترال، الضوء مسعى والماء يختزن عناصر الولادة والموت، في روايتها "تدفق رقيقًا يا نهر" في عام **1939** تظهر هذه العلاقة بين الماء والضوء، ويظهر الالتباس أيضًا، مثلما تلتبس مواقف الشخصية الأساسية في كتاب "أورلندو" في بحثها عن جنس الإنسان وكينونته، وليس أي إنسان كان، بل ذلك المغمور بجماليات الأدب والشعر، وهي تقول عن الماء والضوء:

"أتمنى أن ألتقط هكذا، شدو البحر والعصافير، الفجر والحديقة، الحاضرين بلا وعي، المتممين بأفعالهم"

كما توفق بين العناصر المختلفة في أدبها مثلما يوفق الفنان بين الألوان، وهي فنانة في كتابتها وموسيقيتها أيضًا، توزع الأفكار داخل الرواية وتعود إليها مرارًا، كما الماء ينبض في الماء ويتراجع ليعود، كما نشرت جابرييلا ميسترال العديد من المقالات عن الاقتصاد والثقافة والسياسة في قارة أمريكا اللاتينية زادت من مكانتها وسط أبناء قارتها، وقد قال عنها الرئيس المكسيكي الأسبق "ألفونسوريبس":

"إننا نجد فيها سلوك القديسات اللاتي يواجهن رعب التاريخ، نجد فيها الإيمان بالإنسان، والوعد بأرض يملؤها عبق السعادة لكل البشر"

وفي عام 1928 نشرت جابرييلا ميسترال ثماني مقالات عن "حقوق الطفل" ممزوجة ببعض القصائد حول الموضوع، وخصصت مؤتمرًا للإبداع النسائي حضرته شاعرات قرضن قصائد للأطفال ومنهن: ألفونسينا ستوارني، ديلميرا جوستيني، وخوانا دو إيبريورو.

يقول الناقد الفرنسي كلود فيل: إن المأساة هي عمود الشعر عند جابرييلا ميسترال، وقد امتزجت هذه المأساة من خلال حياتها الخاصة، وارتباطها بالبسطاء من أبناء شعبها، ورغم أن جابرييلا قد اشتهرت كشاعرة، إلا أنها كتبت المقال، واشتهرت ببلاغتها في الخطابة، وقد تتلمذت على يدي شاعر تشيلي يدعى فيثنته هيودوريو، كما أن مفتاح الدخول للشاعرة هو تدينها، فقد كانت تؤمن أن الدين مهم للغاية في إعطاء معنى للحياة الاجتماعية ومن أجل إنقاذ الناس، ولذا ففي أشعارها استعارت عبارات من العهد القديم، كما تأثرت الشاعرة بحياة وشعر طاغور، وقد أعجبت به كثيرًا، وجاءت أهميتها من أنها مزجت الشعر بالفلسفة الشرقية، وتعتبر هذه الدواوين بمثابة المنهل الذي ولدت منه أغلب الأشعار الحزينة، ودواوين المرثيات الحديثة.

كل هذه الحياة الحافلة جعلت ميسترال شاعرة أمريكا اللاتينية الحاصلة على جائزة نوبل، ووصفتها الأكاديمية السويدية بـ"الملكة الروحية لأميركا اللاتينية"، وعملت في عدة مناصب سياسية. ميسترال كانت

صاحبة حياة مأساوية إلى أبعد حد، وشعرها ابتسم كما اتضح في المقاطع السابقة، بالبساطة والهدوء والجمال، الجمال غير المقرون بالبهجة فقط، الجمال والتفاصيل الصغيرة غير المعقدة، تقول في قصيدة "الراقصة".

المراجع:

(1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.

(2) حسب الشيخ جعفر (ترجمة): جابرييلا ميسترال، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998 .

(3) جابرييلا ميسترال – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

https://ar.wikipedia.org/wiki

(4) عبد القادر الشاوي: غابرييلا ميسترال: ذاكرة الشعر، جريدة العربي الجديد، لندن، ع16 يونيو 2015

(5) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991.

(6) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

(7) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990.

(8) مجموعة من المؤلفين: أفضل القصص القصيرة في القرن العشرين، تحرير: جون أبدايك وكاترينا كنيسون، ترجمة: فؤاد سروجي – نسخة إلكترونية بدون تاريخ نشر .

نيلي زاكس .. الجائزة والاتهامات

عزز من الاتهامات بالتسييس والعنصرية والتحيز التي طالت لجنة جائزة نوبل في اختيارها للفائزين بها، والشبهات حول وجود أسباب سياسية لمنح الجائزة لنيلي زاكس،

هو أن لجنة جائزة نوبل قررت في نفس هذا العام أن تتقاسم نيلي زاكس الجائزة مع الأديب اليهودي شموئيل يوسف عجنون، وكان مبرر فوز نيلي زاكس في هذا العام بجائزة نوبل بالمناصفة مع شريكها اليهودي في الجائزة شموئيل يوسف عجنون أنهما عبرا بدقة عما يسمى بـ"القدر اليهودي"، وهو تعبير ينطوي على قدر ملحوظ من التحيز لليهود ولإسرائيل.

نيلي زاكس، أديبة ألمانية حصلت على جائزة نوبل للآداب عام 1966م، وهي واحدة من نماذج أديبات نوبل اللائي اعتبرن أن حصولهن على جائزة نوبل دليل على أن هذه الجائزة الرفيعة تميل نحو العنصرية والمحاباة، بالنظر لما اشتهر عن زاكس من تعصب لليهود..

ولدت زاكس في 1891م في برلين شونيبرج، وكانت الابنة الوحيدة لويليام زاكس الذي كان مخترعًا وصاحب مصنع، والأم مارجاريته (مولودة بلقب كارجر)، ونشأت في أسرة مثقفة متآلفة في مناخ برجوازي، لكن بسبب سوء حالتها الصحية فقد تلقت دروسًا خاصة لمدة ثلاث

سنوات والتحقت في عام **1903** بمدرسة الفتيات العليا، وحصلت منها بعد خمس سنوات على الشهادة المتوسطة.

وكانت بداية تعلقها بالأدب عندما قرأت في سن الخامسة عشرة أولى روايات زيلما لاجرلوف بعنوان Gösta Berlin وأعجبت بها جدًا، لدرجة أنها تبادلت الرسائل مع الكاتبة السويدية، ودامت تلك المراسلة **35** عامًا، وكتبت أولى قصائدها وهي في سن السابعة عشرة.

كانت نيلي انطوائية وقلما كانت تهتم بالحياة الاجتماعية، وظلت عزباء بعدما حاول الأب قطع علاقتها الغرامية برجل مطلق، إلا أن العلاقة ظلت بينها وبين ذلك الرجل قائمة، وظلت شخصيته مجهولة لعدة سنوات.

ولم يكن الأب ويليام زاكس يميل إلى تعليم ابنته خارج حدود المنزل، لذا كان يدبر لها كافة سبل التعليم في المنزل، وقد ساعدها ذلك أن تنهل في طفولتها وصباها من الأدب الألماني خاصة الشعر الرومانسي، وقد نظمت أولى قصائدها وهي في السابعة عشرة من عمرها، وبدت متأثرة بالعاطفيين الذين يعشقون الله والحب والموسيقى والموت، وتمنت نيلي أن تصبح راقصة بعد أن انتهت من دراستها، لكنها فوجئت بموقف متشدد من الأسرة، فداومت الكتابة، وكانت تعتبر سلمى لاجيرلوف الكاتبة السويدية التي حصلت على جائزة نوبل عام **1909** مثلها الأعلى، فراحت نيلي زاكس تراسلها بلا انقطاع، بل وطلبت منها أن تساعدها للخروج من ألمانيا تحت الحكم النازي بعد أن تعرضت للاضطهاد والتهديد بالقتل.

مات والد نيلي بعد معاناة طويلة مع مرض السرطان في عام 1930، فانتقلت مع والدتها إلى أحد البيوت الخاصة في شارع ليسنج شتراسه في برلين، وعاشت نيلي زاكس مع والدتها في الثلاثينات في برلين حياة صامتة ومنعزلة، وأخيرًا قررت نيلي الهرب من ألمانيا مع أمها، وسافرت مع صديقتها "الآرية" جودرون هارالان في صيف عام 1939 إلى السويد لطلب المساعدة من زيلما لاجرلوف للحصول على تأشيرة سويدية، لكنها لم تستطع المساعدة بسبب حالتها الصحية فقد ماتت قبل أن تفعل لنيلي زاكس شيئًا. فاتجهت نيلي مع صديقتها هارلان إلى الأمير الرسام أويْجن، وهو شقيق لملك السويد، والذي ساعدها، فبعد عقبات بيروقراطية استمرت شهور استطاعت زاكس وأمها في مايو 1940 السفر إلى ستوكهولم.

في السويد عاشت مع صديقتها هارلان في ظروف فقر في مسكن من حجرة واحدة في جنوب ستوكهولم. وكانت نيلي ترعى والدتها وعملت بشكل مؤقت غسالة لتكسب قوت يومها. وبدأت تتعلم السويدية وتترجم الشعر السويدي الحديث إلى الألمانية.

وهذه المعاناة الحياتية في حياة زاكس هي التي صنعت منها مبدعة بارزة، تتأهل في نهاية المطاف للفوز بجائزة نوبل بالنظر إلى العلاقة الوثيقة بين المعاناة والإبداع، فمثل كل المبدعين كانت المعاناة هي مرادف الإبداع وسر من أسراره، وهو ما حدث مع نيلي زاكس والتي قضت حياتها في محن وصعاب وتنقلت بين المصحات النفسية.

كاتبة الأساطير

أصدرت نيلي زاكس أولى مجموعاتها الشعرية بعنوان "أساطير وقصص" في عام 1921 وبتشجيع ومساندة من الأديب شتيفان تسفايج، وكانت القصائد الأولى ذات الصبغة السوداوية لم تزل مصطبغة بتأثيرات من المدرسة الروائية الجديدة وتدور حول مواضيع من الطبيعة والموسيقى. لكن عندما قامت نيلي زاكس بنشر أعمالها الكاملة فيما بعد لم تضمنها تلك المجموعة الشعرية.

وفي نهاية العشرينات نشرت قصائدها في عدة صحف برلينية ومن بينها Vossische Zeitung ، Berliner Tageblatt ومجلة die Jugend. وقد لقيت قصائدها الترحيب سواء من القراء أو النقاد. أما القصائد ذات الروح التجريبية والحائدة عن الطرق التقليدية وذات الأسلوب الصعب الفهم فقد تركتها تمامًا.

وتطور شعرها أثناء سنوات الحرب بشكل كامل عن قصائدها المبكرة الرومانتيكية، فقصائدها لعامي 1944/43 والتي صدرت فيما بعد في مجموعة "في مساكن الموت" تتضمن صورا للألم والموت، وتعتبر تأبينا فريدا لشعب معذب. وبجوار قصائدها التي كتبت في الأربعينيات مسرحيتان هما إيلي وإبرام في الملح. في فترة ما بعد الحرب واصلت زاكس الكتابة بلغة عميقة ومريرة لكنها رقيقة عن فظائع الهولوكوست.

وفي عام 1949م نشرت ديوانيها "في مساكن الموت" و"إظلام النجوم" في برلين الشرقية، ولكن لم تنشر لا في السويد ولا في المناطق

الغربية من ألمانيا. وفي العام نفسه نشرت مجموعتها الثانية إظلام النجوم في أمستردام، وأثنى عليها النقاد، وقرأت بشكل نادر في الجمهورية الألمانية الاتحادية الحديثة النشأة. وفي مجلة Sinn und Form الصادرة في شرق ألمانيا نشرت بعضًا من نصوصها. وقد ظلت زاكس وأمها في ظروف مالية سيئة، لكنها كانت تعيش في تلك الفترة من الترجمة.

لكن في بداية الخمسينيات ماتت أمها وترك ذلك أثرا نفسيًا عميقًا عليها، وفي عام 1963 حصلت على الجنسية السويدية، أما في نهاية العقد وبعد سنوات من العزلة وجد اسمها أخيرًا طريق الشهرة في البلاد الناطقة بالألمانية. ونشرت مجموعتاها "ولا يعرف أحد المزيد" و"الهروب والتحول" المتأثرتان بالسريالية الفرنسية في عامي 1957 و1959 في هامبورج وميونخ وشتوتجارت، لكن نيلي زاكس لم تعرف ككاتبة في ألمانيا إلا بعد أن أذيعت لها مسرحية إيلي Eli فأذيعت كمسرحية إذاعية في عام 1959 في راديو جنوب غرب ألمانيا.

الواقعية والساخرة

وفي عام 1966 كانت أكاديمية ستوكهولم قد اختارت الكاتبة الألمانية اليهودية نيللي زاكس لتفوز بجائزة نوبل، وبدون مبررات واضحة منحت الجائزة لكاتب إسرائيلي آخر، لتتوجه الأضواء ناحية كاتبين مغمورين لا يعرف العالم عنهما شيئًا.

واشتهرت نيلي بتأثيرها على تطور الواقعية في الشعر الألماني عن طريق كتابتها النقدية وصالونها الأدبي، واتهم النقاد أسلوبها في الكتابة بالغموض، وتمتاز زاكس بموهبة ساخرة وقدرة على وصف الدقائق المميزة، واختيار ممتاز للفظة الموسيقية، وأشعارها يعرفها ويحبها كل من تعلم الألمانية، تمردت في وقت مبكر من حياتها على العرف الإقليمي، وانطلقت تبحث عن مكانها تحت الشمس، ومن ثمة فقد حصلت على قدر ضئيل من التعليم الرسمي، وتركت ألمانيا بسبب اضطهاد اليهود قبيل الحرب العالمية الثانية وهاجرت إلى السويد، حيث تعلمت السويدية وانصرفت إلى كتابة الشعر وشعرها كله بكائيات متأثرة بالتوراة. وعلى الرغم من تمردها، فإن أحسن أعمالها يكاد يكون محصورًا في القصائد التي تعالج حياة قصة بطلة نشأت مثل نشأتها، وفي مثل سنها ولها خلفيتها تتخذ مادة مجتمعها لبناء أعمالها، ومن هذا المنطلق نراها تستخدم المادة التي لا تنضب ولا تنتهي، وعلى الرغم من ذلك فهي أكثر التزاما بالتجرد عن الهوى والبعد عن التحيز والتمسك بالاستقلال في الرأي مثل غالبية زمرة الكتاب الألمان. ونيلي زاكس ذات ثقافة يهودية أوروبية، وهي الثقافة التي تهتم بمعاناة اليهود ومتاعبهم، وتؤكد على ما حدث في معسكرات الاعتقال على أيدي النازيين، وهي مفردات لم نجدها عند الروائي الإسرائيلي يوسف عجنون، فقصائدها مستوحاة من الثقافة اليهودية، وامتلأت مفردات شعرها بتعبيرات من العهد القديم، واستخدمت طريقة رمزية دقيقة، حيث عرضت الماضي بوصفه قوة داخلية جبارة.

وهكذا نلمس جهودها من قصيدة إلى قصيدة، وكانت أول مجموعة شعرية لها هي "يهوذا المتبجح" 1930، وتضم بالإضافة إلى القصيدة التي تحمل عنوانها، ثلاث قصائد أخرى على الأقل "حمل ماريا" وتعد واحدة من الحالات القليلة التي تتخلى فيها الشاعرة عن خلفيتها المألوفة، و"المرآة المشروخة"، ولكنها أقل إسرافًا، و"أحلام اليقظة"، وأنجح مجموعة شعرية لها كانت "البرج المائل" التي ظهرت في عام 1946وتدور حول ألمانيا النازية، وفيها يبعد التركيز، فهي محاولة مجردة للتعليق الاجتماعي إلى أبعد حد، وتظهر مواضع الضعف عندها أوضح ما تظهر في مجموعتها "سفينة من الحمقى" 1962 التي استغرقت الشاعرة عشرين عامًا من التأليف. إنها قصة رمزية آلية عن حمولة سفينة من المسافرين إلى ألمانيا في الثلاثينات تصف الحماقات الإنسانية الاجتماعية مستهدفة الإحاطة بالخلق النازي، ولكن شهرتها الذائعة تقوم على ديوانها "جواد واهن" والتي تستحق على الأقل أرفع الاهتمام بوصفها ريادات للضمير الذاتي.

إذا بنيت جدرانك من جديد منزل، ومنامة ومائدة ومقعد فإن الدموع التي تذرفها عليهم تذوب لا تقلق الذين يسكنون معك فوق الصخر.

وقد تأثرت الكاتبة كثيرًا بموت خطيبها في عام 1943، فكتبت قصائد مليئة بالألم والحزن، وكانت نيلي قد تعرفت على شاب اعتبرته خطيبها، ولكن أباها رفضه كزوج حيث رآه غير مناسب بحجة أنه أكبر سنًا

من ابنته، مما دفعها إلى ترك البيت الضيق لكي تتخلص من سلطة الأب، رغم أنها عاشت بعيدًا عن البوهيمية الألمانية، وقد ظلت نيلي زاكس تلتقي بهذا الرجل سرًا طوال ثلاثين عامًا، وعندما تم القبض عليه في عام **1940**، كانت نيلي محلًا للاستجواب عن نشاطه، مما دفعها إلى أن ترحل مع أمها إلى السويد، وكانت قد خططت لهذه الهجرة قبل ذلك بعام، وفي السويد راحت النساء من بنات جاليتها تمد لها يد المساعدة، ويقول لينويل ريتشارد، أستاذ الأدب المقارن بباريس: إن سفر الشاعرة إلى السويد كانت له أسبابه، ومنها تسهيلات السفر وعلاقتها بالأديبة سلمى لاجيرلوف التي لم تتمكن من استقبالها في ستوكهولم بسبب مرضها الشديد. وهناك علاقة صداقة قوية وشديدة بين نيلي وسلمى، فقد كانت هدايا الكتب التي تأتيها في أعياد ميلادها عبارة عن مؤلفات الكاتبة السويدية، كتب سلمى الجديدة ترسلها بنفسها من السويد، كما راحت نيلي زاكس بدورها ترسل أعمالها إلى الكاتبة ومنها كتاب "أساطير وحكايات"، وفي حياة نيلي زاكس كاتب آخر راح يساعدها وهو موستيفان زفايج، الذي رأى فيها شاعرة حقيقية ثرية بالألم والعمق وتمثل ثقافة وإبداعًا خاصًا. وقد وقعت الشاعرة طوال سنوات أسيرة لنفس التجربة الإنسانية في أشعارها، حتى حقبة الستينات، من هذه الموضوعات المتكررة الحنين والتساؤل عن سبب كراهية إسرائيل، ومعاناة الكاتب في المنفى، وكما رأينا فإن هذا المنفى لم يكن موجودًا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. ومع منتصف الستينات اتجهت الشاعرة أكثر نحو الله، وزاد تعصبها الشديد تجاه إسرائيل وديانتها:

يا شعب الأرض لا تدمروا عالم الكلمات ولا تقطعوا بسكين الحقد الصوت الذي يولد مع الريح..

وهكذا أسفرت الشاعرة اليهودية عن تعصبها من خلال قصائد ديوانيها "هروب ومسخ للكائنات" و"جسر الألغاز"، وهو الأمر الذي أثار العديد من التساؤلات حول أسباب منح الجائزة لكاتبة يهودية والاهتمام بكل ما هو يهودي الثقافة من قبل الأكاديمية السويدية المانحة لجائزة نوبل.

كانت أول جائزة أدبية حصلت عليها نيلي زاكس، هي جائزة الشعر من الدائرة الثقافية في النقابة الاتحادية للصناعة الألمانية في عام **1959** لكنها حصلت عليها في غيابها. فلم تكن زاكس ترغب في العودة إلى ألمانيا، فخوفها كان ما زال كبيرًا، وظهرت عليها علامات مرض نفسي.

وبعد أن منحت جائزة دروسته الميرزبورجية للأديبات في عام **1960**، كانت تلك المرة الأولى التي تطأ فيها أرض ألمانيا بعد عشرين عاما من الغربة، لكنها انهارت بعد عودتها إلى السويد. وقضت ثلاث سنوات في مصح نفسي في ستوكهولم.

في عام **1961** أسست مدينة دورتموند جائزة نيلي زاكس ومنحتها لصاحبة الاسم. وكانت أول امرأة تمنح جائزة السلام لتجارة الكتب الألمانية في عام **1965**، وكانت سببا في رحلتها الثانية إلى ألمانيا.

في عيد ميلادها الخامس والسبعين في **10** ديسمبر **1966** منحت جائزة نوبل في الأدب من يد الملك السويدي. وألقت خطاب

شكرها القصير بالألمانية واقتبست فيه من قصيدة لها: "استبدلت بالوطن تحولات العالم". وقد منحت زاكس القيمة المالية للمحتاجين، ومنحت نصفها لصديقتها القديمة جودرون هارلان.

وفي سنوات عمرها الأخيرة انسحبت من الأضواء وعاشت في عزلة، وبجوار معاناتها النفسية وإقامتها الثانية في مصحة للأعصاب، فقد أصيبت بالسرطان ماتت بسببه في مستشفى في ستوكهولم في **12** مايو **1970**. ودفنت في مقبرة يهودية في شمال ستوكهولم.

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، **1966**م .
2) رشاد عبد الله شامي: الأدب الإسرائيلي وحرب **1967**، دار الفكر للدراسات، عمان، الأردن، **1990**.
3) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب**1901**– **1990**، دار سيراس للنشر . تونس، **1991**
4) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل **1901** – **1995**، مكتبة مدبولي، القاهرة، **1995**.
5) ميشيل خوري: جوائز نوبل **1901**– **1989**، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا **1990**
6) عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، القاهرة، **1994**.
7) عبدالله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، **2004**م
8) نيلي زاكس – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة .

https://ar.wikipedia.org/wiki

نادين غورديمير .. مناضلة ضد العنصرية

لم تكتف بالسرد القصير، بل خاضت مغامرة الرواية وأصدرت تباعًا روايتي: "الأيام الكاذبة" و"عالم من الغرباء"، وكانت هذه المغامرة انطلاقة ناجحة دشنت بها مسيرة كتابية غزيرة أصدرت فيها ما يعادل خمس عشرة رواية، وبقيت وفية للسرد القصصي نظرا لولعها بالقصة،

فكتبت قصصًا كثيرة، بالإضافة إلى ثلاث دراسات نقدية وسيرة ذاتية.

نادين غورديمير، حصلت على جائزة نوبل في الأدب عن مجمل أعمالها الأدبية في عام **1991**م، وهي كاتبة ذات طراز خاص، ولدت في **20** نوفمبر عام **1923**م بجنوب أفريقيا وسط مجتمع ينبض بالعنصرية والكراهية المتبادلة بين المستوطنين الأوروبيين البيض وبين أهل البلاد الأصليين من الأفارقة السود، وغيبها الموت عن عالمنا في عام **2014** م عن عمر **91** عامًا، نشأت نادين غورديمير وسط بيئة كاثوليكية مسيحية، وهي نفس البيئة التي كانت تموج بالأفكار العنصرية، وتقوم على التفرقة بين البيض والسود.

ولدت نادين جورديمر في سبرينجر مدينة المناجم الصغيرة الواقعة في إحدى ضواحي جوهانسبرج، والدها تاجر مجوهرات جاء من ليتوانيا ووالدتها من أصول بريطانية، وقد بدأت الكتابة وهي في التاسعة من

عمرها، وما إن بلغت الخامسة عشرة حتى نشرت أقصوصتها الأولى في إحدى المجلات الأدبية في جنوب أفريقيا، وأصدرت مجموعتها القصصية الأولى "وجها لوجه" بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ، ومن أشهر مؤلفاتها: "ضيف شرف"، "مناسبة للحب"، "الحافظ"، "ابنة برجر"، "نزوة الطبيعة" وأخيرًا قصة "ابني". وعلى الرغم من أن نادين غورديمير كبرت وسط بيئة محافظة لعائلة برجوازية تؤمن بتفوق الجنس الأوروبي الأبيض وتؤمن بالعنصرية وتمارسها يوميًا، إلا أن الطفلة نادين انتبهت لما يجري حولها من ظلم ينافي كل المبادئ والقيم الإنسانية، وكتبت عن هذه المظالم أول قصة وعمرها لم يكن يتجاوز التاسعة.

وعلى الرغم من كل ما أحاط بها من بيئة عائلية ودينية تشجع على العنصرية، فلم تعتبر توجهات عائلتها الدينية طريقًا أو مسلكًا وحيدًا أو زاوية وحيدة للنظر إلى العالم، وعلى الرغم من أن بيئتها شهدت الكثير من فترات التفرقة العنصرية التي كانت تميز أو تؤمن بتفوق العرق الأبيض على نظيره الأسود، إلا أن نادين انتصرت للعدالة التي تؤمن بأن الخير لا يكمن في عرق أو لون أو دين، ولتعبر عن مواقفها اتجهت نادين الطفلة إلى الكتابة كعالم ترسم فيه معالم جديدة لعالم أكثر عدلًا ولأفريقيا أكثر سلامًا.

وعلى الرغم من الظروف الصحية الصعبة التي مرت بها غورديمير بسبب معاناتها منذ صغرها من مرض القلب الذي لازمها في طفولتها ومراهقتها، لم تمل نادين يومًا من قضاء جل وقتها في المطالعة والقراءة حتى وهي طريحة الفراش، فهي عاشقة للقراءة منذ طفولتها المبكرة، وقد ساهمت

البيئة التي عاشت فيها، وهي بيئة برجوازية بيضاء بمرجعية كاثوليكية، في تشجيعها على القراءة وتنمية موهبتها الإبداعية.

منذ طفولتها وهي تدرك العالم بشكل مختلف عن الوسط المحيط بها، فقد انتبهت إلى المعاملة المجحفة التي يتعرّض لها الأطفال السود، والخادمات السود في منازل مجاورة لمسكنها، فحسها الإنساني العميق قادها لفهم أن العدو الأول لبلدها هو العنصرية والطبقية، مما جعل منها مناضلة انطلقت في رحلة تحد ومعركة مصيرية ضد الفصل العنصري، وقد نتج عن اختياراتها الأخلاقية تعرضها للمضايقات من طرف السلطات بسبب تعاطفها مع السود، وقد عبرت السلطات عن ذلك بمنع روايتها "عالم من الغرباء" عام **1958**

وعندما تخطت الكاتبة مرحلة الطفولة وأصبحت كاتبة شابة سخّرت قلمها للكتابة ضدّ نظام الفصل العنصري الذي كان سائدًا في جنوب أفريقيا بين عامي **1948** و**1994**، وفضحت تناقضاته وآثاره المدمرة، عن طريق سرد قصص الظلم العرقي والطبقي والمعاناة الوجودية للسود رجالًا ونساء في المجتمع الجنوب أفريقي في كتاباتها، التي كانت بلسمًا لجروح السود، وكانت رصاصًا ضد الظلم والعنصرية.

وعندما بلغت سن العشرين من عمرها أصبح لنادين اسم بين الكتاب، بعد أن واظبت النشر في المجلات الأدبية الأمريكية المتخصصة، مثل "نيو يوركر" و"نورث أميريكان ريفيو" وغيرها، كما أصدرت عام **1949** أولى مجاميعها القصصية تحت عنوان "فحيح الحية الرهيف"،

ودعت إلى تأسيس ثقافة حقوق الإنسان في جنوب أفريقيا، وكانت ترى أن السياسة هي وسيلة للدفاع عن المظلومين، وكما قالت هي نفسها :"لست شخصًا سياسيًا بالفطرة، لا أظن أن كتابتي كانت ستعكس هذا القدر من السياسة لو أنني عشتُ في مكان آخر"

وبعد ذلك سخّرت قلمها للكتابة ضدّ نظام الفصل العنصري الذي كان سائدًا في جنوب أفريقيا بين عامي 1948 و1994، وفضحت تناقضاته وآثاره المدمرة، عن طريق سرد قصص الظلم العرقي والطبقي والمعاناة الوجودية للسود رجالًا ونساءً في المجتمع الجنوب أفريقي في كتاباتها، التي كانت بلسمًا لجروح السود، وكانت رصاصًا ضد الظلم والعنصرية.

وكل هذه المواقف دفعت الصحافة الثقافية الأمريكية لأن تعلن أنها فخورة بالكاتبة نادين غورديمير، حتى أنها أطلقت عليها عندما بلغت الثلاثين لقب "كاترين مانسفيلد الجنوب أفريقية" بسبب قرابتها الأسلوبية في فن القصة القصيرة مع الكاتبة الأمريكية كاترين مانسفيلد.

ومع استمرارها في مسيرتها الأدبية لم تكتف بالسرد القصير، بل خاضت مغامرة الرواية وأصدرت تباعًا روايتي "الأيام الكاذبة" و"عالم من الغرباء"، وكانت هذه المغامرة انطلاقة ناجحة دشنت بها مسيرة كتابية غزيرة أصدرت فيها ما يعادل خمس عشرة رواية، وبقيت وفية للسرد القصصي نظرا لولعها بالقصة، فكتبت قصصًا كثيرة، بالإضافة إلى ثلاث دراسات نقدية وسيرة ذاتية.

وعلى الرغم من أنها تعرضت لكل أشكال الضغط من أجل التراجع عن أفكارها المناهضة للعنصرية، وهو الاضطهاد الذي وصل إلى حد أن الحكومة الجنوب أفريقية منعت عددًا من كتبها في فترة الحكم العنصري من التداول بين القراء في جنوب أفريقيا، إلا أن هذه الكاتبة صاحبة البشرة البيضاء، والمناضلة التي وقفت وقفة صامدة ضد العنصرية، لم تتراجع عن موقفها الرافض للعنصرية، وواجهت الحظر المفروض على كتبها في الداخل الجنوب الأفريقي

وكل هذا دفع غولديمر لأن تتمسك على الدوام بموقفها ككاتبة مناضلة بترويجها لقضية النضال ضد الفصل العنصري والتمييز العنصري في جنوب أفريقيا، وقد استغلت كل المنابر الدولية والمحافل الدولية للحديث عن آفة العنصرية، ودعت نادين غولديمر في هذا الصدد إلى تأسيس ثقافة حقوق الإنسان في جنوب أفريقيا، واعتبرت نفسها دومًا "أفريقية بيضاء"، ورفضت بشدة أن توصف ب"كاتبة بيضاء من أفريقيا الجنوبية"، ورفضت كل الأيديولوجيات التي تستعمل قضية العنصرية لصالحها، وبهذا الصدد تقول نادين: "انخرطت بقوة في الكفاح ضد نظام الفصل العنصري لكني اتحدى أيا كان في أن يجد أثرًا للبروباغاندا في قصصي ورواياتي"

بداية الوعي

مثلها مثل كل الفتيات في مدينة «سبرينغز» وهي مدينة مليئة بالمناجم تقع في ضواحي «جوهانسبورغ»، لم تكن نادين غورديمير تشعر مثلها مثل

غيرها من الفتيات بمعاناة الملايين من السود الذين يعيشون في محيطهم من الحياة على نفس الأرض، فقد كان النشاط الثقافي الوحيد المسموح به للفتيات تعلّم البيانو، أما في ما يخص الوعي في قضية السود فلم يكن الأمر موجودًا في الأساس، ومع ذلك جاءت حادثة لتقلب حياة هذه المراهقة ولتدخلها «في قلب وحدة بلدها». فذات ليلة «اغتصبت» الشرطة فضاء حديقة المنزل العائلي الخاص، لتفتش المكان الذي كان ينام فيه الخدم السود، بحثًا عن زجاجة كحول ممنوعة، لترحل مجددًا بعد أن دمرت كل شيء في طريقها. صمتُ الوالدين إزاء تصرفات الشرطة بدا بنظر المراهقة كأنه رضى ضمني بالموافقة على ذلك، فبعد هذه الحادثة بدأت نادين غورديمير تشعر بحقيقة ما يدور حولها، وتفهم عن ما كان يحدث حقًا من تفرقة عنصرية غير إنسانية وتمييز في كل ما يتصل بنواحي الحياة من حولها، فهذه هي الحادثة الكبرى التي قادت نادين غورديمير إلى الوعي بأن هناك ما يجب العمل على مقاومته وتغييره على الأرض من حولها.

وعلى إثر هذه الحادثة التي تغيرت بسببها مسيرة حياة نادين فقد تخلت عن حلمها في أن تكون راقصة باليه لتنهمك في الكتابة مطبقة حرفيًا مبدأ ألبير كامو – الذي كانت تكن له الإعجاب – حين نادى «بالشجاعة في الحياة وبالموهبة في العمل الفني» أي لتجد حلا على طريقتها الخاصة لمسألة انخراط الكاتب في المجتمع.

كانت في السادسة والعشرين من عمرها حين صدرت في عام 1949 مجموعتها القصصية الأولى "وجهاً لوجه" لم يكن لغورديمير في تلك الفترة ثوابت وقيود اجتماعية تحد من قدرتها على الكتابة، فكانت تعيش داخل العديد من الشكوك كما داخل يقين واحد راسخ: التمييز العنصري جريمة كبرى لا يستطيع أحد أن يدافع عنها.

في روايتها الأولى «عالم من الغرباء» التي صدرت في إنكلترا العام 1958، وبقيت ممنوعة في جنوب أفريقيا لمدة 12 عامًا، كانت أيضًا تحب أن تردد أنها «أفريقية بيضاء البشرة وليست بيضاء من جنوب أفريقيا«، لكن مع ذلك فإن معاناتها وسط هذا الخضم الهائل من الكراهية والعنصرية هي التي جعلت منها هذه المبدعة الرائعة، إن عملية الإبداع في الواقع هي تعبير عقلي قائم على مضمون وأحاسيس فملايين من البشر كل يوم يمرون بالكثير من العقبات في حياتهم، تقف أمام تحقيق أحلامهم، بل وتقف أمام الحياة ذاتها، ولكن هؤلاء القادرين على تخطي المحن قلة موهوبة، فالألم والمعاناة في أحيان كثيرة هما الجسر الذي نعبر به إلى المستحيل ذاته، وهذا ما يفسر لنا لماذا دائما المبدعون هم من أصحاب الظروف الاجتماعية الصعبة، بل وبعضهم عانى من إعاقة بدنية لازمته طوال حياته؟

فالأديب ابن بيئته عندما يحترق بنور الكلمة التي تضيء عتمة الظلم والجهل والجوع، ويتحول النص إلى حاضن للمعاناة الإنسانية، ويصبح مرآة للحياة بألوانها القاتمة والزاهية وكل اختلاجات النفس البشرية، ليعيش الكاتب حرية تطلق عنان الكلمة الجريحة لتنزف وجعها

على أرض النص تحمل معاناة فرد يمثل البشرية ومعاناة إنسانية اختزلها وجدان كاتب أو كاتبة تصبو إلى صناعة الخير والحب والفرح، تقاوم الظلم والطغيان من خلال كلمة ومشاعر صادقة.

فالكاتب يعيش بين عالمين متناقضين عالم الواقع المأساوي على الأرض، وعالم الحلم بالحرية والعدالة، فالمعاناة التي عاشتها ومنعها من التعليم ومن الرقص بسبب طبيعة بيئتها المحافظة هو ما جعل من "نادين غورديمير" هي التي صنعت منها (صاحبة نوبل).

نادين ومانديلا

جمع النضال ضد التفرقة العنصرية والتمييز ضد السود بين نادين غورديمير، واسم بارز في مجال النضال الإنساني ومقاومة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، وهو الزعيم الجنوب الأفريقي نيلسون مانديلا الذي حرص على رؤيتها فور خروجه من السجن، اعترافًا بعملها وبكونها من أهم النساء اللواتي ساهمن بفعالية في الحملة الدولية لإطلاق سراحه.

لكن نادين غورديمير تعترف بأنها لم تملك الشجاعة يومًا في أن تكون «ثورية بالكامل»، وإن كانت تزرع «الأنانية الضرورية واللازمة للكتابة»، بالرغم من أنها قريبة في مواقفها السياسية من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بقيادة نيلسون مانديلا.

ومن اللافت في مسيرة حياة نادين عدم خلطها بين دورها كأديبة، وبين أي عمل سياسي منظم تقوم به، أما التزامها الذي أسهم في كثير من

الأحيان بإبراز وجهها كمناضلة مما خنق صورتها ككاتبة فيبقى قبل أي شيء التزامًا كتابيًا. لم تكتب يومًا منشورات أو نصوصًا دعائية، لذلك كانت تقيم دائمًا حدًا فاصلًا وأساسيًا ما بين نشاطها «كمواطنة» وما بين عملها الأدبي.

كتبت نادين غورديمير عن نيلسون مانديلا فقالت:

"أن يحظى المرء بشرف العيش بنفس الوقت، وبنفس الدولة التي ولد فيها، نيلسون مانديلا لهو بمثابة شرف حظينا به نحن سكان جنوب أفريقيا. حظيت كذلك بشرف أن أصبح أحد أصدقائه. قابلته عام 1964، خلال محاكمة ريفونيا، عندما كانت تتم محاكمته لأعمال التخريب التي قام بها ضد الحكومة، وكنت حاضرة بالمحكمة عندما حُكم عليه بالسجن مدى الحياة".

وفي عام 1979، كتبت رواية "ابنة برجر"، وكانت تدور حول الحياة العائلية لأطفال الثوار، حياة تحكمت بها اختيارات أهلهم السياسية والخطر الدائم بالسجن مدى الحياة. لا أعرف كيف تمكن الكتاب، الذي كان ممنوعًا في جنوب أفريقيا عند نشره، من الوصول إلى مانديلا في سجن جزيرة روبن. ولكن هو القارئ الأكثر إلحاحًا مما كنت قد أتمناه، كتب لي رسالة عميقة مليئة بالتفهم والقبول لهذا الكتاب.

وبذلك فإن نادين عرفت ضمن عالم الأدباء والمؤلفين كواحدة من أهم الروائيين الذين قدّموا كتاباتٍ إنسانية تندد بسياسات التمييز

العنصري في بلادها والعالم، وكانت عضوًا في حزب "المؤتمر الوطني الأفريقي"، وهو الحزب نفسه الذي أسسه نيلسون مانديلا، وكان حزبًا محظورًا حتى سقوط الحكم العنصري في جنوب أفريقيا.

وقد قرأ مانديلا في معتقل "روبن أيلند" كتاب غورديمير "ابنة برغير" عام 1979، ليجد في ملامح الزعيم السياسي المسجون الموصوف بين دفتي المؤلف، مسحات شبه كبيرة معه، فبعث لها من خلف القضبان بثناء على النص، وطلب مقابلتها ما إن تحرّر. على خلاف توقعها، لم يكن تبادل الأفكار الكبرى البند الأول على جدول أعمال المقابلة، وإنما تلك الأمور الحميمة التافهة والمحورية في آن، تلك التفاصيل الثرثارة والقاتلة على السواء: "أراد مانديلا أن يخبرها أنه اكتشف في أول يوم حرية خيانة زوجته ويني له. في لحظة الحقيقة المرّة سقَطَت جروح مانديلا الوطنية في مواجهة الجرح الشخصي، ولم يكن هناك سوى غورديمير المتوغّلة في التزامه زعيمًا، لتستوعب صدق السقطة في تلك الهنيهة. فهمَت وهن مانديلا وكتمته ولم تفصح عنه سوى بعد وفاته.

استغرقت الكاتبة أعواما تكتب عن الخطيئة الفادحة، عن نظام التمييز العنصري أو "النشأة المنفصلة" على ما راق لـ"أفريكانير" تسميته في مسقطها جنوب أفريقيا. جعلها بياض بشرتها على نحو ما قابله للتصديق أكثر من سواها، جعلها الأكثر ملاءمة لتستهجن اقترافات جلادين هم "أبناء لونِها" بل وأبناء بيتِها.

تطوي غورديمير في رفقة مانديلا فصل الحياة الأخير بالتكافل والتضامن، فيقولان إنهما خاضا المعركة عينها.

مُنح مانديلا نوبل السلام ومنحت غورديمير نوبل الآداب، كأن الامتياز الأول لم يكن ليكتمل سوى بالثاني. يقول الامتياز المزدوج أن صنّاع السلام يحتاجون إلى صنّاع الكلمة.

لقد حرصت الكاتبة خلال 13 رواية و200 قصة قصيرة والكثير من المقالات، أن ترصد صورة الحياة في جنوب أفريقيا، ومشاعر الاغتراب والتوتر النفسي عند الإنسان، عندما يعايش التمييز العنصري بشتى أنواعه، وظلت تدافع عن حقوق السود في الحياة بالتساوي مع البيض، رغم أنها بيضاء لأب يهودي وأم إنجليزية، ولكنها انخرطت بحماسة في النضال ضد البيض واشتغلت بالسياسة، ولم تتخل عن دورها النضالي بجوار نيلسون مانديلا، حيث استمرت رغم الضغوط عضوًا بارزًا في المؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان يرأسه الزعيم الراحل نيلسون مانديلا الذي كانت قريبة منه ومؤمنة بنضاله وكانت لها مساهمات فكرية في مسيرة نضال السود، حتى أنها هي التي كتبت جزءًا من خطاب مانديلا الأشهر (مستعدٌ للموت) الذي ألقاه أثناء محاكمته في عام 1962

فقد سخّرت قلمها للكتابة ضدّ نظام الفصل العنصري الذي كان سائدًا في جنوب أفريقيا بين عامي 1948 و1994، وفضحت تناقضاته وآثاره المدمرة، عن طريق سرد قصص الظلم العرقي والطبقي والمعاناة

الوجودية للسود رجالًا ونساءً في المجتمع الجنوب أفريقي في كتاباتها، التي كانت بلسمًا لجروح السود، وكانت رصاصًا ضد الظلم والعنصرية.

فقد كانت نادين على الدوام أكثر الأدباء التصاقًا بحياة السود المضطهدين والمهمشين أثناء عهد الأبارتايد البغيض، وقالت ذات مرة قولتها الشهيرة التي تعكس مدى التمييز الذي عاناه السود الذين حرموا من حقوقهم كافة في الحياة بما فيها حق المعرفة عندما قالت: "بعد سنوات أدركت أنني لو كنت سوداء، لما أصبحت كاتبة لأن المكتبات التي كنت أتردد عليها كانت محظورة عليهم"

ولكن ذلك عهد قد مضى والحاضر أفضل تمامًا، كما هو عنوان آخر أعمالها "لا وقت مثل الحاضر"، الذي يضاف إلى منجزات أدبية باقية للأديبة الجسورة التي خلعت عليها الصحافة العالمية لقب (ضمير الإنسانية) الذي كان يقظًا في كافة أعمالها التي من أبرزها "الغنيمة" و:الحارس: و"فحيح الحية الرهيف" و"الأيام الكاذبة" و"عالم من الغرباء" و"وجهًا لوجه"، و"العالم البرجوازي الزائل"، و"ابنة بيرغر"

الإبداع والسياسة

لم يتأثر إبداع نادين غورديمير أبدًا بنهاية حقبة سياسة التمييز العنصري، فلم تختلف كثيرًا كتابات غورديمير الأخيرة من حيث جوهرها عن كتابات الفترة الأولى، ولمن يتغير خطها بتغير الوضع السياسي في جنوب أفريقيا بعد سقوط حقبة التمييز العنصري، وإن كان القارئ يشعر بوضوح بهذا

التطور الذي أصابها وكأنه تطور رافق ما شهدته بلادها في رحلتها مع الزمن.

الدليل على ذلك، الكتابان الصادران عام 2003: «فحيح الأفعى الهادئ» – مجموعة قصصية تضم عددًا مختارًا من قصصها – ورواية «عاشق ثري». في هذين الكتابين نعود لنجد نفس التساؤلات والقضايا التي تطرحها عملية الكتابة عندها وبشكل دائم: البعد الميتافيزيقي، الكراهية، النفور، مكانة الشر في المجتمعات، مع اختلاف وحيد ربما: فبدلا من هذا الضغط الذي كان يجبر الكتّاب في عصر التمييز العنصري على إنتاج رؤية «مانوية» في أعمالهم، بدأنا نجد هامشا أكثر انفتاحا أفضى إلى قصص أكثر حميمية وأكثر شخصية، وهي قصص تزدهر، بحرية، أكثر فأكثر، في ما يكتب اليوم من أدب في تلك البلاد. ولهذا الأمر فضيلة ما، إذ ربما كان يسمح للصحافيين أكثر من ذي قبل بأن يطالبوا غورديمير بأن تتحدث عن خياراتها الأدبية أكثر من أن تتحدث عن مواقفها السياسية، إذ نجد دائمًا أن مسألة الأقليات حاضرة جدًا في كتبها وأدبها. وهذا ما صاغته بشكل مدهش في روايتها «السلاح المنزلي» التي تحدثت فيها عن مصير قاتل أبيض وجد نفسه بين يدي محام أسود «غريب جاء من الجهة الأخرى لهذا البلد الممزق«

كذلك أيضًا نجد الفكرة ذاتها في كتاب «فرصة للحب»، إذ تتحدث الكاتبة عن امرأة بيضاء أقامت علاقة مع رجل أسود. في «الحركة الأساسية»، تستدعي غورديمير المسار المتمرد لامرأة، في بلاد التمييز

العنصري، «كان دليلها فيها، كتب كافكا وليس كتب ماركس». من هنا إن توجَّب علينا أن نجد كلمة واحدة لإنصاف هذه السيدة لاخترنا كلمة «المتمردة«

ولم تكتف الكاتبة بالسرد القصصي القصير، بل خاضت مغامرة الرواية وأصدرت تباعًا روايتي "الأيام الكاذبة" و"عالم من الغرباء"، وكانت هذه المغامرة انطلاقة ناجحة دشنت بها نادين مسيرة كتابية غزيرة أصدرت فيها ما يعادل خمس عشرة رواية، وبقيت وفية للسرد القصصي نظرا لولعها بالقصة وأصدرت أيضًا قصص كثيرة، بالإضافة إلى ثلاث دراسات نقدية وسيرة ذاتية.

في «عاشق ثري» تتناول حياة جولي البيضاء، وهي ابنة متمردة لرجل نافذ غني، تحب عبده الميكانيكي المسلم، وبعد أن يوشى بها، تطرد من منزلها فتلحق به إلى قريته «العربية» الواقعة في قلب الصحراء، لتكتشف هناك أن عائلته ترفض وجود هذه «الغريبة» بينها. لا شيء في البداية كان يجمع بين بطلي الكتاب، فجولي البيضاء تحاول جاهدة أن تهرب من هذا المصير الاجتماعي الذي كان مرسومًا لها، بينما عبده المهاجر ذو الوضع غير القانوني، كان واقعاً تحت تهديد دائرة الهجرة، كما تحت تهديد «هذه الأفعال التي تقرر حياة البشر ومصائرهم». الشخصية الأولى ترغب في التخلص من هويتها بينما الأخرى تحاول أن تحصل على واحدة لها. من هنا يستطيع القارئ أن يتكهن بكل هذه العقبات التي

كانت تعترض هذا الشغف المتفرد، حيث «كل فكرة تلوي هذا التناغم الداخلي لكل واحد وتجعله في غير مكانه«

لقد تعرفت الكاتبة على ثقافات عديدة جعلتها تشعر بقيمة الأدب والإبداع، كما فهمت واقع الحياة في القارة الأفريقية بشكل عام، ثم في جنوب أفريقيا بشكل خاص، وأحست أن البيض يحاولون محو العالم الحقيقي للأفارقة، وهو عالم شاب متحرك وحيوي، ورغم أن روايتها الأولى لم تكن قد اتضحت فيها رؤيتها بشكل شامل، إلا أن أهميتها تجيء من أنها رواية ذاتية، فهيلين شو البطلة تعيش في مدينة صغيرة لا يمكن لأحد أن يطرح فيها سؤالًا حول المجتمع، ولم يكن أمام الصغيرة سوى أن تذهب إلى البقال لمقابلة هذا الجمع من الملونين الساخطين من معاملة البيض لهم، كانوا يتصرفون كأنهم كلاب تنبح بأصوات العصافير.

تقول نادين عن تجربتها الإبداعية: هناك أفكار ومواقف أشخاص أعبر عن أي منها حيث أحس أن هناك طرح جديد في رؤيتي للحياة، وحين أمارس الإبداع أقوم بعملية تستغرق كل حواسي الوجدانية والعقلية والحسية، بمعنى أنه عند لحظة الإبداع ينشط الإنسان داخليًا، ويكون توظيف الخيال من أجل الصدق الفني الذي يسعى إليه كل كاتب يتحمل مسئولية الكتابة.

في روايتها "عالم الغرباء" نرى طوبي الناشر البريطاني، الذي يسافر إلى جنوب أفريقيا في رحلة سياحية، لكنه يصدم لتلك الحالة البشعة التي يحيا عليها البيض في جوهانسبرج، ويتعرف على الحواجز العرقية الموجودة،

وهناك يصادق المناضل الأسود ستيفن لكنه يموت على يدي رجل شرطة بدا كأنه يصطاد حيوانا، ويحاول طوبي أن يعرف أسباب موت صديقه، ولكن بلا فائدة.

أما رواية "فرصة للحب" المنشورة عام 1963 فهي حول نفس الموضوع، فتوم هو زوج لجيسي، ويحاول أن يعيد كتابة تاريخ قارة أفريقيا من وجهة نظر السود، أما الزوجة فإنها تعرف أن صديقتها "آن" تحب رسامًا ملونًا، والاثنان يعيشان في مستعمرة من الممنوعات والمحرمات، فلا حب مسموح ولا علاقات إنسانية بين البيض والزنوج، وأيضًا بين الزنوج وبعضهم إلا في حدود معينة.

وفي عام 1971 نشرت جورديمير روايتها "ضيف شرف" التي تدور أحداثها في منطقة "مستوة" الخيالية، وهي أشبه بجنوب أفريقيا، هناك موظف استعماري قديم هو الكولونيل باري الذي يلعب دورًا في تحرير المنطقة من الاستعمار، لكنه يصدم في النظام الاقتصادي والاجتماعي للاستعمار الجديد، الذي يمثله الموظفون الحاليون ببيروقراطيتهم، فيتجه إلى بطل الاستقلال المسمى "مشينا" الذي يموت على أيدي البيض.

ومعظم رواياتها الأخرى دارت حول نفس الموضوع منها "نزوة الطبيعة" عام 1987، "وشيء ما هناك" عام 1985، ثم "اقفز" عام 1991، وقد ترجمت بعض هذه الأعمال إلى اللغة العربية، ويعتبر النقاد أن رواية "ابنة بيرجر" من أهم أعمال الكاتبة، فهي تجسد حياة "روزا بيرجر" التي يموت أبوها المناضل السياسي في السجن عقب القبض عليه،

وتجد روزا نفسها في مجتمع ينظر إليها باحترام ليس لشخصها، وإنما لأنها ابنة بيرجر، ويحاول المجتمع أن يدفعها إلى أن تكون نعم الابنة للأب الراحل المناضل، لكنها تتردد، فهي غير مقتنعة بنضال أبيها، وإن كانت تحبه كثيرًا، وأثناء رحلة لها إلى أوروبا تلتقي ببعض المناضلين الذين يحدثونها عن أبيها، وتعود من الرحلة وقد قررت أن تكون بالفعل ابنة المناضل بيرجر.

أما رواية "ناس من جولاي" المنشورة عام **1981**، فهي حول زوجين من البيض يهربان إلى حدود البلاد عقب اشتعال ثورة الزنوج، وهي ثورة من خيال الكاتبة، وفي هذه الرحلة يلعب الخادم الأسود دور المرشد، وشيئا فشيئا، ولأنه يعرف الطريق يصبح هو السيد، ويعلن أن الظروف قد تغيرت وأن الحياة قد انقلبت.

وتوضح نادين تمحور أعمالها حول قضية التفرقة العنصرية بقولها:
أكبر الظن أن هناك أسباب طريفة لذلك، أسباب تركت بصماتها على ذاكرتي فحتى الآن لم أنس مجيء الشرطة للبحث عن مربيتي السوداء واتهامها بتناول مشروبات كحولية كانت ممنوعة على الزنوج، والمشهد الثاني كان في المكتبة العامة التي لم يكن مسموحًا للسود بارتيادها، رغم أهمية هذه المكتبة من حيث أثرها الواضح على كل من يدخلها، فقد رأيت إحدى السيدات تمنع بالقوة من الدخول لا لشيء إلا لأنها سوداء، فكيف لا تصبح التفرقة العنصرية هي قضيتي الأولى بعدما رأيت العديد من الممارسات اللاإنسانية.

وتؤكد جورديمير أننا نعيش في قرن الجنون المنظم فرغم أن البشرية قد دخلت هذا القرن بروح التفاؤل والثقة التي تجاوز أي قرن سابق في التاريخ فقد قتل خلاله أكثر من 90 مليون إنسان، وتتساءل الكاتبة التي ناصرت (السود) في بلادها، عن المستقبل في القرن الحادي والعشرين، وهل سيكون أكثر رشدًا مقارنة بجنون هذا القرن الذي أوشك على الانتهاء؟ وفي «الكتابة والوجود» وهو عبارة عن مجموعة من الأبحاث المهمة، تدرس غورديمير أعمال بعض الكتّاب «الذين قرروا أن يذهبوا إلى البعيد». من هؤلاء الكتاب، تذكر أسماء عاموس عوز، تشينوا أتشيبي، نجيب محفوظ. لقد ذهب هؤلاء الثلاثة كما تقول إلى مكان بعيد جدًا، يتخطى كل القواعد المعتادة تجاه الأنظمة والقوانين السياسية لبلادهم التي «نقبوا أرضها بأقدامهم الحافية بجلد جلودهم». ربما لم تفعل غورديمير شيئًا سوى محاولة أن تكون في خطى هؤلاء. ربما لأنها تتذكر جيداً نصيحة مارسيل بروست الذي قال: «لا تخشوا أن تذهبوا إلى البعيد لأن الحقيقة موجودة في الماوراء«

كان همنغواي قد أهدى جائزة نوبل إلى أصدقائه الكوبيين، أما غورديمير فقد وجدت أنها جائزة لجنوب أفريقيا بأسرها. بعض الأفارقة يطلقون عليها لقب «ماغوغو» (والدتنا) ويرون فيها نوعاً من «أم» مؤسسة لجنوب أفريقيا الجديدة. كما أنها ناضلت من أجل أن تنشر أعمال الكتاب السود بلغتهم، ولكي يتم إنشاء مكتبات في بلاد تفتقر إلى ذلك. إنها معركة نادين، مصاحبة اختلاجات مجتمع ساهمت كثيرًا في تغييره وتبديله: «لا نستطيع أبداً الحديث عن أدب جنوب أفريقي جديد إلا إذا

نُشرت أعمال هؤلاء الشبان بلغة الزولو أو بالتساوانا أو بالسوتو أو بالكزوسا«

صحيح أن نظام التمييز العنصري قد سقط، لكن الكاتبة أو هذه «الأم الشجاعة» لم تسقط رايتها، إذ تابعت حملاتها ونضالاتها من أجل السلام، ومن أجل نزع التسلح، ومن أجل استئصال الرهاب. صحيح أن «الشياطين القديمة» قد طردت من الساحات العامة، لكنها ما زالت تجول في الكواليس، على الأقل في ذهن أولئك الذين لم يقبلوا بعد «صعود السود». لذلك كله، بقيت غورديمير كحارس المنارة الذي يراقب الأفق. وفي مراقبتها هذه سجلت العديد من المطبات الجديدة كما العديد من الآمال الجديدة، تقول: «ثمة منجم من الموضوعات الجديدة التي ظهرت، فعلى سبيل المثال، لا بد من أن نطرح السؤال عن كيفية بناء البرجوازية السوداء لنفسها، ما هو موقف البيض وهم يشاهدون الأطباء والمحامين السود؟ وكيف يتعلم الناس أن يعيشوا بعضهم مع بعض».

وتضيف: «إن السياق السياسي الجديد لا بد من أن يؤثر في شخصيات رواياتي. بيد أن أرواحهم ولحمهم وأسرارهم لا تقتصر أبدًا على هذه المعطيات فقط، حتى وإن كانت مشجعة إلى هذا الحد. لا يمكن للكاتب أن يكون مفيدًا إلا من خلال تخطيه للواقع الاجتماعي الاقتصادي. إن مهمته تكمن أولًا وأخيرًا في التعبير عن الحقائق الخبيئة«

لقد كرّست حياتها وأدبها لفضح خزي قانون العزل العنصري، والذهاب بعيدًا، في تفكيك التاريخ المظلم لعلاقة البيض بالسود، حين

كانت علاقة حب بين ملوّنين ضربًا من المحرّمات. هكذا اتجهت الفتاة البيضاء الثرية إلى الضفة الأخرى المعتمة، واختلطت بالسود في علاقات معقّدة، وأماطت اللثام عن العدالة المفقودة، في نظام كولونيالي شره ومتوحش. لنقل إذن إنّها الصورة السردية الموازية لمواطنها مانديلا كوجهين لعملة واحدة، خارج شروط متاهة سلطة متوحشة.

فقد شكلت جورديمير منذ ظهورها على ساحة الإبداع العالمي وحتى وفاتها ظاهرة من الكتاب البيض، الذين يعيشون في جنوب أفريقيا والمعروفين باسم الأفريكان، والذين منعت أغلب كتبهم عقب صدورها في جوهانسبرج، وقد اكتسبت الكاتبة الأفريقية شهرة عالمية بسبب قيمتها الروائية، ومواقفها من مناصرة قضايا الزنوج، فحصلت على العديد من الجوائز الأدبية منها جائزة بوكر عام **1974**، التي تعتبر أهم جائزة تمنح في بريطانيا، تعتبر نادين جورديمير من الأسماء الأدبية التي ظلت تتردد لعشر سنوات قبل أن تفوز بجائزة نوبل في عام **1991**م لتكون هذه الجائزة هي أكبر تكريم للكاتبة قبل رحيلها.

وعندما أعلن عن حصولها على الجائزة كان هناك شعورًا عاما بالارتياح ليس فقط لقيمة الكاتبة، ولكن لأن ما كانت تدافع عنه في مسألة حقوق الزنوج بجنوب أفريقيا قد بدأت البلاد تجني ثماره، والغريب أن وسائل الإعلام الغربية حاولت أن تلصق بالكاتبة عقب فوزها بجائزة نوبل أنها يهودية، رغم أن هذه الصفة لم تبرز قط عنها قبل الجائزة، وقد نفت الأكاديمية السويدية في بيانها أن تكون نادين قد نالت الجائزة لكونها امرأة

أو لأية أسباب سياسية تتعلق بما يحدث في جنوب أفريقيا، وبذلك أصبحت نادين جورديمير أول امرأة تفوز بجائزة نوبل للآداب بعد ربع قرن، أي منذ عام 1966، حيث فازت بها الشاعرة الألمانية اليهودية نيللي ساخس، وقد قوبل فوز نادين جورديمير بحفاوة كبيرة في الأوساط الثقافية ولقي صدى طيبًا في نفوس قراء ونقاد كتبها العشرين.

وتعلق نادين على فوزها قائلة: "لا شك أن جائزة نوبل أضافت إليّ الكثير، بل إنني لا أتجاوز إذا قلت إنها غيرت حياتي كلها وجعلت مني شخصية عامة تطرح وتناقش قضايا فكرها أينما ذهبت، وعلى ذلك فقد أصبحت قضايا وطني – جنوب أفريقيا – مطروحة على الساحة الدولية بشكل جديد ومباشر، ذلك حين يدعونني إلى المؤتمرات واللقاءات والمحافل ذات الأهمية، وتنفي الكاتبة أنها كانت تسعى إلى الجائزة، فهذا غير حقيقي، لأن هذه الجائزة بالذات وسيلة لمزيد من الإبداع وليست غاية يتوقف عندها الإبداع".

لقد قامت نادين غورديمير بدور حفظه لها التاريخ في فضح العنصرية حتى حانت ساعة رحيلها ، في منزلها في جوهانسبرغ.

المراجع:

(1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م .

(2) عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، القاهرة، 1994

(3) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991

(4) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

(5) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990.

توني موريسون .. شهرزاد الأمريكية السوداء

لم يكن غريبا أن يحتفي بها أول رئيس أسود يحكم أمريكا "باراك أوباما" وأن يجلسها على كرسيه في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض، ويسمح للصحفيين بتصوير توني موريسون وهي تجلس على كرسيه في البيت الأبيض ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية يقف على قدميه.

لم تكن توني موريسون مجرد كاتبة روائية أمريكية فازت بجائزة نوبل، بل تعد واحدة من الأصوات البارزة التي حاربت وفضحت العنصرية ضد الأمريكيين الزنوج، فقد نجحت في أن يستلهم ابداعها الروائي طفولتها المبكرة والقص الشعبي والأساطير حول التفرقة العنصرية وبقايا ممارسات العبودية في المجتمع الأمريكي، بل إن موريسون تحوَّلت إلى رمز الأمل في المساواة لكثير من زنوج أمريكا.

الاسم الأصلي لتوني موريسون هو كلويه أنطوني، وتعود أصولها لأسرة هربت من الاسترقاق من مناطق الجنوب الأمريكي، تلك النشأة هيأتها لتكون من أكثر الأصوات الأدبية في الولايات المتحدة التي كان في وسعها التعبير عن الظلم والقهر الذي تعرض له الملايين الذين تم جلبهم من أفريقيا ليسترقهم الرجل الأبيض وينعتهم بصفة جديدة عليهم، لكنها تظل دامغة لهم طوال قرون فهؤلاء أصبحوا من الآن وصاعدا "الزنوج"

في كل أعمال موريسون تتجسد الشخصيات السوداء، نساءً كانوا أو رجالًا، لتتحدى خوف المجتمع الأفرو ـ أمريكي من نفسه، وهو يسترجع ذاكرة 60 مليون إنسانًا لا ذنب لهم إلا أنهم ولدوا سود البشرة، وهؤلاء بهذا الذنب قضوا تحت الرصاص ولسعات السياط.

هذه الروائية الأيقونة قدّمت نفسها كـ«نصف غربية، نيويوركية، نيوجرسية، أمريكية، أفرو – أمريكية، وامرأة» وهي تتسلم جائزة «نوبل» 1993.

أدب يصنع الرؤساء

توني موريسون ليست مجرد كاتبة أمريكية شهيرة حازت على جائزة نوبل لتصبح أول زنجية تتوج بجائزة نوبل، بل هي واحدة من صناع الرأي العام في الولايات المتحدة، ولها شعبية وقبول في الشارع الأمريكي يندر أن يتكرر لأي شخصية أمريكية غيرها، حتّى أنّها عندما كانت تخرج إلى الأماكن العامّة، فإنّ النّاس يتجمّعون حولها، ويتمّ وضع الحواجز في الشوارع التي تمرّ منها عند حضورها إحدى المناسبات منعًا للازدحام.

وبسبب شعبيّتها الطاغيّة واعتبارها «صانعة رأي»، فإنّ الكثير من السياسيين الأمريكيين سعوا للتقرّب منها والظفر بودّها وصداقتها، ومن بينهم جميع المرشحين في الانتخابات الرئاسية الأمريكية؛ الذي يسعون للحصول على تأييدها لهم عند ترشّحهم لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي يضاهي منصب (رئيس الكرة الأرضية)، ولكن خلف هذه

الشعبية الهائلة حياة حافلة بالإبداع والمعاناة، ففي اليوم الخامس عشر من أكتوبر سنة 1993م، وفي الساعة السابعة صباحًا، علمت توني موريسون أنها قد حصلت على جائزة نوبل في الأدب عن طريق التليفون، وقالت لصديقتها التي أبلغتها "أعتقد أنك تهلوسين فلم يسبق لأي كاتب أمريكي زنجي أن نال هذا الشرف العظيم"

لم يكن فوز الكاتبة الأمريكية موريسون بجائزة نوبل عام 1993م مجرد فوز مستحق بهذه الجائزة الرفيعة لشخصها وحدها، بل فتح فوزها الباب على مصراعيه لكل الكاتبات الزنجيات لأن يقلن للعالم "نحن هنا"، فبعد هذا التاريخ أصبحن ظاهرة أدبية مستمرة حتى اليوم.

ولم يكن يتوقع أحد أن تفوز موريسون بجائزة نوبل، وبالطبع لم تتوقع هي نفسها أن تفوز بهذه الجائزة. صحيح أن هناك بعض الزنجيات وأيضًا كتاب كثيرين من الجنوب الأمريكي، قد فازوا بجائزة بوليتزر، مثل أليس دوكر عام 1984 عن روايتها "اللون قرمزي"، ثم حصلت على نفس الجائزة توني موريسون نفسها عام 1988م ، لكن جائزة نوبل كان لها شأن آخر.

ولم يكن فوزها بهذه الجائزة القيمة وليد مصادفة، بل إن فوز روائية زنجية سوداء ولدت في ثلاثينيات القرن الماضي وعاشت طفولتها وتعلمت، وخاضت معترك الحياة وسط تصاعد الكراهية والعنصرية تجاه السود الأمريكيين يؤكد القاعدة التي تعتبر أن المعاناة هي الرحم الذي يولد منه الإبداع والمبدعون، لأن الإبداع ابن شرعي لمحن وأزمات ومعاناة، وحالة من

القلق وعدم الاستقرار أو التوافق سواء بين المبدع وذاته، أو مع الآخرين والمجتمع بصفة عامة.

في 18فبراير عام 1931م ولدت توني موريسون في«لورين» بولاية أوهايو بجنوب الولايات المتحدة من أب يعمل عاملًا بسيطًا، وأم تغنّي في الجوقة الكنسية لكسب بضعًا من الدولارات، وكانت مليئة بالنشاط وقوة الشخصية إلى حد كبير، حتى أنها كانت تحتج ضد "روزفلت" لمجرد وجود بعض الدود في الدقيق الذي كانت تستخدمه. وكانت أسرتها تعتمد على المعونات الغذائية للبقاء على قيد الحياة، لكن مع ذلك فإن هذه السوداء نجحت في أن تستكمل دراستها، وأن تحول المعاناة التي مرت بها ومر بها ملايين السود من حولها إلى أدب رفيع.

وفي مثل هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة عاشت موريسون حياة مضطربة وقاسية في مجتمع يضع الزنوج دائمًا في آخر السلّم، لكنها حين اكتشفت موهبتها حولت عالمها الضيق إلى كون شاسع، كرست جُلّ كتاباتها لمناهضة العنصرية، دخلت العالم الجواني للرجال والنساء على السواء، وكشفت عقدة العبودية التي يعاني منها الزنوج..

الرجل الأسود في كتاباتها ظل برغم تحرره يعود دومًا إلى تلك السنوات التي قاسى منها آباؤه وأجداده، أما المرأة الزنجية فهي الأخرى مشدودة إلى عبوديتها، وتسعى لتتبع جذورها الأولى، ولا ترى إلاّ أن أجدادها لا يملكون سوى ما يوفره لهم أسيادهم البيض من خبز.

يتسع عالم موريسون إلى أكثر من جيل، فهي ما تزال تغوص في الجذور الأولى لبني جنسها، وتذهب بعيدًا حين تجلس وراء طاولة الكتابة ثم تعود بنا إلى الأجيال اللاحقة، المتمردة والرافضة لكل أشكال العنف في المجتمع الأمريكي، مستحضرة طقوس ومعتقدات السحر والشعوذة وتحضير الأرواح، تلك المعتقدات التي تشبه إلى حد كبير معتقدات العالم الثالث.

واتسمت كتاباتها بالعمق والفخامة، لكنها في نفس الوقت عبرت من خلال سرد روائي مليء بالشجن عن هموم ومشاعر النساء الزنجيات اللائي خضعن للرق والعبودية وتعرضن للقهر والاستغلال والاغتصاب والضرب بالسياط، حيث كان الزنوج يُستخدمون في السخرة، لا يملكون سوى ما يوفره لهم أسيادهم من خبز، وصورت في أعمالها شخصيات لنساء زنجيات وباحثات عن العشق، لكنهن يعانين من افتقاد الأمان في مجتمع يرسم لهن خطوطًا حمراء بسوط السيد الأبيض لا يمكن تجاوزها.

وعلى الرغم من أن موريسون نجحت في تصوير حياة النساء الزنجيات، إلا أنها لم تهمل الرجل الزنجي الذي عانى من نفس الظروف فجاءت أعمال توني موريسون كأنها ذاكرة لما مر به الزنوج السود في أمريكا من قهر واستلاب تحت نير العبودية، وحتى عندما انتهت حقبة العبودية في أمريكا لم يستطع الأمريكيون الزنوج نسيان ما جرى لهم تحت سوط السيد الأبيض. يظهر ذلك من خلال رواية (أغنية سليمان) التي تتناول قصة رجل زنجي يحاول الهرب من ذكريات العبودية، إلا أنه يعود دائما إلى عذابات أجداده الزنوج.

وبصفة عامة، يمكن القول إن موريسون أصبحت من المؤسسين لهذا الفرع الأصيل من الأدب الأمريكي الذي شغل بال النقاد بدراسات مختلفة ضمن إطار مناهج الأدب الأمريكي حول العالم. حيث تصف توني موريسون في كل ما صدر لها من روايات التفاوت في الفروق بين البشرة السوداء والقيم الثقافية البيضاء، وهذا يظهر تناقض الموضوع السلبي المتمثل في إغواء وخيانة المجتمع الأسود من قبل ثقافة البيض، وأما الموضوع الإيجابي فيتمثل في البحث عن الهويه الثقافية للسود من أجل استمرارية الحياة بالنسبة إليهم في أمريكا.

كما قامت موريسون بإحياء الجزء الخفي من الذاكرة الأمريكية في بعض الكتب التي قامت بتأليفها وهي رواياتها الست المنشورة بين عامي 1970–1995 وهي على التوالي: "العيون الأشد زرقة" عام 1970، ثم "صولا" عام 1974، و"أغنية سليمان" عام 1977، و"طفل من فصيلة بنات القرنية" عام 1981، ثم "محبوبة" التي حصلت على جائزة بوليتزر عام 1988، و"جاز" في عام 1992، وفي عام 2012 أصدرت رواية "وطن" التي ترجمت إلى العربية بعنوان " الديار" ونالت عنها جائزة بولتيزر أيضا، وصدر لها في عام 2015 رواية "ليكن الله في عون الابنة"

في كل هذه الروايات نحن دائمًا أمام نفس المرأة الزنجية من خلال ثلاثة أجيال من النساء، الجيل الأول عاش سنوات العبودية أو قارب ذلك، أما بنات الجيل الثاني فيحاولن نسيان هذا الزمن، ويصنعن عالمًا خاصًا يحاولن من خلاله صناعة هوية ثقافية واجتماعية خاصة مثل موسيقى

الجاز، أما بنات الجيل الثالث فهن أكثر تحررًا وسعادة، لكنهن تبعًا للعصر أكثر معاناة، لذا فرغم أن الماضي بالغ القسوة إلا أنه أكثر رحمة من الواقع الراهن، وعليه فإن روايات الكاتبة مليئة بالحنين إلى سنوات العشرينيات

في رواية "صولا" والتي تعد من أهم أعمالها، تتبع سيرة امرأة تسللت إلى نفسها الخطيئة وعاشت حياة مضطربة بدت في الكثير من الأحيان غريبة الأطوار، وبقيت طيلة حياتها تبحث عن السلام وصفاء النفس دون جدوى، برغم أن اسمها "صولا" ويعني السلام .

تمثل صولا في الرواية الجيل الثالث من الزنوج خلال الفترة التي اختارتها الكاتبة، وهي فترة العشرينيات حتى عام **1941**، عندما ماتت صولا لتستمر أحداث الرواية إلى عام **1965**، حيث شهدت حياة الزنوج بعض التحسن.. نشأت صولا فتاة متمردة ورافضة، ولذلك يبدأ العنف بالتسلل إلى روحها منذ الطفولة، ثم يزداد خلال مراهقتها، ويصل بها الأمر إلى أن تأتي برجلين يحملان الجدة "إيفا" عنوة إلى المصحة لتصبح هي الوصية.

تتخذ الكاتبة من مدينة ميداليون مسرحًا لأحداث روايتها، وتحديدًا أحياء الزنوج، ذلك المكان المرتفع على التلال المشرفة على وادي البلدة، وهو الحي المسمى بـ (القاع).. ويمكننا أن ندرك من التسمية أنه قاع المدينة، أي الجزء المسحوق منها حيث يعيش السود، إنه يقع فوق التلال، فيما البيض يسكنون في الجزء الأسفل من تلك التلال، وهذا ما يعزيهم أنهم الأقرب إلى السماء وأنهم من فوق يراقبون البيض، لكن

الحقيقة أن أرض البيض هي الخصبة، في حين أن الزراعة في القاع مرهقة والتربة تنزلق حاملة معها البذور، والرياح تعصف طوال الشتاء، والحي بأكمله فقير جدا، إذ يعم الجوع والمرض والجهل، على الرغم من أنه ينبض بالحياة، إذ يمكن في بعض الأحيان أن نسمع الغناء وعزف البانجو ورؤية امرأة تقدم عروض الرقص الزنجي.

الحياة في هذا الحي الفقير تسير بهدوء ظاهريًا، أما في العمق فالإنسان الأسود لا قيمة له بنظر الرجل الأبيض، لا في حياته ولا عند موته.. للسود طرق خاصة وعربات في آخر القطار ومقابر بعيدة عن مقابر البيض، وإذا أخطأ أحدهم كما حدث لهيلين – إحدى شخصيات الرواية – فإنه يمكن أن يحدث له ما يهين كرامته أمام الجميع.

صولا لا تدخل الرواية في صفحاتها الأولى، وإنما تضعنا الكاتبة أمام شخصية "شادراك"، وهو شاب وسيم بلا ماض، بلا لغة، بلا قبيلة، بلا أشياء خاصة به، لأنه عائد من الحرب بروح مخربة وذاكرة مشوشة، كل ما يتذكره، نافذة ونهر وأصوات هامسة خلف الباب، لكنه لا يعرف أين تقع النافذة؟ وأين اتجاه النهر؟ وما هي الأصوات الهامسة التي تتسلل إلى أذنه من خلف الباب؟

وتلقي بنا موريسون في دائرة البحث عن أصل حكاية هذا الشاب الذي سيلتقي صولا بعد عدة سنوات، حين تكون سمعتها قد ساءت إلى الحد الذي أصبحت فيه منبوذة من قبل مجتمع القاع.. ولم يزدها ذلك إلا رفضًا لهذه الحياة المهينة للملونين، مع أن جدتها كانت تقول لها إن كل هذه

الحياة رفاهية بالنسبة لما كان يحدث في عام 1895، كل الأشياء رديئة في تلك الفترة، كان الزنوج يموتون كما الذباب، أنت الآن في أعلى السلّم .

لكن صولا لا تعترف بهذا السلّم، إنها تريد القفز إلى الأعلى فهي نفس جامحة، وصار صعود السلم برغباتها هو الهدف الذي تسعى إليه، غير عابئة بما يراه الآخرون حتى تحولت إلى منبوذة، ثم وحيدة ومريضة، لكنها مع الحال الذي وصلت إليه ظلت محتفظة بذلك الغرور الذي ورثته عن جدتها، إلى الحد الذي قالت لصديقتها "نيل" وهي مشرفة على الموت "إن النساء الأخريات يمتن كخرقة، أما أنا فأنغرز في الأرض كشجرة جبارة، لقد عشت حياتي"

وبموتها يتنفس أهالي القاع الصعداء، معتبرين أن موتها خبر سمعوه وانتهى توترهم وسوء طالعهم. وكان آخر من أقامت معه علاقة هو المخبول شادراك الذي بدأت به توني موريسون الرواية، لقد عجز شادراك عن البحث للوصول إلى جذوره، ووجد صعوبة في استحضار أرواح الضباط والجنود والأعداء حينما كان جنديًا يشارك في حرب مأساوية طويلة قضت على حياة الآخرين وجرفت معها ذاكرته مما جعله يركن لحياة صنعتها له صولا.

بموت صولا قفزت الكاتبة إلى عام 1965، حيث تغيرت أمور كثيرة، وصار باستطاعة الملونين أن يذهبوا إلى أي مكان في المدينة ويعملوا في محلات رخيصة خلف الطاولات، أو يلجوا عالم التدريس في الثانويات، أما القاع فقد انهار، حيث انتقل كل من صنع ثروة صغيرة أثناء الحرب إلى

أبعد ما يمكنه من ذلك الوادي الفسيح.. لم يعد ثمة ملونون يعيشون على التلال، انتقلوا إلى الأسفل، حيث كان يعيش البيض الذين صاروا يبنون بيوتهم فوق التلال.. أتراهم قلبوا المعادلة وراحوا يراقبون الزنوج من فوق؟ !

ويعد النقاد "صولا" عملًا مهمًا، فيه الكثير من المتعة، خصوصًا ما يتعلق بطقوس الزنوج وعاداتهم. كما نلمس بتركيز محسوس معاناة الإنسان الأسود وكفاحه طيلة عقود من الزمن، من أجل حياة أفضل لبني جنسه، وهذا ما تميزت به الروائية الأمريكية توني موريسون في معظم أعمالها.

الرق وحق بالمرأة الزنـجية

أظهرت موريسون إخلاصًا غير محدود للقضية التي تكتب عنها باستفاضة ومشاعر صادقة كأنها تكتب عن نفسها أو عن أقرب المحيطين بها، فبعد ما يقرب من 15 عامًا على فوزها بنوبل، لم تنشغل في إلقاء الندوات والسفر حول العالم لتلبية الدعوات الموجهة لها من كل أنحاء العالم، بل استمرت في الكتابة عن تاريخ طويل من القهر والظلم والاغتصاب لحق بالمرأة الزنجية في أمريكا خلال حقبة العبودية، ففي عام 2008 م أصدرت روايتها "رحمة" واعتبرها النقاد واحدة من أفضل عشر روايات صدرت في عام 2008 م، وطبعت في كل من نيويورك وتورونتو. في هذا العمل القصير نسبيا تعود الكاتبة إلى موضوعها الأثير، إلى الحفر في بئر العبودية المظلم ونبش العذابات من جذورها، انطلاقًا من نقطة بدايات التاريخ الحديث الأمريكي، الرحلة ما بين أفريقيا والشمال الأمريكي. تنقّب صفحات تاريخ

بدايات ما يسمى اليوم بأمريكا، مازجة الخيال بالاحتمالات الممكنة لفهم آلية تكون هذا المجتمع الذي صار القوة الأولى في العالم اليوم.

وفي هذه الرواية ظهر بقوة توجه موريسون وتأكيدها على أنها أمريكية أفريقية، قومية، وجاءت رواية «رحمة» عنيفة وقاسية ومتشعبة. متعددة الطبقات والأصوات، تأخذ القارىء إلى حيرة وخاصة في صفحاتها الأولى، ثم تبدأ تدريجيًا في الكشف عن أعماق الشخصيات والأحداث في حياة كل فرد، بالعودة إلى بدايات القرن السابع عشر، بداية الهجرة من كل صوب وتشكيل هذه الرقعة التي كانت مشاعًا كأنها «لم تطأها قدم منذ نوح»، فكانت البدايات مع استقدام العبيد للعمل كأرقاء بالسخرة وبلا أجر سوى ما يبقيهم فقط على قد الحياة في هذه الأرض.

ومن خلال هذه الرواية عبرت الكاتبة عن رؤيتها لقضية الرق في أمريكا وارتباط استعباد البشر بالعنصرية البغيضة في الأرض الجديدة، حيث تعترف بأن جميع الحضارات عبر التاريخ، اليونانية، الرومانية، الفرعونية وغيرها قامت على استغلال الطاقة العاملة واستعباد العمال، ولكن الشيء اللامعقول الذي حصل في أمريكا هو هذا الربط الجائر ما بين العرق والعبودية. وهنا تقصد العرق الأسود، وهذا ما حاولت أن تضع يدها عليه في الرواية، حيث لا يمكن تحديد تاريخ بعينه يمكن القول عنده بأن الإنسان قد بدأ فيه، استرقاق إنسان آخر، ولكن الرق بصفة عامة عرفته كل الحضارات والثقافات والديانات الوضعية والسماوية أيضًا طوال التاريخ وحتى فترة قليلة قريبة مضت، لكن بالنسبة لما حدث في الأرض

الجديدة على يد السيد الأبيض، فقد ارتبط الرق بالحاجز اللوني بين (الأوروبي – الأبيض) و(الزنجي – الأسود)

وعكست أفكار الكاتبة في هذا السياق الطبيعة العنصرية الخالصة لمؤسسة الرق في أمريكا وهي المؤسسة التي انعكست صورتها في أدبها ما كان متوقعا أن ينتج عن طبيعة الدلالات السلبية للون الأسود في الثقافة والضمير الأوروبي أن تظهر مبررات واقعية للطابع الوحشي وغير الإنساني الذي اتسمت به علاقات الاسترقاق داخل مؤسسة الرق في الولايات المتحدة، وهي الوحشية التي دفع ثمنها زنوج أمريكا، وصورت توني موريسون ملامحها بكل وضوح.

فالرق في الأرض الجديدة التي عرفت فيما بعد باسم الولايات المتحدة الأمريكية كان علاقة قانونية فرضها السيد (الأوروبي – الأبيض) ويكون فيها شخص ما (الزنجي – الأسود) مملوكًا بقوة القانون لشخص آخر، وكان يتم تدعيم سلطة السيد المالك على رقيقه باستمرار ليس فقط بقهرهم جسديًا وتوقيع عقوبات بدنية عليهم تشمل حتى حق السيد في إعدام رقيقه.

بل كانت توجد أيضًا وسائل رمزية أخرى لتكريس خضوع هؤلاء لأسيادهم والحفاظ باستمرار على شعور الأرقاء عند انتقالهم من حوزة سيد لآخر، وأحيانًا من فترة لأخرى لدى نفس السيد لإذلالهم وحرمانهم من شخصيتهم بل سحقها، بالإضافة إلى الممارسة الأخرى الشائعة بإطلاق اسم «ولد boy » على كل العبيد الزنوج الذكور بغض النظر عن

أعمارهم. ولم يكن الضرب بالسياط على سبيل المثال مجرد وسيلة لعقاب الرقيق الزنجي الأسود على أخطاء ارتكبها أو تقصيره في خدمة مالكيه بقدر ما كان أداة للسيطرة عليهم والتأثير في نفوسهم وتذكيرهم دائماً بوضعهم الاجتماعي بوصفهم أناسًا لا كرامة لهم، بالإضافة إلى أن الضرب بالسياط كان يتم استخدامه في الغالب على اعتبار أنه الحافز الوحيد المناسب للحصول من الأرقاء على المزيد من الجهد سواء من رقيق الخدمات المنزلية، أو من الرقيق القائم بأعمال أخرى.

عن هذه الأجواء والظروف المحيطة بالأرقاء الزنوج في أمريكا كتبت موريسون روايتها "رحمة"، فالشخصيات متعددة الأصول والأعراق تجد نفسها مجبرة على العيش في بيت واحد في مزرعة جاكوب فاراك، وتجد نفسها مجبرة على التصرف كعائلة، رغم كل الاختلافات بين هذه المجموعة من البشر الذين وجدوا أنفسهم ضحية صفقات لا علاقة لهم بها، وأنهم مجرد سلع متبادلة من أجل إيفاء ديون مترتبة على المالك الأول، أو على أفراد الأسرة.. هنا الأم البرتغالية الملونة تقايض ابنتها إيفاء للدين، والأم نفسها تمت مقايضتها في البداية من قبل سيدها في أفريقيا، وينسحب ذلك على زوجة مالك المزرعة «ريبيكا» القادمة من إنكلترا، مثخنة بذاكرة سوداء شاهدت مراحل العنف والقتل في تلك الحقبة، تجد نفسها بلا خيار لتصبح زوجة صاحب المزرعة.

الرق يسود على الجميع، بمن فيهم «لينا» الهندية التي شهدت دمار قريتها وأبناء عرقها، و«سورو» المختلة عقليًا. هنا يتعادل موقف

المالك الذي يتصرف بحيوات العبيد الذين في خدمته، مع موقف الأم والأب الذي يتخلى عن فلذة كبده، ولكل مبرراته. الأم التي نعرف عنها بأنها كالقطة تدافع عن أبنائها، ترجوهم أن يأخذوا الابنة حين يأتي صاحب المزرعة للمطالبة بديونه، وحين وافق الرجل على تضرعاتها «المرأة التي رائحتها ثوم انحنت على الأرض وأغمضت عينيها» تشكر ربها. ثم كتبوا ورقة وافقوا فيها على أن ثمن الفتاة «فلورنس» **15** باوندًا إنجليزيًا، أو ما يعادله من التبغ. وكانت حينذاك دون العاشرة من العمر.

وتكتشف فلورنس أهمية الحروف والكلمات والكتابة.. في بداية الرواية تقول:

لا تجزعي. لن يؤذيك ما أقوله.. على الرغم مما مررت به.. ما أخبرك به، يمكن اعتباره اعترافًا إذا شئت..

ولكن الأشياء تبدو مختلطة لأن الذاكرة ليست مخلصة، والمخيلة تلعب دورها. البنت تتذكر، تتراءى لها صورة أم تحمل ابنها الصغير وتقف أمام الباب وفي جيب مريلتها حذاء الطفلة. الطفلة فلورنس التي كانت من صغرها مولعة بالأحذية والكعب العالي لم تكن قدمها الصغيرة تطيق عراء الأرض، حتى وإن كان الطقس حارًا. هذا ما جعل الأم قلقة من رغبات ابنتها الطموحة، والتي ستكبر ولن تجد أمها قادرة على تحقيق حلمها، بل ستكبر ولن يرحمها الآخرون، وهم يعاينون أنوثتها تنضج سريعًا.

وقد استوحت الكاتبة عنوان الرواية من موقف هذه الأم التي وجدت خلاصًا بمجرد قبول صاحب المزرعة أن يأخذ الابنة، رحمة بالطفلة والعائلة. الأم اعتقدت أن هذا هو السبيل الوحيد الذي قد يمنحها حياة أفضل مما لو بقيت في جوار أمها الفقيرة، العبدة التي تعرضت للاغتصاب وللبيع وأنجبت ولدين لا تعرف أباهما.

إنها أميركا، وإن قلنا إن تاريخها «أسود» فسنجد أن مفردات اللغة تمارس تمييزًا عنصريًا لونيًا. فلنتوقف على وجه الخصوص عند قراءة حال الأم والابنة في هذا القص الصادم والمركّب المتقطع، المحمول على وهج لغة شعرية وتعرف إلى أين تذهب.

تنقشع المواقف في ختام الرواية القصيرة نسبيًا. يحضر بوح الأم وهي تشرح موقفها في رسالة مؤثرة إلى ابنتها، ولكن الرسالة لن تصل. كما أن صوت الفتاة لن يصل إلى الأم من خلال سرد يكشف انفعالات الروح ومواجعها.

تقول الأم في نهايات الرواية لابنتها، بأنها تعرف ما ينتظرها وتعرف مزاج الرجال، تعرف أنها لا تستطيع أن تأتمن عليها لحظة بعد أن بدأ ثدياها بالظهور باكرًا وسريعًا. حتى الأولاد السود الذين يعملون في نفس الرقعة لا يمكنها أن تأمن شرهم ورغبتهم فيها. وتقول "حقيقة لا أعرف من هو والدك. كانت عتمة الليل، أتوا وأخذوا ثلاث نساء منا... لم يكن هناك وقاية". "أن تكوني امرأة في هذا المكان يعني أن تكوني جرحًا مفتوحًا لا يندمل. حتى لو لم يكن هناك ندب، فالوجع يمتد إلى الأعمق"

كما تصف الأم ما حصل في الخطوة الأولى في درب العبودية فتقول: «قدموا واشتبكوا مع رجالنا، أحرقوا البيوت، أخذوا الذين لم يتمكنوا من قتلهم. عدة مرات تم الإتجار بنا، نقلنا من مكان إلى آخر. كانت أعدادنا تتزايد. هناك التقينا برجال اعتقدنا أنهم مرضى أو موتى. ولكن يبدو أن هذا لون جلدهم الذي أصبح أبيض التبس علينا. الرجال الذي كانوا يقودوننا ويتاجرون بنا، كانوا سودًا. وأكدوا لنا أن «الرجال البيض لن يأكلونا» فصلوا بيننا وأخذونا كل إلى جهة، إلى بيت يسير فوق الماء. كانت الحيتان حول القارب تنتظر وجبة. «أنا رحبت بالحيتان التي تدور، ولكنها تجنبتني. كأنّ الحيتان كانت تعرف أنني أفضل أن يقرضوا بأنيابهم السلسلة التي في عنقي، في رسغي وفي كاحلي». حين انطلق القارب، بعضنا قفز إلى الماء.. هنا لا سبب ولا قانون لحدوث أي شي، من يعيش، من يموت؟ إنها مسألة واحدة، أن تعيش على أوساخك، أو تعيش على وسخ الآخرين. وصلنا إلى بربادوس. هناك وجدت أن رقصي، ثوبي، لغتي، عاداتي... كل شيء كان مخلوطًا بلون جلدي. لقد أخذوني من حقول قصب السكر في قارب إلى الشمال كي أعمل في حقول التبع. وقبل العمل كان يجب أن يعاشروني جنسيًا، أخذنا رجال في العتمة، وبعد ذلك أعطونا برتقالة. وفي كلتا الحالتين، لا بأس، كانت النتيجة أنت وأخاك.

وتضيف «أردت أن يأخذك الرجل الطويل، فقد ينظر إليك كـ «طفل إنسان» كنت أبتغي حصول المعجزة. ثم قال نعم، وكانت المعجزة. رحمة قدمت من قبل إنسان. جلستُ على ركبتي، طويلًا في الغبار، وحيث

سيبقى قلبي هناك كل ليلة وكل يوم، حتى تفهمي ما مررت به وما أردت إخبارك به. آه، يا فلورنس، يا حبي... واسمعي...».

لكن فلورنس التي عشقت الحرف تعيش حزنًا أيضًا، وتقول: "شيء واحد حزين سيبقى. كل هذا الوقت لم أستطع أن أعرف ماذا كانت تقول أمي. وهي أيضا لم تكن لتعرف ماذا أردت أن أخبرها"..

ليست هذه أول رواية تكتبها موريسون عن الأم التي تقتل أو تبيع أولادها لتجنبهم شر العبودية. لكنها في سردها دائمًا لا تتوقف عند مصائر النساء فقط، بل تنخرط في تعرية المجتمع بكل طبقاته، رجاله ونسائه، أفراده السود والبيض، والملونين. يختلط بين سطورها العنف بالكره، بالحب، وبالأمل.

نجحت موريسون من خلال رواية "رحمة" في التوثيق لمرحلة تاريخية مهمة في العالم الجديد (أمريكا)، تاريخ العبودية والحرية/ تاريخ اللون/ تاريخ السيطرة.. سيطرة إنسان على إنسان آخر والتحكم به كأي شيء.. حذاء/ كأس/ آلة / غير محدد الهويّة، توني موريسون أجادت وصف هذه المرحلة من خلال ثلاث نساء هن البطلات في رأيي؛ لأن المرأة هي المجتمع هي الحياة، وأن تجعل منها راويةً لتاريخ معجون بالقضايا الإنسانية فذلك تفوّق يُحسب للكاتبة، مع بيان وضعية المرأة الحرة (السيدة) زوجة السيد اللذان يملكان النساء الثلاث (العبيد)

وتُصنّف الأحداث في الرواية تحت عدة مصطلحات: الدين/ اللون/ الحب/ الحرية/ الدين حيث الإيمان به أو اللا إيمان واستغلاله من قِبل رجال الدين بأبشع الصور، اللون الذي يكون تهمة، الحب بين العبد والحر، الحرية التي ينشدها السود.

لكن السؤال: ما هي الرحمة التي تقصدها الكاتبة؟ لابدّ أنها رحمة العدالة والمساواة التي لا أبالغ عندما أقول إنها جاءت كمولودة رائعة بعد مخاض عسير جدًا من الظلم والتمييز والعبودية عاشها سكان العالم الجديد.

نوعية الأسئلة التي تثيرها توني في هذه هي تلك الأسئلة التي تنبثق من الروح الإنسانية النقية التي ترى بالإنسان المواجه لها مرآة لنفس الصورة في الشكل والحقوق وحق الحياة بكل ما يندرج تحتها من مقومات بِغض النظر عن الشكل، واخُتتمت الرواية بحوار للأم "فلورنس" إحدى بطلات الرواية موجّهة لابنتها المملوكة للسيدين:

"إنه لأمر شاق أن يُعطى المرء سيطرة على امرئٍ آخر، إنه لأمر خاطئ مقاومة سيطرة من أجل سيطرة أخرى، وأن تُعطي السيطرة على نفسك لِشخص آخر فهذا فعلٌ آثم" وجاءت لغة الرواية بسيطة وسهلة مع بعض التشبيهات الشعرية التي دعّمت السرد وابتعدت عن سرد التأريخ الجاف وأنه مجرد تواريخ، بل هو أماكن وبشر وذكريات.

محبوبة

وفي روايتها الشهيرة "محبوبة" تشير موريسون إلى قضية الصراع بين الزنوج والبيض، وأحيانا بين الزنوج والزنوج، وبين الفرد والمجتمع، وتجربة الغربة عن

النفس، وتتحدد تمامًا في روايتها هذه مسألة الصراع بين البيض والزنوج، هؤلاء الذين يجدون مطايا سهلة لذلك يقومون باستغلالهم، بدا من الجدة بيبي سيجز حتى محبوبة الجذابة الأخاذة مرورا بسيث عند جذع شجرة متعبة ومنهكة، تحيط بها هالة من الجمال الفطري، ولعل محبوبة هربت من مزرعتها، حيث كان الزنوج يعملون في حقول البيض ولكنهم يهربون من حين لآخر، غير أن الهارب الذي يقبض عليه يتم بتر كعبه حتى لا يهرب مرة ثانية، والهدف هو ترهيب كل من يفكر في الهروب من مزرعة السيادة.

وهكذا تدخل محبوبة بيت سيث التي عانت كثيرًا من عملها في حقول القطن، وفقدت بعض أفراد عائلتها في إعدامات الكلوكس كلان، وتحتل محبوبة حيزًا من بيت سيث، وتعامل معاملة رقيقة من قبل الجميع وتتحول تدريجيًا إلى سيدة كاملة الأنوثة تحيطها فتيات المنزل بالرعاية والحب، إلا أن قلبها كان يضمر الكثير بسبب ماضيها الغامض الذي لا توضحه لأحد وربما كانت مصدومة بسبب علاقة سابقة أو ربما فقدت والديها وهي طفلة، لكن سيث كانت تخفف كثيرًا عن محبوبة وتعتبرها واحدة من بناتها..

وعبر تتابع أحداث الرواية وتفاصيلها الصغيرة المليئة بالانحناءات العاطفية تقدم رواية محبوبة ثلاثة أجيال من الزنوج، الجيل الأول هو جيل الجدة بيبي سيجر، والجيل الثاني هو حيث سيت وآخرين لا تعرف عنهم بيبي سيجز شيئا ربما لأنهم بيعوا صغارًا، والجيل الثالث هو جيل الأولاد والأحفاد الذي يضم أطفال سيث الأربعة، وحيث تقدم سيث على ذبح

أحدهم لإنقاذ الثلاثة الآخرين وتشتري حريتهم، وعلى إثر تلك الحادثة تنعزل سيث عن محيطها العائلي، ولا تتصل مع أحد، لكن دنفر ابنتها المقربة جدًا تنقذها مما تقع فيه وتساعدها على راحة ضميرها، لأنها فقدت شخصًا ولكن الآخرين أحياء وتنجح دنفر في ذلك ليلتئم شمل العائلة، وبدخول محبوبة كشخص أحبه الجميع شعرت بيبي سيجز، التي تمثل الرابطة بين أفريقيا وتجربة العبودية في الجنوب الأمريكي، شعرت أن العائلة لم تفقد شخصًا عزيزًا عليها.

المعاناة والإبداع

مرة أخرى نعود إلى فكرة المعاناة التي تشعل جذوة الإبداع، وكأن المعاناة هي البوتقة التي تصهر المشاعر والظروف والضغوط التي يمر بها المبدع ليخرج إبداعه للقارئ في شكل قصة أو رواية أو شعر أو لوحة فنية، فتصوير الكاتب أو الكاتبة لشخصية بمثل جنسه أو جنسها ممكن أن تكون عملية "تقمص"، وهي عملية يؤدي من خلالها الكاتب "لا شعوريًا" دور البطل، وكأنه هو بكل معنى الكلمة عندما يمر بمثل موقف البطل، فالأديب هو ابن بيئته عندما يحترق بنور الكلمة التي تضيء عتمة الظلم والجهل والجوع، ويتحول النص إلى حاضن للمعاناة الإنسانية، ويصبح مرآة للحياة بألوانها القاتمة والزاهية، وكل اختلاجات النفس البشرية، فمن رحم المعاناة تأتي العظمة ولم لا والكتابة إحدى وسائل التعبير عن الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان، فالقلب يترجم الأحاسيس والمشاعر ويلعب الخيال

دورًا مهمًا في حسن التصوير والإبداع الفكري والأدبي ومنه تخلق أعمال أدبية جميلة.

فالإنسان المبدع هو ذلك الذي يستطيع أن يترجم أحاسيسه ومعاناته وآلامه وآماله من حالة غير ملموسة أو مشاهدة، ثم يحيلها إلى صورة ناطقة معبرة تدعو – وبإلحاح شديد – إلى الوقوف أمامها والتأمل فيها، والتفاعل مع رموزها وإيحاءاتها، فلا شيء يجعلنا عظماء إلا ألم عظيم، فإذا استمر الألم والمعاناة لسنين طويلة وتراكمت آثارهما وزادت ضغوطاتهما عبر الزمن غالبًا ما تكون النتيجة هي الإبداع أو التحول كما يحب أن يسميه فرويد.

المعاناة التي تتلبس الإنسان ويعيش تحت وطأتها رهينًا لغربة كبيرة عن مُثله ومبادئه وأهدافه وآماله هي التي تفجر الإبداع، إذ أن ذلك الإنسان يظل يعاني من تلك الغربة الروحية فيبحث عن طريق يعود به إلى حالة الطمأنينة والاستقرار الروحي، وبالتالي يبني صروحًا من عالم المثالية التي ينشدها ويحاول أن يعيش في ذلك العالم، ويذهب به الخيال إلى أكبر من ذلك؟ إلى محاولة فرض هذه الحالة على من حوله بغض النظر عن تلك الحالة التي ينشدها سواء حالة مقبولة أو مرفوضة أساسًا ممن حوله، وغالبًا ما تكون هذه الحالة مطلوبة كمن ينشد الوفاء كمبدأ أو يبتغي الإخاء والتآلف كمطلب حياتي، أو يهدف إلى خلق مجتمع متعاون.. إلخ فهو حين يحاول ذلك يعيش في إطار خيالي يضع فيه كل ما يختلج في جوانحه من أحاسيس ومشاعر يعاني منها صباح ومساء كل يوم وتشكل ضغوطًا نفسية

كبيرة ومتلاحقة يجد المرء نفسه مرغمًا بالقيام بربط هذه الخيالات والأحاسيس بالواقع، وخلق عالم يتفق مع ذلك التوجه، ولهذا فالمبدع يوصف في بعض الأحيان بالخارج عن المألوف.

كما يرى علماء ومفكرو الإبداع والمهتمون بالحركة الأدبية أن الإبداع ابن شرعي لمحن وأزمات ومعاناة، وحالة من القلق وعدم الاستقرار أو التوافق سواء بين المبدع وذاته أو مع الآخرين والمجتمع بصفة عامة، وأيا ما كان السبب فإن الأزمة مردودها سلاح ذو حدين، فإما أن يصيب المبدع بحالة من التحفز الإبداعي يدعمه ويقويه ويساعده على الاستمرار والإنتاج الفكري والإبداعي، وقد يكون سبب هذه الأزمة والمعاناة خارجيًا يتعلق بالمجتمع أو ما يمكن تسميته بأزمة مجتمعية عامة محفزة للإبداع، وهو ما نلمسه في الإنتاج الروائي لتوني موريسون نتيجة أزمتها الداخلية، ومحصلة من أزمة عامة تخص السود في المجتمع الأمريكي، الذي تجتاحه التفرقة العنصرية، فقد كانت ناقمة ورافضة لأوضاع الزنوج والسود الأمريكان، الذين تنتقدهم بشدة بعد أن أصبحوا أكثر ضعفًا ولم يعد لهم ما يخصهم، كما كانوا من قبل، خاصة في العشرينيات حينما أبدعوا موسيقى الجاز، وعبرت أيضًا عن رفضها لسياسة الفصل العنصري، التي ينتهجها البيض وهو ما عبرت عنه روايتها، والذي كان موضوعًا رئيسًا لكافة أعمالها الأدبية.

تصوِّر توني موريسون جانبًا من حياة الشقاء والمعاناة التي كبرت فيها فتقول: «إنني من مواليد كليفلاند، جذوري تعود إلى الجنوب، هرب

أهلي من الاسترقاق في القرن الماضي. كان الصراع بين التكيف مع الواقع الأبيض والحفاظ على الهوية السوداء هاجسيًا دائما«

وانعكاسا لهذه المعاناة التي كبرت خلالها الطفلة توني موريسون لتصبح الكاتبة والأديبة والحائزة على نوبل، تظهر أعمال توني موريسون الأدبية الظروف الصعبة البائسة التي يعيشها السود في أمريكا البيضاء أن مسألتي الجنس والعرق تساهمان بشكل كبير في إظهار حجم الاضطهاد والمعاناة ضد الأفارقة الأمريكيين، فمنذ بداية العبودية وحتى وقتنا الحاضر يُعتبر اللون والجنس من أهم مسائل التمييز العنصري، فقد تم عزل وتهميش ومعاملة العرق المختلف عن العرق العام بطريقة سيئة إلى درجة حرمانهم من حقوقهم في أمريكا.

بل إن توني نجحت في تجسيد المعاناة المزدوجة الذي تقع تحت طائلته المرأة السوداء من حيث تمييزها في المجتمع الأبيض، وكذلك معاناتها تحت سيطرة الرجل الأسود أيضًا. كل ذلك تجلى بأسلوب روائي امتزج به السرد الشعبي والشعر والأسطورة والخرافة لتخلق منه الكاتبة إبداعًا أدبيًا مميزًا في سائر أعمالها.

وفي هذا الإطار أيضا يشير اختيار الكاتبة إلى وجود امرأة لتكون مركز ونجم روايتها لمدى اهتمامها العميق لإعادة بناء الثقافة الأفريقية – الأمريكية وتاريخ العبودية، فإن معاناة المرأة الأفريقية – الأمريكية على يد كل من الرجال السود والبيض معًا جعلتها تقاتل وتكافح من أجل البقاء سواء داخل أو خارج المنزل، لذلك فإن قصص وحكايات هؤلاء النسوة،

حتى في المجتمع الأمريكي المعاصر محفوفة بالمعوقات والمخاطر المزدوجة المتمثلة بالجنس والعرق. ورغم التحرر والتعليم والتقدم التدريجي في مجال العمل فإنهن ما زلن يتخلفن كثيرًا عن النساء البيض والرجال السود.

تظهر أعمال توني موريسون الأدبية الظروف الصعبة البائسة التي يعيشها السود في أمريكا البيضاء.. أن مسألتي الجنس والعرق تساهمان بشكل كبير في إظهار حجم الاضطهاد والمعاناة ضد الأفارقة الأمريكيين، فمنذ بداية العبودية وحتى وقتنا الحاضر يُعتبر اللون والجنس من أهم مسائل التمييز العنصري، فقد تم عزل وتهميش ومعاملة العرق المختلف عن العرق العام بطريقة سيئة إلى درجة حرمانهم من حقوقهم في أمريكا.

وقد ارتبطت كتابات موريسون ارتباطًا وثيقًا بتاريخ أبناء جنسها ومعاناتهم وعذاباتهم، وسعت لإحياء الجوانب الخفية من الذاكرة الجماعية على مدى عقود تلك الذاكرة، ثم محاولة بناء حياة جديدة تسودها الحرية وتعمها المساواة بعيدًا عن تلك الذكريات المؤلمة حياة.

وقد انعكست معاناتها في حياتها على إبداعها بشكل عام، فقد دخلت مجال الكتابة والإبداع في سن متأخرة، بعد أن عاشت معاناة طويلة مثل كل حياة الزنوج الأمريكيين، فقد كانت أيام دراستها الأولى الطفلة الوحيدة السوداء بين الأطفال البيض، وفي هذه الفترة كانت هناك مظاهر متعددة للفصل العنصري بين الأمريكيين، حيث لم يكن للزنوج السود الذين أُعتقوا من العبودية منذ فترة قريبة الحق في الاختلاط بالبيض بالأماكن العامة، حيث عاشت توني سنوات كان على الزنوج السود فيها

أن يسافروا في قطارات منفصلة عن البيض، كما كان للزنوج أماكن منعزلة حتى في الكنيسة، بل كانت بعض المناطق تخصص كنائس خاصة للسود وكنائس خاصة للبيض، بل في بعض الحالات المتطرفة للتفرقة العنصرية بين الزنوج وبين البيض الأمريكيين يظهر يسوع في كنائس السود باللون الأسود مختلفا عن يسوع الأبيض في كنائس البيض.

المعاناة وقسوة الحياة والتفرقة العنصرية الصعبة قواسم مشتركة جمعت شخصيات موريسون في جميع أعمالها، ففي عالمها الأدبي سنجد هؤلاء النسوة اللاتي يتسمن بجمال وحسية وغريزة متقدة، ومع ذلك فإنهن يعانين من افتقاد ملحوظ لعلاقة كاملة مع طرف آخر، بدا هذا واضحًا من خلال القزمة الزنجية بيكولا بريدلف بطلة روايتها الأولى "العين الأشد زرقة" عام **1970**، حيث نرى صبية سوداء تحاول أن تكون شقراء الشعر بأي ثمن، فهي منبهرة بالأطفال البيض وبأعينهم الملونة، وترى هذه الصبية أن الناس يتم تمييزهم حسب ألوان الشعر والعيون، وهي تتمنى أن تنام وتصحو لتكون مثل شيرلي تمبل، وهذه الفتاة التي تدعى بيكولا بريدلف، أو حيز الحب الصغير كما هو اسمها بالإيطالية والإنجليزية، تغرق في دياجير الجنون وتتخيل نفسها تعيش في عالم يصبح فيه الحب هبة، أما الحب الوحيد المجاني فهو حب المحارم، وتصف الكاتبة كيف تغوص الفتاة في هذا العالم، وهي لا تعرف ماذا ينتظرها من مصير غامض

فعالم موريسون مليء بالسخريات المأساوية، وأن النساء يعشن في قسوة وعنف وسخرية قاسية، ورغم ذلك فهو بالغ الاتساع والغنى

والخصوصية والاهتمام بالتقنيات الجمالية ركيزة أساسية لكل عمل فني جيد، ولا يتعلق الأمر بالواقعية الخيالية لعمل يقوم على بناء وهدم الأسطورة الإنسانية بدءا من الفلكلور والاعتقادات، وأساليب الحياة في التجمعات السوداء، وماضي أفريقيا فقط، بل إن الخيال عند الكاتبة هو دافع ثقافي وبذور لا تنمو إلا بعد أن تتشكل الخيالات..

وحسب اعتراف الكاتبة، فإن قصص موريسون نمطية تملأها البساطة من فوق السطح، لكنها مليئة بالاعتراضات والتناقضات بين الخير والشر، بين القبح والجمال، بين الحب والموت، وتلك سمات موجودة بشكل واضح في رواياتها، فالكاتبة ترفض الرؤى العرقية للقراء البيض، ولسنا هنا أمام روايات إضافية عن السود، ولكنها ثمار لأفكار الكاتبة ومواقفها تجاه المجتمع الأمريكي، فالعمل المكتوب يحمل وجهة نظر سوداء، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين النساء وعلاقات الأمهات بالبنات التي تأخذ شكلا من الاختيار. كانت توني موريسون الطفلة الثانية من بين أربعة أطفال في العائلة، وهو ترتيب يعتبره بعض علماء النفس يمثل مأزقا لهذا الطفل، فالطفل الثاني في العائلة ليس مدللًا مثل الطفل الأخير، وليس محبوبا باعتباره الأكبر والبكر مثل الطفل الأول، لكن كانت موريسون تقرأ باستمرار ومن كتابها المفضلين جين أوستن وليو تولستوي، وكان والدها يروي لها العديد من الحكايات الشعبية عن مجتمع السود بطريقة السرد القصصي، والتي ستؤثر لاحقًا على أسلوبها في الكتابة.

في عام 1949 التحقت موريسون بجامعة هاوارد، وفي عام 1953 حصلت على بكالوريوس في الأدب الإنجليزي، وفي عام 1955 نالت شهادة الماجستير في جامعة كورنيل. بعد أن نالت الماجستير عملت في جامعة تكساس الفترة من (1955–1957) ثم عادت للعمل في جامعة هاوارد، تزوجت من المهندس المعماري الجامايكي هارولد موريسون في عام 1958، وطلقت منه عام 1964، بعد أن أنجبت منه طفلين لتعيش من جديد حياة المعاناة التي تشترك فيها كل المطلقات، انتقلت إلى نيويورك لتعمل محررة كتب منهجية، ثم محررة في المقر الرئيسي لدار النشر راندوم هاوس الشهيرة .

ومن المفارقات أن توني دخلت إلى عالم الكتابة والأدب متأخرة في العمر، بالرغم من أنها أظهرت اهتمامًا بالأدب منذ نعومة أظفارها، إلا أنه لم يظهر لها عمل أدبي مطبوع إلا في عام 1970م، وحيث فاجأت توني موريسون القراء والنقاد على حد سواء في أول عمل لها بأن لها أسلوبًا خاصًا بها، ويتسم أسلوبها بلغة غنائية عذبة وتشخيص حي، بالإضافة إلى القدرة على إقناع القارئ بقبول ما ليس عاديًا كما لو كان عاديًا مألوفًا.

وبدأت موريسون كتابة الروايات الخيالية عندما اشتركت مع مجموعة من الكتاب والشعراء في جامعة هاوارد الذين كانوا يلتقون ويناقشون أعمالهم، في إحدى المرات ذهبت إلى الاجتماع وهي تحمل قصة قصيرة عن فتاة سوداء تتوق للحصول على عيون زرقاء، وقد طورت هذه القصة فيما بعد لتصبح روايتها الأولى التي تحمل عنوان "العين الأكثر

زرقة" نشرتها عام 1970، وكتبتها في الوقت الذي كانت تربي طفليها، وتعمل في جامعة هاوارد، وفي عام 2000 اختيرت الرواية كواحدة من مختارات نادي أوبرا للكتاب. وفي عام 1975 رشحت روايتها "صولا" التي كتبتها عام 1973 إلى جائزة الكتاب الوطنية، أما روايتها الثالثة "نشيد سليمان" فقد اختيرت كتاب الشهر، وهي أول رواية لكاتب أسود يتم اختيارها بعد رواية الكاتب ريتشارد التي اختيرت عام 1940، وقد حصلت أيضًا على جائزة النقاد الوطنية. وفي عام 1987 أصبحت روايتها "نقطة حرجة" في تاريخ نجاحها عندما فشلت في الفوز بجائزة الكتاب الوطنية وجائزة النقاد الوطنية، مما حدا بعدد من الكتاب إلى الاحتجاج ضد إغفال موريسون، ولكن بعد مدة قصيرة فازت هذه الرواية بجائزة Pulitzer Prize for fiction وجائزة الكتاب الأمريكي، وفي نفس السنة عملت موريسون كأستاذ زائر في .Bard College

في عام 1998 تحولت هذه الرواية إلى فيلم يحمل نفس الاسم من بطولة أوبرا وينفري ودان كلوفر، ثم استخدمت موريسون قصة حياة ماركريت كارنر في نص أوبرالي ألف الموسيقى له الفنان ريتشارد دانيبلور. كما رشحت، The New York Times Book Reviewهذه الرواية في عام 2006 كأفضل رواية أمريكية نشرت خلال الخمس وعشرين سنة الماضية.

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.

2) توني موريسون (رواية): أغنية سليمان، دار العودة، بيروت 1994م.

3) عبدالله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م

4) عبدالسلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1979م

5) محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب 1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991.

6) محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

7) ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990.

فيسوافا شيمبورسكا .. الشاعرة الساخرة

لعل فترة التنوير هذه في حياة فيسوافا شيمبورسكا هي التي كشفت المعاناة التي عاشتها قبل أن تصل لقناعتها السياسية الجديدة، وحتى وهي تجاهد لإخفاء حقيقة مواقفها ونواياه تجاه الحكم الشيوعي الذي حكم بولندا بالحديد والنار خلال هذه الفترة، خاصة وأن معاناتها السياسية ارتبطت في نفس الفترة الزمنية بمعاناتها الحياتية

عندما حصلت الشاعرة البولندية "فيسوافا شيمبورسكا" على جائزة نوبل للآداب في عام 1995م، قالت الأكاديمية السويدية عن مجمل أعمالها أنها استطاعت من خلال شعرها المليء بالسخرية المريرة أن تعبر عن الواقع الإنساني المتشرذم.

فعندما كانت فيسوافا تتناول طعام الغداء وقت إعلان الأكاديمية السويدية فوزها بجائزة نوبل للآداب في يوم الخميس 3 أكتوبر من عام 1996 لم يستطع أحد إزعاجها حسب تعليماتها الدائمة "اتركوني أعيش في هدوء"، بينما تحولت أنظار رجال الصحافة والإعلام نحو مدينة زاكوبين الصغيرة، للبحث عن معلومات عن الشاعرة غير المعروفة لهم.. وفي نفس الوقت كانت الآنسة العجوز الضئيلة الحجم ذات الثلاثة والسبعين عامًا، جالسة في مطعم بسيط تابع لبيت الكتاب البولنديين، لم تكن تدرك أنه

عندما فارت بهذه الجائزة المرموقة فهي بالفعل لحظة فقدت حريتها وعزلتها واستغراقها مع أفكارها في حياتها البسيطة.

وكانت فيسوافا هي تاسع امرأة تفوز بالجائزة، وهي رابع البولنديين بعد هنريك سينكيفيتش عام **1905** وستانيسلاف ريمونت عام **1924**، وتشيسلاف ميلوش عام **1980**.

وذكرت الأكاديمية السويدية في حيثيات فوز الشاعرة البولندية أنها استمدت قرارها بإعطائها الجائزة لشعرها الذي يكشف في سياق تاريخي وبسخرية دقيقة الحقيقة الإنسانية المشتتة، وهي تتوجه إلى القارئ جامعة وبطريقة مدهشة الروح والفن الإبداعي ومعرفة الغير.

لقد عُرفت شيمبورسكا على نطاق واسع بأنها الشاعرة التي عبرت عن هموم الواقع الإنساني من خلال السخرية من هذا الواقع. فقد ولدت في كورنيك غرب بولونيا في عام **1923**، وعاشت في كراكوف منذ عام **1931**، حيث درست من **1945** إلى **1948** الأدب البولوني وعلم الاجتماع في جامعة ياغيللون. وبدأت رحلتها الشعرية في عام **1945** بقصيدتها "أبحث عن كلمة" وكان من المفترض لأول كتبها أن ينشر في **1949**، ولكن الرقابة لم تصرح بنشرها، زاعمة أنه لا يتماشى مع المناخ الاشتراكي الذي كان يسود بولندا في ذلك الوقت، فاضطرت للتوقف عن الكتابة لكنها توقفت لمدة **9** سنوات قبل أن تصدر مجموعاتها الثانية في عام **1954**م، ثم واصلت بعد ذلك كتابتها الشعرية والإبداعية من خلال مسيرة ممتدة من النشاط الإبداعي أهلها لأن تحصل على العديد من

الجوائز بخلاف جائزة نوبل، حيث حصلت على جائزة Kallenbach من مؤسسة Koscielski عام 1990، وجائزة Goethe عام 1991م، كما حصلت على وسام النسر الأبيض، والذي يعتبر من أرفع الأوسمة الرسمية في بولندا، وتمت ترجمت العديد من أعمالها إلى لغات عدة منها الإنجليزية والعربية.

ولعل "فيسوافا شيمبورسكا" كانت تتعمد حتى في اختيار عناوين أعمالها الشعرية أن تعبر عن الحالة المزرية للواقع الإنساني من وجهة نظرها، مثل ديوانها المعنون بـ"الملح"، كما كانت السخرية حاضرة حتى في عناوين أعمال أخرى لها، مثل ديوانها الذي حمل عنوانًا غريبًا ويدفع إلى الضحك، وهو الديوان المعنون بـ"هيكل السحلية"، لكن في كل الأحوال فإن "فيسوافا شيمبورسكا" كانت تبلغ من السخرية في شعرها لدرجة أنها تتوجه بخطابها الشعري للبشر وللحيوانات والنبات، لكن السخرية كانت من نصيب البشر فحسب بأوصاف تتضمن الاستهزاء بهم أحيانًا، وحيث عرف عنها أنها تستخدم دائماً أساليب أدبية مثل الطباق والسخرية والتصريح المقتضب لإلقاء الضوء على الوساوس والمواضيع الفلسفية.

قصائد شيمبورسكا القصيرة غالبًا ما تستحضر إشكاليات وجودية كبيرة تلمس من خلالها مواضيع ذات قيمة أخلاقية وتعكس حالة الإنسان كفرد وكعضو في المجتمع. يتميز أسلوب شيمبورسكا بالاقتضاب ويتميز بالتأمل في بواطن الأشياء وبروحه الفكاهية، وحيث صنف النقاد شيمبورسكا بأنها شاعرة ومفكرة تتناول قضايا العالم من خلال الشعر لكنها

تتميز أيضًا بأسلوب واضح للقارئ العادي. تتميز أعمالها بأوصاف ساخرة لأوضاع جدية وحرجة.

وبخلاف أنها شاعرة السخرية، فهي أيضا شاعرة التفاصيل والتناقضات بامتياز، كما يعتبرها النقاد في نفس الوقت شاعرة "الجزالة الشعرية" و"السهل الممتنع"، فكل قصيدة من قصائدها مهما كان مستواها هي قصيدة جديدة تشكل حضورًا وتفردًا بامتياز. تكاد تكون شيمبورسكا قد كتبت عن مختلف شؤون الحياة بطريقتها الخاصة، بحيث أصبحت كل قصيدة لها بمثابة لوحة إما أن تتفاعل معها أو ترفضها، وهذا أمر صعب المنال بالنسبة لعموم الشعراء.

وعلى سبيل المثال، في مجموعتها الشعرية المعنونة "ملح" عام 1962، تظهر قدرتها الاستثنائية على الدّمج ما بين ما هو تاريخي وشخصي، إذ تعبر عن ذلك بنضارة ومقاطع شعرية خالية من السخرية في أحيان أخرى.

ومن المجموعات الشعرية التي نشرتها: "لهذا نحيا" عام 1952، "أسئلة نسألها" عام 1954، "مناداة ييتي" عام 1957، "الملح "عام 1962، "هزل بلا حدود" عام 1967، "كل احتمال" عام 1972، "العدد الكبير" عام 1976، "ناس فوق الجسر"عام 1986، "النهاية والبداية" عام 1993، "لحظة "، "نقطتان" عام 2005، "ها هنا"عام 2009، "صمتُ النبات"عام 2011.

يضاف الى ذلك مجلدان نثريان يضمان مقالاتها المنشورة بعنوان "مطالعات اختيارية " في الصحافة البولندية. وكتابان في مجال ترجمة الشعرية: الأول "مختارات من أشعار دي موسيه" عام 1957والثاني "أشعار مختارة من شعر بودلير" عام 1970.

بين الشعر والسياسة

تعد فيسوافا شيمبورسكا من أكثر المبدعات الحاصلات على جائزة نوبل انخراطًا في العمل السياسي، ويمكن القول أن فيسوافا شيمبورسكا لم تكن في سلوكها السياسي بنفس الثبات والوضوح في نهجها الإبداعي والشعري، بل إنها اتهمت في كثير من الأحيان بأنها مارست ما يمكن اعتباره بأنه مناورات لا تتناسب مع مسيرتها الإبداعية، ومع كونها شاعرة تعبر عن الحق وتنشد الحرية وتدافع عن المضطهدين في مسيرتها السياسية المتقبلة.

لكن مع ذلك فهناك من يدافع عنها، ويعتبر أنها كانت جريئة فيما يتعلق بتعبيرها عن رأيها، لكنها مع ذلك كانت حكيمة بالفطرة، وهو ما ساعدها على البقاء والاستمرار.

وهذه الحكمة هي التي جعلتها تستمر لأكثر من خمسين عاما في كتابة الشعر ومازالت سماتها وصوتها الخاص قائمًا حتى الآن في الشعر البولندي المعاصر. لكن يأخذ عليها منتقدوها أنها شاركت في عام 1953 في الفترة الستالينية في بولندا في التشهير بالرهبان الكاثوليك الذي حكم

عليهم النظام الاشتراكي الحاكم بالإعدام دون سبب حقيقي، ولكن الحكم لم ينفذ على أية حال بسبب موت ستالين.

كما يعتبر منتقدوها أنها بالغت في مديح لينين وستالين والشيوعية في كتاباتها مثل قصيدتها التي سمتها "لينين" في أول مجموعة شعرية لها، وكانت تدعى "وهذا الذي نحيا من أجله". انضمت شيمبورسكا لحزب العمال البولنديين المتحدين، ولكنها ككثير من المفكرين البولنديين تخلت عن أفكارها الشيوعية ولكنها لم تترك الحزب حتى عام 1966، لكن بعد هذا التاريخ انفصلت عن الحزب الشيوعي وانخرطت في الجهود التي بذلها نشطاء للتصدي للمحاولات الشيوعية للتصدي لحرية الرأي.

المعاناة ونقطة التنوير

يمثل عام 1956 نقطة التنوير في حياة الشاعرة، عندما تيقنت أن الشيوعية قد فشلت ولن تحقق آمالها وآمال الآخرين في العدالة والرخاء والمساواة. وظهرت نقطة التنوير في حياتها وأفكارها من خلال سخريتها المريرة من الشيوعية في قصيدة "جنازة" التي كتبتها بعد إعادة دفن الشيوعي الهنغاري لازلوك راجك، الذي كان قد أعدم قبل سبع سنوات بتهمة الانتماء إلى تنظيم بديل للماركسية اللينينية، لكنها بقيت عضوًا في الحزب الشيوعي لعشر سنوات بعد ذلك، لتدير ظهرها للحزب عام 1966 حين شاركت في مظاهرة احتجاجية ضد الإجراء العقابي ضد الفيلسوف ليسزيك كولاكوفسكي، الذي كان انتقد النظام علانية.

لكن مع ذلك، لم تندفع شيمبورسكا في المشاركة بأنشطة سياسية تجلب لها المشاكل مع الدولة التي كانت لا تزال تحت سيطرة الحكم الشيوعي، حيث بقيت فيسوافا شيمبورسكا متوارية عن الأنظار خلال فترة الحراك السياسي الذي قادته حركة "تضامن" المناهضة للحكم الشيوعي في بداية الثمانينيات والسنوات اللاحقة من فترة الأحكام العرفية التي سادت في بولندا.

وقامت بإعادة نظر شامل في حياتها خلال فترة التنوير سواء فيها من الناحية العقائدية، حيث أسقطت الفكر الشيوعي من قناعاتها أو من الناحية الفنية، حيث انعكس ذلك على أعمالها الشعرية التي تلت فترة التنوير، وهي فترة تكاد تكون أقرب ما تكون إلى الانتقال بين الواقع الجدلي والحياة الموضوعية التي مرت بها فيسوافا شيمبورسكا خلال فترة التنوير في حياتها العقائدية والفنية.

وخلال فترة التنوير هذه أو بعدها وحتى خلال فترة اختفائه أثناء الحراك السياسي المعارض بقيادة حركة "تضامن" في بولندا يمكن القول إن فيسوافا شيمبورسكا تكاد تكون قد كتبت عن مختلف شؤون الحياة بطريقتها الخاصة، بحيث أصبحت كل قصيدة لها بمثابة لوحة إما أن تتفاعل معها أو ترفضها، وهذا أمر صعب المنال بالنسبة لعموم الشعراء. يغلب الوعي على ما هو سواه، في مجمل عملية الخلق الشعري لدى الشاعرة البولندية صاحبة نوبل فيسوافا شيمبورسكا.

ولعل فترة التنوير هذه في حياتها هي التي كشفت المعاناة التي عاشت خلالها الشاعرة قبل أن تصل لقناعتها السياسية الجديدة، وحتى وهي تجاهد لإخفاء حقيقة مواقفها ونواياها تجاه الحكم الشيوعي الذي حكم بولندا بالحديد والنار خلال هذه الفترة، خاصة وأن معاناتها السياسية ارتبطت في نفس الفترة الزمنية بمعاناة حياتية تمثلت في فشل زواجها من الشاعر آدم فلودك وانفصالها عنه في نهاية المطاف، وقد عبرت عن معاناتها في فشلها الأسري وانفصالها عن زوجها الذي مثل أول حب لها من خلال قصيدتها "الحب الأول"، وعكست هذه القصيدة المعاناة العاطفية الكبيرة التي وقعت فيها، وتقول في هذه القصيدة

الحب الأول

يقولون

إن الحبَّ الأولَ هو الأهمُ.

وهذا أمر بالغ الرومانتيكية

لكن ليس في حالتي.

كان بيننا شيءٌ

وما كان،

كان وانسرب

كان وانقضى.

لا ترتعش يداي الآن

وأنا أتحسس تذكاراتي السخيفةَ

أو الرسائلَ المربوطةَ بخيطٍ.

ليس حتى بشريط.

لقاؤنا اليتيم بعد كل هذه السنين:

مقعدان يتبادلان الكلام

على طرفي منضدة باردة.

أحبائي الآخرون

لا يزالون يتنفسون داخلي بعمق.

أما هذا

فلا يجد من الهواء

ما يكفي لتنهيدة.

وبرغم هذه الحالِ

يفعل ما لا يقدر الآخرون عليه بعد:

لا يطفو على الذاكرة،

لا يظهر حتى في الأحلام،

يعوّدني على الموت.

وهو ما يؤكد فكرة المعاناة التي تشعل جذوة الإبداع، وكأن المعاناة هي النار التي تصهر المشاعر والظروف والضغوط التي يمر بها المبدع ليخرج في النهاية بإبداعه للقارئ في شكل قصة أو رواية أو شعر أو لوحة فنية، وهو ما حدث مع فيسوافا شيمبورسكا التي حولت معاناتها وظروف القهر السياسي الذي مرت به إلى قصائد ساخرة من الحياة ومن الواقع المرير الذي مر بها.

وحتى من خلال طفولة الشاعرة يمكن أن نلمس هذه المعاناة التي مرت بها، وهي صغيرة من خلال التقلبات السياسية والاجتماعية التي مرت بها بلادها، فقد ولدت شاعرتنا في قرية بنين الصغيرة بالقرب من مدينة بوزنان في غرب بولندا في الثاني من يوليو عام 1923م. وأمضت طفولتها وصباها في هذه القرية البولندية الصغيرة وفي مدينة بوزان، وهي مركز نشاط أدبي مرموق. لكنها لم تعش فيها إلا أثناء مرحلة الطفولة الباكرة، إذ انتقلت أسرتها وهي لا تزال في مرحلة التعليم الابتدائية عام 1931 إلى مدينة كراكوف، وأكملت فيها دراستها الابتدائية ثم التحقت بالمدرسة الثانوية فيها.

وقبل أن تكمل دراستها الثانوية وقعت بولندا تحت الاحتلال النازي، وأغلقت المدارس فيها. وكان عليهاأن تكمل شطرًا من تعليمها عن طريق حضور فصول التعليم السرية، أو غير القانونية التي كان ينظمها البولنديون، ودون علم المحتل الألماني.

وبعدها درست فيسوافا شيمبورسكا الأدب البولندي وعلم الاجتماع في "جامعة ياجيلونيان" من عام **1945** حتى عام **1948**، وأثناء دراستها في الجامعة انخرطت في المشهد الأدبي في كراكوف. ثم بدأت تعمل في المجلة الأدبية "الحياة الأدبية" عام **1953**، لكن المعاناة التي مرت بها بسبب الظروف والتقلبات السياسية في بلادها دفعت فيسوافا شيمبورسكا لأن تتحدث من خلال قصائدها المليئة بالمرارة والسخرية عن التاريخ البولندي، اعتبارًا من الحرب العالمية الثانية مرورًا بالمرحلة الشيوعية التي أسقطتها من تفكيرها العقائدي بعد أن اكتشفت زيف الفكر الشيوعي.

فالإنسان المبدع هو ذلك الذي يستطيع أن يترجم أحاسيسه ومعاناته وآلامه وآماله من حالة غير ملموسة أو مشاهدة ثم يحيلها إلى صورة ناطقة معبرة تدعو وبإلحاح شديد إلى الوقوف أمامها والتأمل فيها، والتفاعل مع رموزها وإيحاءاتها، وهو ما فعلته فيسوافا شيمبورسكا طوال فترة حياتها من خلال شعرها .

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966.
2) عبدالله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م.
3) فيسوافا شيمبورسكا: الشاعر والعالم: دار المدى للطباعة والنشر، دمشق، 1997م.
4) فيسوافا شيمبورسكا – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
5) https://ar.wikipedia.org/wiki
6) محمود قاسم : موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
7) هاتف الجنابي: فيسوافا شيمبورسكا شاعرة المتناقضات نوبل 1996م، مجلة نزوى، سلطنة عمان، ع 1يناير 1997

ألفريدي يلينيك.. ابنة المتناقضات

لم تكن "ألفريدي يلينيك"، التي ولدت عام 1946م لأب يهودي وأم كاثوليكية، تعلم في حقيقة الأمر أنها بعد نحو ستين عامًا من مولدها سوف تكون سببًا في أن يتقدم أحد أبرز أعضاء الأكاديمية السويدية التي تمنح جائزة نوبل،

وهو كنوت أهنلوند، باستقالته من اللجنة احتجاجًا على منح الجائزة لكاتبة ابنة أب يهودي لم يعرف عنها ممارسة الطقوس اليهودية في يوم من الأيام، واعتنقت الشيوعية بالرغم من أنها تلقت تعليمًا دينيًا متزمتًا في مدرسة كاثوليكية متشددة كانت بطبيعة القائمين عليها تضم عددًا لا بأس به من كارهي اليهود.

منذ صغرها وقبل أن تلحقها الشهرة كانت هي الفتاة التي تجمع بين كل المتناقضات، فهي ابنة لأب يهودي، لكنها في نفس الوقت ابنة لأم كاثوليكية تدفعها دفعًا ورغم إرادتها لأن تدرس علومًا دينية ولاهوتية كاثوليكية خلال فترة طفولتها، لكنها في مرحلة المراهقة تتحول لدراسة الموسيقى، وتعزف بالمهارة التي اشتهرت بها العازفات النمساويات على عدة آلات موسيقية ومنها: الأورغن، كالمزمار والقيثار والكمان وغيرها، ثم تستكمل ألفريدي دراسة تاريخ الفن وعلم المسرح، لكن ما حدث بعد ذلك عندما عبرت عتبة المراهقة لتصبح شابة يافعة فإنها تعتنق الفكر

الشيوعي وتنضم للحزب الشيوعي النمساوي، وتشتهر بأنها تدافع عن الشيوعية بكل قوة، ثم ما تلبث أن تنشق عن الحزب الشيوعي لتشتهر بعد ذلك ككاتبة مدافعة عن المرأة في كل أعمالها الأدبية سواء رواياتها أو أعمالها المسرحية، وتبلغ صراحتها في الدفاع عن المرأة وحقوق بنات جنسها للدرجة التي يعرف عنها في هذا الصدد تعبيراتها الصريحة، لدرجة أن روايتها الأكثر شهرة "الرغبة" توصف بكل وضوح بأنها خادشة للحياء!

وهكذا فإن شخصية الكاتبة الروائية وكاتبة المسرح "ألفريدي يلينيك" ظلت طوال حياتها وعلى الدوام شخصية متناقضة في تكوينها الشخصي منذ طفولتها، وحتى تقدمها في العمر وحصولها على جائزة نوبل للآداب عام 2004م، وهذا التناقض في حياتها وتكوينها انعكس على أعمالها الروائية والمسرحية، وتوج هذا بإعلان فوزها بجائزة نوبل دفع بالعضو البارز في لجنة منح جائزة نوبل كنوت أهنلوند إلى الاستقالة من اللجنة التي ظل عضوًا فيها نحو عشرين عامًا، وكتب كنوت أهنلوند في أسباب اعتراضه على فوز "ألفريدي" بالجائزة أن "لغتها الأدبية بسيطة، ونصوصها كتل كلامية محشوة، لا أثر لبنية فنية فيها، كما أنها نصوص خالية من الأفكار، لكنها مليئة بالأكليشيهات والخلاعة"

لكن في النهاية فإن ألفريدي فازت بأرفع جائزة يمكن أن يحصل عليها أديب في العالم، بالرغم من كل اتهامات المعترضين على أعمالها الروائية والمسرحية بزعم بأن لغتها سطحية و"جريئة!"

لكن الأغرب من كل ذلك هو أنه عندما تحققت المفاجأة وفازت بأشهر جائزة أدبية، ويكون عليها أن تصعد إلى منصة تتويج نوبل التي يحلم كل أدباء العالم بالصعود لها، تفاجئ العالم ووسائل الإعلام بأنها لا ترغب في حضور حفل تتويجها بالجائزة لأنها حسب قولها: "لا تحب الشهرة وتخاف من النجومية والزحام!"

حدث ذلك على الرغم من أن "ألفريدي" حصلت من قبل على جوائز أدبية كثيرة، منها جائزة الكليات الجامعية النمساوية للشعر عام **1969**، وجائزة التفوق من وزارة الفنون والتعليم في ألمانيا الفيدرالية عام **1983**، وجائزة هاينريش بول لمدينة كولونيا عام **1986**، وجائزة برلين المسرحية عام **2002**، وجائزة ستيغ داغرمان السويدية عام **2004**، بالإضافة إلى جائزة "ليسينج" للنقد، وجائزة الكليات الجامعية للشعر.

كتابة اللا معقول

بدأت "ألفريدي" بنشر أعمالها الإبداعية التي أبرزتها ككاتبة سياسية في عام **1967**م، وهو العام الذي زاد فيها نشاطها ضمن صفوف الحزب الشيوعي النمساوي، واعتبر منتقدوها أنها تكتب بلغة سطحية، لكن المدافعين عنها ذهبوا إلى عكس ذلك، معتبرين أن نصوصها الأدبية سواء في المسرح أو الرواية تتميز بأن هذه الأعمال تعطي للقارئ إحساسًا بأن "جريان موسيقاها يتوالف من تيار الأصوات الموسيقية والأصوات المضادة في رواياتها وأعمالها الدرامية مع الحماس اللغوي غير المألوف"

وهو نفس ما استندت إليه الأكاديمية السويدية في أسباب منحها جائزة نوبل للآداب، بل إن اللجنة المانحة لجائزة نوبل تذهب لأبعد من ذلك وتصف أدبها بأنه: "يكشف اللا معقول في الكليشيهات الاجتماعية وقوتها المستعبدة"، وتضيف اللجنة في أسباب منحها الجائزة "أن ذلك جاء تقديرًا لأعمالها التي تعالج من بين الموضوعات التي تعالجها دور المرأة في المجتمع"

وعلى حسب وصف الأكاديمية السويدية أن كتاباتها تفيض بالموسيقى والعذوبة واللغة الساحرة المضادة في رواياتها. وأكدت أن أعمالها تبنى على التقاليد اللغوية النمساوية الطويلة، خاصة في مجال النقد الاجتماعي، وهي في ذلك تسير على خطى "يوهان نيبومك نيستوري" و"كارل كراوس"، وغيرهما من المبدعين في مجال الأدب، وأن أعمالها من الصعوبة تعريفها، خاصة أنها تحتوي على مزاوجة ومراوحة بين النثر والشعر، والمسرح واللقطات السينمائية، فهذه الروايات تصور في إطار إشكاليتها عالما بلا رحمة يواجه فيه القارئ نظامًا متصلبًا يتأرجح بين العنف المستبد والخضوع، وبين الصياد والفريسة.

وتضيف الأكاديمية في بيانها الصادر بمناسبة منح "ألفريدي يلينيك" جائزة نوبل: أن هذه الكاتبة استطاعت من خلال مؤلفاتها أن تظهر كيف تترسخ أنماط صناعة الترفيه في ضمير الناس، وتشل مقاومتهم للظلم الطبقي والسيطرة.

لكن مع ذلك فإن هناك من يصف أعمالها بأنها "مثيرة للاضطراب ونقدية وعنيفة من حيث لغتها ومواضيعها"، وأن هذا الاضطراب والعنف هما سبب في خصوصية ما تكتبه، لكن مع ذلك فإن من يقرأ أدبها يدرك منذ الوهلة الأولى بأنه أمام كاتبة عنيدة تصر على الدفاع عن حقوق المرأة مهما كلفها ذلك وبكل عبارة ممكنة، طالما أن هذه العبارة تحقق المعنى الذي تريده مباشرة، حتى لو أدى ذلك لاتهامها بـ (السطحية) و(الجرأة) في كل ما تكتبه.

وهكذا أصرت منذ بدايتها أن تجعل من نصوص أعمالها أسفارًا تتحدث عن المرأة ووضعيتها في المجتمع النمساوي، حيث تعتبر أن وضع المرأة في بلادها غير مقبول وغير مساو لوضع الرجل، وتعلن نفسها ككاتبة مدافعة عن حرية المرأة.

كانت بداية ظهور ألفريدي في عالم الأدب مع بزوغ أول مجموعة من قصائدها عام **1967**، حيث نشرت أول نصوصها وقصائدها في نهاية الستينيات، وحازت عنها أولى جوائزها الأدبية، وكتبت أيضًا بعض الحلقات الإذاعية، وفي عام **1970** صدرت أولى رواياتها "إننا طعوم يا طفلي"، وفي عام **1972** صدرت لها رواية "ميشائيل"

إلا أن شهرتها اتسعت لاحقًا مع نشر روايتها "نساء عاشقات" في عام **1975**، ثم رواية "أوقات ممتعة" في عام **1980**، والتي تزامن صدورها مع رواية "المستبعدون" عام **1980**م، وتأتي هذه الرواية الأخيرة لتكون خير معبر عن تلك الحادثة التي أرعبت النمسا خلال الخمسينيات القرن

العشرين، حيث يتحد أربعة مراهقين ويشكلون عصابة ليسرقوا حقائب المارة ويضربونهم، ويتولى قيادة هذه العصابة "برانير" عقل العصابة المدبر إلى أن يقتل عائلته بأكملها، ومن ثم تحاول الكاتبة من خلال هذه الرواية أن تفضح المجتمع الذي يحاول جاهدًا أن ينسى ماضيه والرافض لفكرة تعزيم شياطينه، حاكمًا بذلك على أطفاله أن يعودوا وينتجوا هذا التوحش الذي عرفه آباؤهم من قبلهم.

وفي عام 1983، صدرت روايتها الشهيرة "عازفة البيانو" التي تعد بحق توصيف يصل إلى حد الهلوسة لهذه العلاقات الجهنمية التي تجمع ما بين أم وابنتها. إنها تحليل غير رحيم لنزع فكرة شخصية امرأة باسم الموسيقى، وهي أيضا تشبه رسم كبريتي لحرب الجنسين التي تعالجها على خلفية الجدال الديالكتي القائم ما بين السيد والعبد، وذلك كله جعل من هذه الرواية إزعاجًا في رؤوس النقاد والقراء الجادين بسبب فكرتها، بل تمادى بعض الكتاب ووصفوا هذه الرواية بأنها فضيحة، فقد جاءت هذه الرواية باللغة الألمانية معبرة عن جزء كبير من سيرة الكاتبة الذاتية، فحققت لها شهرة عالمية، لا سيما بعد أن تم تحويلها إلى فيلم سينمائي في عام 2001، وحقق نجاحًا كبيرًا.

وقصة هذا العمل تبحث بعمق في سلوكيات البطلة المنفعلة والمضطربة التي تسعى بسرعة إلى تدمير ذاتها، وذلك بعيدًا عن التفسير والتحليل، فالبطلة عانس في بداية الأربعينيات، صارمة حازمة وجافة الطباع، على الرغم من قيامها بتدريس البيانو في المعهد الموسيقي وعشقها

للفن والعزف، ومن البداية يعيش القارئ أو المشاهد الجو المتوتر الخانق الذي يحيط بالبطلة من خلال تسلط والدتها المسنة التي تكاد تكون جدة لها، والتي جعلت من ابنتها محورًا لحياتها، خاصة بعد مرض والدها ودخوله مستشفى الأمراض العقلية، وجدت الابنة نفسها في صراع مع والدتها المتسلطة ولم تجد بدًا من تحمل هذا التسلط الخانق، ومنذ الأسطر الأولى نجد الأم تهيمن على حياة البطلة، فهي ترصد تحركاتها بلا كلل أو ملل وتعاملها كأنها مازالت طفلة صغيرة، وتحسب عليها تحركاتها، وتحقق معها بصورة تعسفية أشبه بقوة المخابرات العسكرية، كل هذا لأن البطلة فشلت في تحقيق أمل والدتها بأن تصبح عازفة بيانو، فإن الأم لا تغفل أية فرصة للإعراب عن خيبة أملها فيها بسبب فشلها الذريع، مع لومها وتأنيبها على الدوام، وكانت تصر دائمًا على إحراجها أمام أصدقائها أينما كانت.

ويلاحظ القارئ لهذا العمل حرص والدة البطلة التي أسمتها "إريكا كوهوت" على تجريدها من أية خصوصية، فإلى جانب مشاركتها لوالدتها في السرير، كانت تسخر منها إن اشترت ثيابًا جديدة أو وضعت بعض مساحيق التجميل على وجهها، وكثيرًا ما كانت تفاجأ باختفاء ملابس جديدة اشترتها.

حرصت والدتها على اتهامها بالإسراف كان واضحًا خلال الرواية، فهي – الأم – تريد جمع المال لشراء شقة أفضل من التي يسكنان فيها، إلا أن إسراف وتبذير "إريكا" يحولان دون تحقيق هذا الأمل، ونتيجة لهذا الحصار والكبت الداخلي، تموت شخصية "إريكا" بصورة سرية خفية،

فحرمانها من التواصل مع الشبان ورفض والدتها لفكرة ارتباطها بأحدهم دفعها إلى بناء عالم سري. وتلخص الكاتبة عالم البطلة السري في حرصها الدائم على الذهاب عقب انتهاء عملها كل مساء إلى الأحياء الشعبية لكي تتلصص على العشاق وتراقبهم سواء في السينما أو الحانات من خلال وسيط التجسس عليهم وهو ثقب في الجدار، وفي هذه الأثناء يعجب شاب رياضي بشخصيتها، وتبدأ "إريكا" برسم سيناريوهات في مخيلتها تكشف فيها عن عاطفتها تجاهه، وإن كانت عاجزة في الواقع عن التعبير أو إظهار أي نوع من العواطف تجاهه، وبعد مضي زمن حاول هذا الشاب أن يغتصبها في خفية من الناس، إلا أنها رفضت وسيطرت على الموقف بهدوء وأخبرته أنه بإمكانه إقامة علاقة عاطفية معها ولكن بشروطها الخاصة، وبمجرد أن سمع ردها وافق وتعود على التسلل إلى غرفتها بمجيء المساء لتقدم له قائمة من المطالب التي تحتاجها منه غير المقبولة اجتماعيًا، إلا أنه يشعر بالاشمئزاز من هذه الطلبات السادية الماسوشية ويغادر غرفتها فورًا، وبعد فترة طويلة يتجه هذا الشاب إلى غرفتها ويضربها بعد حبس والدتها ثم يغتصبها بالقوة.

والأمر الفضائحي في روايات ألفريدي لم يقف عند حد رواية "معلمة البيانو"، بل تمادت في ذلك المنحى في روايتها التالية، وجاءت تحت عنوان "لوست"، الذي يشير بلا مواربة أو حياد إلى الرغبة والملذات والمتعة، تلك الرواية التي تقول عنها ألفريدي في أحد حواراتها الصحفية: "لوست" هو الكتاب الذي رغبت في كتابته دائمًا، إنه نص بورنوغرافي كتبته امرأة، يبدو أنه قصة مضادة لقصة "العين" التي كتبها الكاتب

الشهير "جورج باتي"، كما أنه مضاد لنصوص تناولت الرغبات الإنسانية، حيث كان الرجال وحدهم هم أسياد البورنوغرافية والحرب، وجاءت هذه الرواية لتؤكد التفرد في هذا المجال الإبداعي.

ثم تأتي رواية "أطفال الموتى" عام **1995**، لتكون بمثابة محاولة خرجت بها الكاتبة عن المألوف لإعادة إحياء موتى الأمة، لتضعهم بين الأحياء في بنسيون جميل يحمل اسم "وردة جبال الألب"، وذلك كي يعاد إليهم حقوقهم في الحياة. وهذه الرواية تعبر بوضوح لا لبس فيه، كيف أن هذه الكاتبة مسكونة بهاجس التاريخ النازي لبلادها وما تفعله هنا، ومثلًا يقول التعبير الشائع تدق المسمار إلى آخره.

والملاحظ على أدبها أن المحور العام لجميع رواياتها يرتكز على قضايا العنف ضد المرأة والجنس، وسردها يتراوح بين النثر والشعر، والإيقاع والرشاقة، والكلمات الفجة الجريئة، إلى جانب إبداعها في تصوير مشاهد مسرحية وسينمائية، كما تتميز بطرحها للأفكار بصورة حيادية لا تسعى إلى كسب تعاطف القارئ، مما يدفعه إلى التأمل والتفكير والبحث في ردود أفعال الشخصيات وسلوكياتها غير المتوقعة، بعيدًا عن التحليل النفسي وذكر الدوافع الخفية، وأيضا الانتقال بالحدث من الخصوصية إلى الشمولية كقضية إنسانية عامة.

التعبير عن الخوف وعدم الأمان من جانب الشخصيات النسائية في أعمال الكاتبة الروائية هو الذي دفع الكثيرين من منتقديها للقول بأنها تكن عداء عميقا لبلدها (النمسا) وهذا الاتهام القائم ضدها المتهمة

بكراهية بلادها هو ما تعزز من خلال ردود الفعل الغاضبة التي قوبلت بها رواية "لوست"، التي ذهبت فيها إلى أبعد الحدود في فضح استمرار الفاشية بوسائل أخرى، داخل البنيتين العائلية والزوجية في بلادها، وحيث اعتبر منتقدوها أنها معادية للقيم الاجتماعية السائدة في بلادها، أيضًا بخلاف الاتهام الموجه لها سابقًا بأنها تكن الكراهية العميقة لبلادها النمسا.

لكن بغض النظر عن صحة الاتهامات الموجهة ضدها بكراهية بلادها، إلا أنها نجحت من خلال كل ما قامت بكتابته من روايات بأن تصور، كل في إطار إشكاليتها، عالمًا بلا رحمة يواجه فيه القارئ نظامًا متصلبًا يتأرجح بين العنف المستبد والخضوع، وبين الصياد والفريسة .

المعاناة تصنع المبدعة

"المعاناة هي النار التي تلهب الموهبة"، هذا هو الرأي الراجح في التفسير النفسي والموضوعي للإبداع، فالمعاناة تولّد الإبداع، لأن الإبداع لا ينتج عن شخص عادي يعيش في ظروف عادية، وإلا أنتج أدبًا عاديًا، أما الإبداع فإنه ثمرة مميزة يصدر عن شخص مميز يحيا ظروفًا خاصة غالبًا ما تكون معاناة وقهرًا أو إحساسًا بالظلم، إن عملية الإبداع في الواقع هي تعبير عقلي قائم على مضمون وأحاسيس

فملايين البشر كل يوم يمرون بالكثير من العقبات في حياتهم، تقف أمام تحقيق أحلامهم، بل وتقف أمام الحياة ذاتها، ولكن عن هؤلاء القادرين على تخطي العجز والمرض، عن هؤلاء الذين تألموا وعانوا فلم تزدهم المعاناة

إلا إلهامًا وقوة، ليتركوا للكون من بعدهم مثالًا على ما يفعله الألم بالبعض، إنه قد يقودك يومًا إلى تحقيق المستحيل، فالألم والمعاناة في أحيان كثيرة هما الجسر الذي نعبر به إلى المستحيل ذاته، وهذا ما يفسر لنا لماذا دائما المبدعون، فالأديب ابن بيئته عندما يحترق بنور الكلمة التي تضيء عتمة الظلم والجهل والجوع، ويتحول النص إلى حاضن للمعاناة الإنسانية، ويصبح مرآة للحياة بألوانها القاتمة والزاهية وكل اختلاجات النفس البشرية، ليعيش الكاتب حرية تطلق عنان الكلمة الجريحة لتنزف وجعها على أرض النص تحمل معاناة فرد يمثل البشرية ومعاناة إنسانية اختزلها وجدان كاتب أو كاتبة تصبو إلى صناعة الخير والحب والفرح، تقاوم الظلم والطغيان من خلال كلمة ومشاعر صادقة، فالكاتب يعيش بين عالمين متناقضين عالم الواقع المأساوي على الأرض، وعالم الحلم بالحرية والعدالة، لنجده يتنقل بينهما في محاولة منه طمس معالم الأول ورسم صورة الثاني على أرض الواقع، مستعينًا بمخيال الكاتب والأديب حتى يتجاوز المعاناة اليومية والتي تقض مضجعه دون أن يستطيع التخلص من آثارها في نفسه، ولا في نصه الإبداعي.

فالمعاناة التي عاشتها ألفريدي هي التي صنعت منها (صاحبة نوبل)، ففي **20** تشرين الأول **1946** وفي وسط برجوازي بارد محافظ وتقاليد عائلية صارمة ولدت الكاتبة الروائية والمسرحية النمساوية ألفريدي يلينيك في ميورزيشلاغ بجنوب النمسا، وهي مدينة صغيرة في مقاطعة ستيريا الشهيرة بصناعة خشبات التزلج، رمز هذه المقاطعة، أما أبوها اليهودي التشيكي الأصل فقد نجا من حملة الإبادة النازية لكنه أصيب

شيئًا فشيئًا بالجنون، لكن ابنته الصغيرة لم تغفر له أبدًا هذا الانهزام أمام الحياة، حيث سلمها إلى رحمة والدتها الكاثوليكية المستبدة، وحتى وفاة والدتها، وهي في الثامنة والتسعين من العمر ظلت ألفريدي تعيش مع هذه الشخصية الفتاكة، كما وصفتها في روايتها "عازفة البيانو"

وقد حصلت "ألفريدي" على تعليم ديني في المدرسة الكاثوليكية، لكنها ترعرعت في فيينا، حيث بدأت في العام **1960** دراستها الموسيقى، أو أجبرت على دراسة الموسيقى، كما خططت لها والدتها، وهو جانب آخر من المعاناة أن تدرس ما ترغب في دراسته.

وفي السادسة عشرة، دخلت إلى المعهد الموسيقي في فيينا، بيد أنها لم تحتمل كل هذه الضغوط الأسرية الممارسة ضدها، الأمر الذي جعلها تسقط مريضة، وتجتاز أزمة نفسية خطيرة كادت أن تودي بحياتها، وهذا كله كان على أثر الممارسات القاسية التي كانت تمارسها والدتها ضدها، ولكن هذه الممارسات أشعلت عندها فتيل التمرد على كل السلطات.

ومن العوامل التي أثرت على شخصيتها أن جاءت نهاية والدها الذي كان غائبًا دائمًا عن حياتها مأساوية للغاية، حيث انتهى به المطاف في إحدى المصحات النفسية والعقلية، بينما كانت ثورة **1968** الشبابية والطلابية تزأر في الشارع، بقيت ألفريدي في البيت مقفلة على نفسها، وكانت في ذلك الوقت في الثانية والعشرين من عمرها، وكان معروفًا عنها أنها تحب العزلة والنفور من الحياة الاجتماعية الصاخبة، وتصر دائمًا على التعامل مع نفسها بحزم وشدة فيما يتعلق بإنتاجها.

وفي عام **1974** انتمت الكاتبة للحزب الشيوعي النمساوي لتستمر رحلة معاناتها، فهو حزب الأقلية في النمسا، وتمسكها بأفكارها ومناصرتها للحركة النسوية والتزامها بمحاربة التمييز العنصري عرضها على مدى عشرة أعوام لمضايقات الحزب اليميني المتطرف في البلاد، حيث وصفها زعيمه جورج هايدر بـ"المرأة المحبطة المكبوتة"، وحتى داخل الحزب حتى وبين صفوف مناضلي الحزب فاضطرت في نهاية المطاف للاستقالة من الحزب وترمي بنفسها في مرمى نيران خصومها السياسيين الذين لم يتوقفوا عن اتهامها بالعنصرية، ونقاد أعمالها الأدبية الذين لم يتوقفوا بدورهم عن وصف ما تكتبه بالسطحية والصراحة الزائدة.

إيقاظ الضمير

على مدار عشرات السنين تجاهلت "ألفريدي" عاصفة الانتقادات الموجهة ضدها والهجوم عليها، ووصفها بأوصاف كان من الممكن أن تجعلها تعتزل الناس، فضلًا عن اعتزال الكتابة، لكنها أصرت على أن معركتها في الحياة هي أن تحارب على الورق ومن خلال الكتابة من أجل إيقاظ ضمير الآخرين.

وفي مسار مستمر في كل رواياتها، تصر على أن تحارب من أجل إيقاظ ضمير الآخرين، وأن تعالج موضوع ازدواجية المعايير الأخلاقية واضطهاد المرأة.

ويرى بعض النقاد أن الذي لا يعرف النمسا وتاريخها الحديث تحديدًا فإنه قد لا يفهم هذا الاتجاه الراديكالي الذي تميز به مسارها الإبداعي منذ كتاباتها الأولى، ذلك أن التاريخ السياسي لبلادها والتاريخ الشخصي الحميم للكاتبة يمتزجان ليمدا كتاباتها بزخم خاص، وبنزعة نقدية حادة لعلهما تؤلفان خصوصيتها الأولى، وهي كاتبة تعتبر موضع جدل داخل بلادها بسبب آرائها في المسائل السياسية المعاصرة.

وما يميز تجربة الكاتبة أنها تملك الجرأة على ملامسة مواضيع حساسة، متجاوزة حدود المنظومة القيمية للمجتمع، وذلك بلغة تتمتع بخصوصية لا تعرف الرحمة: لغة وصفية، ووظيفية تخلو من العواطف والجماليات المعهودة.

وفي تفسيرها لكل ما قامت به طوال رحلة طويلة من الكتابة محاولة إيقاظ ضمائر كل من حولها وتغيير الواقع من حولها: "هل الكتابة هي القدرة على الرضوخ للواقع والارتماء في أحضانه؟ قد يحب المرء ذلك، لكن ما الذي يحدث بعدئذ للذين لا يعرفون الواقع أصلًا؟ الواقع أشعث الشعر ولا يوجد مشط قادر على تسريحه"...

وعلى هذا النحو أكملت مسيرتها لتعرف بين الأوساط الإبداعية بأنها كاتبة معروف عنها الجرأة والإقدام في تناولها لأفكار لم تطأ قدم امرأة محرابها من قبل، مما جعلها عرضة للاتهام وهدفًا للانتقام من قبل الرافضين لهذه الفضائح التي أعلنت عنها في مؤلفاتها دون تجميل أو مواربة

وبالرغم من كل ذلك ظلت الكاتبة تعمل على إيقاظ ضمير المجتمع من خلال ما تؤمن هي به من أفكار، وفرضت نفسها ككاتبة سياسية بشكل متكامل، وإحدى أكثر ممثلات الحركة النسائية شهرة، استطاعت بما تمتلكه من قدرات إبداعية أن تبدع لغة شخصية لا يجدها القارئ أو المشاهد إلا فيما أبدعته لغتها وطن جعلت منه سلاحًا فنيًا ضد شرور وآفات المجتمع المعاصر، وأيضًا ضد سياسات التمييز وانتهاكات السلطة.

مسرح "ألفريدي يلينيك"

على الرغم من أن جانبًا كبيرًا من حضور "ألفريدي يلينيك" على ساحة الأدب العالمي وشهرتها مدين لرواياتها، إلا أنها وقبل كل شيء كاتبة مسرحية، لأن المسرح هو من أفرد لها هذه الشهرة في البداية، ففي عام **1979** نشرت مسرحيتها الأولى "نورا" التي جاءت بمثابة تكملة لمسرحية "بيت الدمية"

وتواصل الكاتبة إبداعاتها المسرحية، فتقدم مسرحية "كلارا شومان"، تلك المسرحية التي بلغت بطلتها مرتبة اجتماعية لم يكن يحلم بها أحد، وكانت هذه البطلة في سعيها نحو النجاح تعمل من مبدأين أساسيين وهما: مبدأ العدوانية الماكرة التي يجسدها زوجها العبقري الفنان المجنون روبرت شومان، ومبدأ التدمير الصافي والبسيط الذي يجسده شاعر التطرف الكلي "غابرييل دانونزيو" في هذه المسرحية، وتلت هذا الإبداع المسرحي بعمل إبداعي آخر وهو مسرحية "مرض أو نساء معاصرات"

وذلك في عام 1987، تلك التي جاءت بمثابة محاولة ألفريدية لفحص العلاقة بين الرجل والمرأة، حيث تتحدث فيها عن نساء مصاصات دماء لا يعشن إلا على دماء الآخرين، وهؤلاء الآخرون ليسوا إلا رجالًا أطباء، وتحديدًا أطباء نساء يمسكون باللغة والمعرفة والسلطة، وترسم الكاتبة في هذه المسرحية صورة عن المجتمع المعاصر الذي يدمر نفسه.

و"مطعم طريق" مسرحية قدمتها الكاتبة عام 1992، وتتحدث عن عدد من الأزواج الذين يجدون أنفسهم مجتمعين في هذا المطعم، ويتصرفون كما يحلو لهم، فيتمتعون بكل شيء من دون أي مشكلة في هدوء، لا شيء يدل علي شيء ذي أهمية، إنهم يموتون لا حراك بينهم ولا شيء يدل على الحياة.

وتتحدث "ألفريدي" عن تجربتها المسرحية فتقول: "أرغب في مسرح آخر، أريد أن أبتعد عن المسرح الذي طردني حتى الآن لأرى إن كان سيتبعني بدءًا من هذه اللحظة"، هكذا جاء تعليق "ألفريدي" عن أعمالها المسرحية التي أجمع النقاد على عبقريتها وتفردها.

إنها تسعى دائمًا في مسرحياتها وتبحث عن رؤية مسرحية ترتكز على الرفض، فابتعدت بشكل جذري عن المسرح التعبيري وعن مسرح الحقيقة، حيث تجد نصوصها تتجسد بالحوار، ومن ثم استطاعت أن تؤسس تمايزًا واضحًا بين الجسد والصورة واللغة والتمثيل، كي تعطي للمتفرج أرضًا من الحرية، لتوقظ قدرته على المشاركة في العمل المسرحي، لأنه ليس على

المتفرج أن يجد على الخشبة ما يسمعه، وربما جسدت كل هذه المعاني والأمنيات في مسرحيتها الشهيرة "الرغبة ورخصة القيادة."

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م .
2) عبدالله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م
3) لؤي المدهون: ألفريدي يلينيك، إنها الهواجس فسحة الإبداع الوحيدة، مجلة فكر وفن، ع 80، السنة الثالثة والأربعون 2004، معهد غوتة.
4) محاضرات الفائزين بجائزة نوبل للآداب (2000–2010) ترجمة: عبد الودود العمراني، مراجعة: وفاء التومي، الدار العربية للعلوم ناشرون، وزارة الثقافة والفنون قطر 2011

دوريس ليسينغ .. ابنة المتناقضات

الكاتبة والروائية البريطانية دوريس ليسينغ نالت جائزة نوبل للآداب عام 2007، قبل ستة أعوام من وفاتها، وتعدّ السيدة الحادية عشرة التي تفوز بهذه الجائزة في فئة الأدب والأكبر عمرًا في هذه الفئة. فقد ولدت في أكتوبر 1919 وتوفيت في 17 نوفمبر 2013م.

وكانت المعاناة واضحة طوال مسيرة حياتها، فكأن المعاناة هي النار التي تصهر المشاعر وتصقل المبدع، ليخرج في النهاية بإبداعه للقارئ في شكل قصة أو رواية أو شعر أو لوحة فنية.

من رحم المعاناة يأتي العظماء، فالمبدع الحقيقي هو الذي يستطيع أن يترجم أحاسيسه ومعاناته وآلامه وآماله من حالة غير ملموسة أو مشاهدة، ثم يحيلها إلى صورة ناطقة معبرة تدعو وبإلحاح شديد إلى الوقوف أمامها والتأمل فيها، والتفاعل مع رموزها وإيحاءاتها.

وانعكست المعاناة في حياة ليسينغ بشكل واضح من خلال التقلبات العنيفة في حياتها منذ طفولتها وحتى حصولها على الجائزة، فقد ولدت ليسينغ في مدينة كرمانشاه في بلاد فارس (إيران حالياً)، حيث عمل والدها موظفا في البنك الفارسي الملكي، وبعد ذلك انتقلت عائلتها إلى مستعمرة بريطانية في رودسيا الجنوبية (زيمبابوي حاليًا) في عام 1925م،

حيث امتلكت أسرتها مزرعة، إلا أنها لم تدر أرباحًا بعكس توقعات العائلة، وقد ارتادت ليسينغ مدرسة دومينيكان كوفينت الثانوية حتى بلغت الثالثة عشرة من العمر، حيث أكملت تعليمها بنفسها بعد ذلك.

ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، استقلت عن منزل أسرتها وعملت كممرضة لأنه كان عليها أن تنفق على نفسها، فاضطرت للعمل في هذه السن المبكرة، وبدأت منذ ذلك الوقت قراءاتها في مجالي السياسة وعلم الاجتماع، وكان ذلك أيضًا حين بدأت أول محاولاتها في الكتابة.

في عام 1937 انتقلت إلى مدينة سايسبوري، حيث اشتغلت كعاملة تليفونات بسيطة لتنفق على نفسها من راتب هذه الوظيفة، وهناك تزوجت للمرة الأولى، وكان ذلك من فرانك وسدوم، الذي أنجبت منه طفلين، قبل أن تنتهي تلك الزيجة عام 1943م وهي معاناة شخصية أخرى مرت بها في حياتها الحافلة بالصعاب.

انضمت بعد طلاقها إلى نادي كتب اليسار، وهو أحد نوادي الكتب الشيوعية في هذه الفترة التي كانت الأفكار الشيوعية فيها منتعشة، والذي تعرفت فيه على جوتفريد ليسينغ، والذي سرعان ما أصبح زوجها الثاني بمجرد التحاقها بالمجموعة، وأنجبت منه طفلًا واحدًا قبل أن تنتهي تلك الزيجة أيضًا، في عام 1949م.

بعد ذلك رحلت إلى العاصمة البريطانية لندن، ساعية وراء أحلامها الشيوعية ومشوارها الأدبي. وقد تركت طفليها من زواجها الأول

مع أبيهما في جنوب أفريقيا واصطحبت معها الابن الأصغر. علقت ليسينغ على ذلك فيما بعد بأن قالت إنها شعرت في ذلك الوقت بأنه لا خيار أمامها لكن ذلك جعلها تعيش دائمًا معاناة ذاتية، لأنها حرمت من أطفالها، كما قالت فيما بعد: "لطالما ظننت أن ما فعلته هو أمر في غاية الشجاعة. فلا شيء أكثر إملالًا لامرأة مثقفة من أن تقضي وقتها بلا نهاية مع أطفال صغار. فلقد شعرت أني لست أصلح الناس لتربيتهم، وأني لو كنت قد استمررت لانتهى بي الأمر كمدمنة للخمر أو كإنسانة محبطة مثلما حدث لأمي"

لكن في حقيقة الأمر لم تكن دوريس ليسينغ تعلم أن هذه المعاناة هي التي ستصنع منها في النهاية أديبة نوبل، ولذلك فحين نالت الجائزة وصفتها لجنة التحكيم السويدية بأنها "كاتبة أخضعت بشكوكها وحسها المتقد وقدرتها على الابتكار حضارة منقسمة للفحص والتمحيص"

لم تترك نوعًا أدبيًا إلا وطرقته لتخلف لنا ستين كتابًا في القصة القصيرة والرواية القصيرة والرواية والشعر والنقد والمسرح بل والأوبرا. اعتمدت كتبها غير القصصية على التزامها الجاد بالشؤون السياسية والاجتماعية، معبِّرة عن الصدام بين الثقافات والظلم الفادح الناجم عن التفرقة العرقية والصراع بين عناصر متضاربة داخل شخصية الفرد، والانقسام بين ضمير الفرد ومصلحة الجماعة.

كاتبة الخيال

يمكن القول أن ليسينغ هي الكاتبة البريطانية التي استفادت من كل ما مر بها في حياتها، في أن تكتسب المزيد من التنوع الثقافي والقدرة على الخيال الأدبي، وهو ما انعكس في أعمالها الأدبية بشكل واضح. فقد تميزت من بين أدباء عصرها بقدرتها على التخييل بشكل غير معتاد في الأدب الإنجليزي في منتصف القرن الماضي الذي تزامن مع صعود الأدب الواقعي المعبر عن الحروب والأزمات، فهذه القدرة الفائقة على التخييل هي التي انعكست في كتابة روايتها "شيكاستا" التي صدرت في عام 1979م، وهي الرواية الأولى التي كتبت ضمن خمسة أجزاء في سلسلة خيال علمي، والتي تحكي عن سقوط الجنة، ككوكب انفصل عن التأثيرات الحضارية التي جلبت السلام والازدهار والتنمية المتسارعة، في عالم تحول بفعل الحقد والحسد إلى دمار وحروب، وبرغم فزع النقاد من اتجاه ليسينغ الجديد، كانت هي غير محرجة ومعترفة بحبها لكلاسيكيات الخيال العلمي، وقائلة إن الخيال العلمي هو أفضل أنواع الخيال الاجتماعي.

وفي إطار أدب الخيال حولت دوريس روايات الخيال العلمي الذي نقلها إلى فانتازيا المجرات والأكوان المتخيلة والحضارات المستقبلية؛ فكانت خماسية "كانبوس (canopus in argos) " وفي جزئها الأول تتحدث عن التاريخ السري للأرض من وجهة نظر حضارة الكانبوس المتقدمة، والجزء الثاني يقدم سلسلة من التعاقبات والتفاعلات بين مناطق الحضارات المتباينة في درجة رقيها، والثالث يشبه الأول في سبره التاريخ السري

للأرض من وجهة نظر الكانبوس. أما الرابع فيحاول رصد سيرورة حضارة تواجه خطر التغيرات في النظام الكوني بين المجرات.

وفي الجزء الأخير تقدم شخصيات من شعب الكانبوس الذين يقطنون في كوكب أقل تطورًا، ويستكشفون مخاطر الخطابة عدت تلك الأجزاء ضمن نوعية من الرواية النفسية والصوفية، وتراها ليسينغ أفضل ما أنتجته من كتابات في تاريخ تجاوزت فيه رواياتها الخمسين، إضافة إلى مؤلفات أخرى بينها كتاب عن القطط التي رافقت رحلة حياتها.

وعلى الرغم من أنها اشتهرت كروائية، لكنها عرفت في نفس لوقت بأنها وجدت في كتاباتها المسرحية جرأة كبيرة في تحدي تقاليد المسرح الإنجليزي العتيدة، وبفضل هذه الجرأة المميزة لها في أعمالها المسرحية على وجه الخصوص، تمكنت دوريس ليسنج من فضح فساد العلاقات الاجتماعية الموجودة في النظام الطبقي الرأسمالي والمجتمعات العنصرية التي عاشت فيها لفترة غير قليلة من حياتها.

لكن الحقيقة أنه قد اختلف النقاد في طريقة استقبال روايات الخيال العلمي التي كتبتها، فهي نفسها تذكر في واحدة من مقابلاتها كيف انشق جمهورها في محاضرة عن تجربتها حول هذا اللون بين مؤيد ورافض. بيد أن الناقد الأمريكي هارولد بلوم، وجه لها أقسى ضروب الهجاء بسببها، فهو يقول ساخرًا:

"إن كان ثمة خطيئة بين خطايا كثيرة سيحاسب عليها القرن العشرون، فهو ما سببه من إحباط في عزيمة السيدة دوريس ليسينغ، فهي تروّج عبر رواياتها عن لا جدوى وجود الجنس البشري. وروايتها هذه ليست فقط مختلة ولا مجرد رواية فاشلة، فهي على نحو فعّال الأكثر فشلًا. فأعمالها خلال الخمس عشرة سنة لا تقرأ، لأنها لا ترقى إلى الدرجة الرابعة من روايات الخيال العلمي"

لكن حتى هذا الانتقاد اللاذع وغيره من صور الهجوم الذي تعرضت له لم يؤثر في مسيرتها الأدبية واستمرت تكتب حتى حصلت على جائزة نوبل.

مبدعة التنوع الثقافي

نتيجة للتنوع الحضاري الذي تعرضت إليه دوريس ليسينغ خلال فترة حياتها حيث تنقلت بين ثلاث قارات وعاشت ثقافات مختلفة، فقد تمكنت دوريس ليسينغ من استخدام هذا التنوع بفعالية في كتاباتها، والتي كانت تتحدث في الغالب عن المشاكل والأحداث في تلك الفترة الزمنية.

فحياتها حكاية من نوع خاص يمكن أن تتحول هي نفسها إلى رواية شيقة، فهي من بقايا زمن كولنيالي، جعلها تقضي طفولتها في زيمبابوي (روديسيا سابقا) التي استعمرها البيض وجعلوا من أهلها عبيدًا أصحاب الأرض الأصليين للرجل الأبيض المستعمر. فكانت رواياتها الأولى تدور حول المكان الأفريقي وعلاقة المستعمرين بأهل الأرض، فمن خلال رواية

"العشب يغني" عام 1995م التي تسجل كرواية أولى لها، تدور حول علاقة بين زوجة مزارع أبيض وعبدها الأسود، وكيف سارت هذه العلاقة. في هذه الرواية تتناول الكاتبة السياسات العنصرية بين البيض والسود فى إحدى المستعمرات البريطانية وتدور أحداثها إبان الحرب العالمية الثانية، في ذلك الوقت بدأت ترتفع فيه الأصوات مدافعة عن الكرامة الإنسانية ومطالبة بإلغاء التمييز العنصري. لذلك نجحت الرواية فور صدورها نجاحًا مدويًا، وعنوانها مأخوذ من أحد أبيات الشاعر الأمريكي ت. س. إليوت من قصيدته "الأرض الخراب"، حيث يواصل النماء غناءه رغم قدرة الإنسان على إحداث الدمار والخراب والقتل بكل أنواعه. دوريس ليسينغ تتساءل بدورها، أما كان للبيض أن يكفوا عن غرورهم ويقيموا علاقات طيبة مع أهالي البلد الزنوج لكي تزدهر المزرعة ويغنى العشب.

كتبت دوريس ليسينغ هذه الرواية مع استئنافها الكتابة في روايات أخرى "مارتا كويست" عام 1952، "الزواج النظامي" عام 1954، ضمن مسلسل أسمته "أطفال العنف".. كان ذلك زمنها الأفريقي الذي بدأت فيه حياة عسيرة على فتاة بيضاء تهرب من المدرسة في سن الثالثة عشرة، وتغادر البيت في سن السادسة عشرة، كل تلك الأحداث تسجلها في رواياتها وفي سيرتها التي أثارت ضجة في بريطانيا عند صدورها عام 1994م بعنوان "تحت جلدي"، والكتاب الثاني بمجلدين "السير في الظل" عام 1997م. وكانت قد دونت الأحداث المتخيلة سرديًا في واحدة من أكثر رواياتها شيوعًا "الدفتر الذهبي" عام 1962 الذي قسمت فيه زمنها إلى

دفاتر، كل دفتر يرمز لونه إلى مرحلة من عمرها وتجاربها، بانتظار الدفتر الذهبي الذي تفوز فيه بثمرة الحياة الناضجة.

كان من الممكن أن تبقى ليسينغ في أفريقيا كاتبة مغمورة، لولا عبورها البحر إلى بلدها الأصلي بريطانيا الذي انشطرت فيه حياتها بين الالتزام السياسي، في انتمائها إلى الحزب الشيوعي، وبين انشقاقها عنها وتمتعها بحرية الضياع في سوهو وأماكن الهيبز وجيل الستينات المتمرد الذي عاش الثورة الجنسية وتعاطى الهيروين.. كان رهانها الأول الكتابة، التي لم تمنعها كل الظروف من مغادرة طاولتها، وإصدار الروايات المتلاحقة. فهي ترى في السرد القصصي مجالًا للتعبير لا تضارعه الأنواع الأدبية الأخرى. الرواية: فضاء حر وسيرة ومتخيل وواقعي وأفكار وفلسفات وأحاسيس، كما تقول.

ويلاحظ فيما كتبته متأثرة بحياتها في أفريقيا أنها تعلن عن رفضها الحاسم لسياسة التمييز العرقي وهي السياسة التي طبقها أقرانها البيض ضد السكان الأفارقة في هذا البلد، وهي الموقف الذي دفعت دوريس ليسينغ ثمنه بأنه تم منعها من دخول روديسيا وجنوب أفريقيا باعتبارها شخصًا غير مرغوب فيه، كما نص القرار الرسمي الصادر في حقها في ذلك الوقت.

الدفاع عن المرأة

تصدت ليسينغ للدفاع عن حقوق وقضايا المرأة بأسلوب مختلف للدفاع عن النساء من بني جنسها، وعُدَت حينها من تيار (النسوية الشعبية)

بسبب تكوين دوريس ليسينغ وفكر دوريس ليسينغ الماركسي الذي يرى أن التمييز الجنسي بين النساء والرجال ليس هو المنبع الأول للإذلال والقهر، بل إن الكفاح من أجل المساواة لابد أن يترافق مع النضال ضد الفقر والتهميش والعنصرية، بمعنى أن موضوع القهر الذي تتعرض له النساء مرتبط على نحو جذري بقضية القيم الفوقية والتقاليد الجائرة والفقر والاستغلال والعنصرية، سواء كانت نازية أو فاشية أو دينية أو جنسية.

وعندما أشارت الدراسات النقدية النسوية لاحقًا إلى ليسينغ باعتبارها من (النسويات) أنكرت دوريس ليسينغ ذلك، بل وامتعضت من توصيفها بالكاتبة النسوية فهي لا تعادي الرجال، ولا تطلق عليهم الأوصاف المشينة كالنسويات المتعصبات الليبراليات اللائي يعملن في مجال التصارع بين ثقافة ذكورية مهيمنة، وأخرى نسوية خاضعة فيؤججن الحروب بين الرجال والنساء، ولا ننس المقالات النارية التي هاجمت فيها النسويات الأمريكيات الكاتب المناهض للنسوية وحركات تحرر المرأة (نورمان ميلر) الذي كتب مقالات قاسية عن النساء والنزعة النسوية.

ويعتبر البعض روايتها "المفكرة الذهبية" رواية نسوية كلاسيكية، وهو الوصف الذي رفضته ليسينغ، لكن النقاد اعتبروا أن السرد الذي تكتبه دوريس ليسينغ "غير أنثوي" في تصوير الغضب والعدوان الأنثوي، ولأن دوريس ليسينغ كانت تتسم دومًا بشجاعة الرد، أفحمتهم قائلة، "البادي أن ما تفكر فيه العديد من النساء ويشعرن به ويكابدنه بث عظيم الدهشة في نفوس الكثيرين". كما استنكر أحد النقاد أن آنا ولف، بطلة

الرواية، تحاول أن تعيش بحرية رجل، لكن دوريس ليسينغ من جهتها اعتقدت أن تلك المواقف في كتابات الرجل مُسَلم بها، مقبولة كأسس فلسفية سليمة، طبيعية تمامًا، وليست بالقطع مواقف كارهة للمرأة أو عدوانية أو عصابية.

وفي الوقت ذاته لم تسلم دوريس من نقد الأكاديميين من دعاة المساواة. الحق أن دوريس ليسينغ لم تكون نسوية كما كانت الكلمة تعني وقتذاك. لا ريب أن "المفكرة الذهبية" كانت بمثابة إنجيلاً نسويًا رائدًا غير أن دوريس ليسينغ رفضت مبدأ المساواة بين الجنسين، مؤكدة أنها ليست من مؤيدي هذه المساواة، ولم تكن من مؤيديها في يوم من الأيام. وقد عبَّرت دوريس ليسينغ عدة مرات عن عدم قبولها للحركات النسوية، "تلك النساء اللاتي أصبحن مريعات مع رجالهن". وفي مناسبات عدة ناقشت ما يعانيه الرجل في أوروبا من تهميش النساء له.

لكن في كل الأحول فقد عملت على إيجاد منطقة وسطى معتدلة للفكر النسوي تتقبل النقاش مع الرجال ولا تصدر أحكامًا جائرة، ووصفت النسويات الراديكاليات بالتعصب المفرط وقالت إنهن (نساء لا يعرفن التمتع بعلاقة مع الرجال) وهي التي عرفت بمناهضتها للعنف الاستعماري والتفرقة العنصرية وتهميش البشر في جنوب أفريقيا وخير مثال رواياتها الأهم (العشب يغني) و(المفكرة الذهبية) التي تكشف عن مواقفها الحرة في الحب والسياسة والتأثير في نساء العالم رغم رفضها فكرة النسوية.

ومن مؤلفات دوريس ليسينغ في حقل الإصدارات الروائية : "العشب يغني" عام 1950، "خمس: روايات قصيرة" عام 1953، "زواج ملائم" عام 1954، "مارثا كويست" عام 1952، "مويجة من العاصفة" عام 1958، "محاط بالأرض" عام 1965 و"مدينة بأربع بوابات" عام 1969.

أما بالنسبة للمجموعات القصصية فمن أعمالها: "كان هذا بلد الزعيم العجوز" عام 1951، "عادة الحب" عام 1957، "رجل وامرأتان" عام 1963، "قصص أفريقية" عام 1964، شتاء في يوليو" عام 1966، "القطط بالأخص" عام 1967، "قصة رجل لا يتزوج "عام 1972، "لندن تحت الملاحظة" عام 1992، "جواسيس عرفتُهم" عام 1995.

أما روايات الخيال العلمي التي قدمتها دوريس ليسينغ فصدر لها: "اجتماع للهبوط إلى الجحيم" (1971) و"مذكرات ناجية" (1974) و"سلسلة سهيل في آرجوس: سجلات" (1983-1979)، "الصيف الذي سبق الظلام" (1973) "مذكرات ناجية من الموت" عام 1974، "رد: كوكب مستعمَر 5، شيكاستا" عام 1979، "زواج المناطق ثلاثة وأربعة وخمسة" عام 1980، "التجارب السيريانية" عام 1980، "تعيين ممثل للكوكب 8" عام 1982، "العملاء العاطفيون في إمبراطورية فوليان" عام 1983، "مذكرات جارة طيبة" عام 1983 تحت اسم مستعار هو جين سامرز، "إن استطاع الكبار" عام 1984 تحت اسم مستعار هو جين سامرز، "الإرهابي الطيب" عام 1985 رواية" الطفل الخامس" عام 1988 رواية "لعب اللعبة" عام 1995، "الحب مرة أخرى" عام 1996. رواية "مارا ودان: مغامرة في يناير"

من عام 1999. رواية " بن، في العالم" عام 2000، رواية "أحلى حلم" عام 2001، "قصة الجنرال دان وابنة مارا، جيريو وكلب الثلج" عام 2000، "الشق" عام 2007 روايتها الأخيرة "ألفريد وإيميلي" عام 2008.

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.
2) مجموعة مؤلفين: مدخل إلى دوريس ليسنج، أزمة للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
3) مجموعة من المؤلفين: أفضل القصص القصيرة في القرن العشرين، تحرير: جون أبدايك وكاترينا كنيسون، ترجمة: فؤاد سروجي، نسخة إلكترونية بدون تاريخ نشر .
4) محاضرات الفائزين بجائزة نوبل للآداب (2000– 2010) ترجمة: عبد الودود العمراني، مراجعة: وفاء التومي، الدار العربية للعلوم ناشرون، وزارة الثقافة والفنون قطر 2011
5) عبد الله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م

هيرتا مولر.. المعاناة تصنع الأدب

بعد أن دفع القمع والاضطهاد هيرتا مولر للهروب من رومانيا إلى ألمانيا وجدت نفسها بين هويتين، فتمردت على هويتها الرومانية وشرعت في استرداد هويتها الألمانية. لكنها لم تتخلَّ عن معركتها ضد الديكتاتورية في بلادها، ولا عن ارتباطها بالتراث الروماني.

ربما لم تتجسد ربما سيرة حياة كاتب في أعماله بهذا المقدار من الثراء والزخم، مثلما هي الحال بالنسبة الروائية الالمانية هيرتا مولر التي ولدت في 17 أغسطس 1953م في قرية نيتسكيدورف غرب رومانيا، لوالدين من الأقلية الألمانية. بعد الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) تعرضت هذه الأقلية لأبشع أنواع القهر والتعسف، وذهبت ضحية تصفية الحسابات مع ألمانيا النازية.

لكن الديكتاتورية الرومانية اعتبرت هذه الأقلية الألمانية مسؤولة عن فظائع النازية، فأنزلت بها عقوبات من دون تفرقة بين مدنيين ومحاربين، وتعرضت لتصفيات رهيبة. ولعل القرار الروماني الأقسى بحق هذه الأقلية، الذي صدر عام 1945 والذي قضى بالقبض على كل الألمان بين سن 17 و45 وترحيلهم قسرًا إلى روسيا للعمل الشاق سنوات طويلة في ظروف قاتلة. كان من بين هؤلاء والدة هيرتا مولر التي قضت ست سنوات هناك.

عرفت هيرتا، لاحقًا، أن أمها أسمتها هيرتا، تيمنًا باسم زميلة لها ماتت، مثل أعداد لا تحصى من ألمان رومانيا، في معسكر الأشغال الشاقة في أوكرانيا.

وعلى الرغم من محاولة السلطات الروسية والأوكرانية والرومانية مسح آثار الجرائم الإنسانية وإزالة آثار المقابر الجماعية، الشاهد على الوصمة. لكن مولر صممت على التحدي، ونقلت تفاصيل ذلك الجحيم في روايتها «أرجوحة النفس» لتكون المعاناة الرهيبة التي عانت منها مولر في سنوات التكوين من حياتها هي النار التي سبكت موهبة مولر لتخرج هذه الموهبة في أعمال أدبية شغلت العالم.

هذه الخلفية تشكل مفتاحًا لفهم أعمال مولر التي ظهرت موهبتها باكرًا في قريتها، فأوصى معلم بإرسالها إلى مدرسة مدينة تيميسفار، حاضرة إقليم بانات. أتمت هناك الثانوية، ثم درست الأدب الألماني والروماني. عينت مترجمة في مصنع جرارات زراعية.

لكن جهاز البوليس السري الروماني راح يتعقبها قاصدًا تجنيدها، وهي تتهرب تارة وتتحايل أخرى، إلى أن رفضت صراحة التجسس لحسابه، فطردت من العمل عام 1979 وظل رجال البوليس يستدعونها ويبتزونها، ومنعت الرقابة كتبها، فقررت في هذه الظروف الخانقة، أن تهرب إلى ألمانيا التي وصلتها نهاية الثمانينات لتشق طريقها في عالم الأدب، وتواصل كفاحها ضد الديكتاتورية بعد أن مرت بكل هذه الصنوف من المعاناة.

ومن الأعمال الأدبية التي عكست معاناتها رواية "جواز السفر" التي نشرت عام 1986 في ألمانيا، وترجمت في عام 1989، و"الموعد" التي نشرت عام 2001، وتصف القلق الذي تعيشه امرأة بعد أن استدعتها مديرية أمن الدولة في رومانيا تحت حكم الديكتاتور الروماني السابق تشاوشيسكو، حيث كتبت مولر عنه بأنه "محدث نعمة يستخدم الصنابير وأدوات الطعام المصنوعة من الذهب، كما أن لديه ضعفًا خاصا تجاه القصور"

كما عبرت هيرتا مولر عن هذه المعاناة التي انطبعت في ذاكرتها بصور متنوعة من المعاناة والظلم والاضطهاد الذي عاشته كألمانية ولدت وعاشت في رومانيا تشاوشيسكو، تحت وطأة اضطهاد مضاعف عبرت عنه في مجموعتها "إسقاطات"، بسرد ذاكرتها الطفلية بلغةٍ مغرقةٍ بكوابيس ماضٍ هجرته إلى ألمانيا. إنها تداعيات طفلةٍ هربت ولم تنجُ في حقيقة الأمر لكن هذه المعاناة استمرت معها على الدوام عبر صفحات كل أعمالها الأدبية.

تقول هيرتا مولر عن انطباعات هذه الفترة من حياتها في رومانيا وما تركته من أثر نفسي على حياتها وبدايات أعمالها الأدبية المبكرة:

"لقد ولدت في رومانيا، كَبرت هناك، وعِشتُ هناك حتى الثانية والثلاثين من عمري، حين تَركتُها وأنا في حالة ذهنية مُعقّدة، كَتبت كتابي الأول "سهول" في رومانيا، والذي يدور حول وجهةِ نظرِ طفلٍ ألماني بمنطقة "أنات" (منطقة في غربِ رومانيا)، في ذلك الكتاب وفي كُتبي الأخرى، كان الموضوع المركزي هو الديكتاتورية، لسببٍ بسيط هو أنني لم أعَرف أو أر

شيئا غيرَ ذلك، واستمرت كتاباتي حول ذاتِ الموضوع، هذا النوع مِنْ الأدب يوجدُ في كافةِ أنحاء العالم، أدبٌ يعتمدُ السيرةَ الذاتية، حيث تتقاطعُ فيه أحداث مُتطرّفة مع حياة المؤلفين، على سبيل المثال في الخمسينيات، الجولاج2 كَانت موجودة في أوروبا الشرقية في بَعْض صورها، وقبل ذلك عاصرنا النزعة الوطنية الاشتراكية، عصر هتلر، والدمار الذي اجتاح العالم بسبب الظلم والقمع والاضطهاد"

وتستدعي هيرتا مشاهد من المعاناة التي عاشتها طوال حياتها ومنذ طفولتها المبكرة فتقول:

"ولدت في عام 1952أَتذكّرُ أنّ جَدِّي كان من ذوي الأملاك، وكان أيضًا يُتاجرُ في الحبوب، كَان غنيًا جدًا، لكنه لم يُولد ثريًا؛ فهو يتذكر قلقَ أبويهِ حول أطفالهم.. "ماذا نَعمل إذا ما رُزقنا بالمزيدِ من الأطفال؟..كيف نُغّذيهم؟..".. جدي لم يُولد غنيًا، وإنما عملَ بكدٍ ونجاح. لقد وُلِدَ فلاحًا.. وعاش فلاحًا، أجدادي لم يُغيّروا أُسلوبَهم، لم يتمتعوا بأجازاتٍ أو بالسفر، إذا توفرَ لديهم المال.. كانوا يشترون المزيدَ من الأراضي"

وتضيف: "كانت جدتي تَعْملُ مِنْ الفجر حتى الغسقِ.. أحيانًا كانت تعجزُ حتى عن النهوض.. لو توفر لهم بعض المال كانوا يشترون بعض الأراضي.. كانوا يفعلون ما يجبُ عليهم فعله... ولكن، بعد عام 1945، كُلّ شيء اختفى، أُنتزعت منهم الأرض، وتحولت إلى مزارع جماعية.. وأُبعدتْ أمّي إلى الاتحاد السوفييتي، قضت خمس سَنَواتٍ من

عمرها في معسكرات العمل، كانت تدفعُ ثمن "العقوبات الجماعية" تكفيرًا عن أعمالِ هتلر، أطلقوا على المعتقل اسم "معسكرات إعادة البناء"، لم يتمكن جَدّي من استيعاب تلك التغييرات، أصبح بعد ذلك رجلًا فقيرًا، لا يَستطيع الذهابَ إلى الحلاق ثلاث مرات أسبوعيا مثلما كان يفعلُ في الماضي، أُجبر على التخلي عن طقوسٍ اعتادها، ما حدث بالنسبة له كان مُهينًا اجتماعيًا، جَدّي وذاك الجيلِ الكاملِ من الأجداد، أصبحوا منبُوذين بالنسبة للنظامِ الجديد، هم لم يَقبلوا الاشتراكية أبدًا، في عام **1950** عادتْ أُمّي من الاتحاد السوفياتي، بعد قضاءِ خمسِ سَنَوات في معسكراتِ العمل، شاهدت خلالها الموتَ والمجاعة، حيث أرسلت أمي لمنطقةَ "يكاترينبيرغ" كانت في موقع للبناء، بالقرب من مناجم الفحم، كان الموقع مثل معسكرات الجيش يخضع للسيطرة التامة، عاشوا في ضيق وجوع.. جوعٍ دائم.. وأغلبُ السجناءِ هناك ماتوا من الجوعِ"

وتضيف: "كَان عمر أمي في هذا الوقت سبعة عشر عامًا عندما أَخذوها، في البداية جربت الاختباء، لكن في القرية حيث يعرف الناس بعضهم بشكل جيد لم يكن ذلك مُمكنًا، فقد هدّدوا جَدي بأنّ لَمْ يُقْنعا أمي بتسليم نفسها، فسيأخذُونَهما بدلا منها، عَلِمت أُمّي بذلك، وقررت تسليمَ نفسِها"

وعن تأثير هذه الوقائع على طفولة وتكوين هيرتا مولر تقول:

"أحداث تلك السنوات اخترقت طفولتي، ولَيست طفولتي لوحدي، فقد حدثت أشياء مُماثلة للعديدِ مِنْ العائلات في قريتنا، ولكامل

الجالية الألمانية في رومانيا، عندما تكون طفلًا فأنت لا تفكر بمفردات سياسية... لا تملك المقدرة، لا تملك الكلمات لتعي ما يجري حولك، لكن هناك طُرق للتسجيل غير الكلمات، فسُلوكنا أكثر تعقيدًا، إنه يَتجاوز الكلمات، لذا فقد امتصصت الكثير من الأحداث، وعشت التوترَ الذي كان حولي، شَعرتُ بأنّ شيئًا ما بالرغم من أنّني لَمْ أَعْرفهُ تحديدًا، كان شنيعًا وعدائيًا.. بين المدينة والقرية"

في كل كتاباتها تتحدث عن طبيعة الحياة التي عاشتها في رومانيا، وعن أسلافها الذين عانوا القهر والحرمان والنفي، وعن ازدواجية الهوية المتأرجحة بين الألمانية والرومانية.

وحتى في ألمانيا لم تنته المعاناة التي مرت مولر بمجرد أن انتقلت إلى ألمانيا، بل استمرت هذه المعاناة بشكل من الأشكال، وتقول عن الفترة الأولى لوجودها في ألمانيا:

"بطريقة ما أدركت أنّ كل تعليمِي السابقِ الانعزالي، لَمْ يَعُد صالحًا بي، لم يَعُد يتماشى مع حياتي الجديدة، اكتشفتُ أن مسافة 30 كيلومترًا فقط كانت كافية ليدركَ المرءُ أن ما يقبلهُ كحقيقةٍ مُطلقة في قريته، لا قيمة له في المدينة، لذا كان لا بُدَّ لي من أنْ أَبْدأَ بتَعليمِ نفسي وفي اتجاهٍ جديدٍ جدًا"

وقد وجدت في ألمانيا ساحة ثقافية مواتية تتقبل فتح ملفات مؤجلة عن فظائع الطغاة القدامى والجدد في أنحاء العالم وهو ما قامت به

مولر عبر قصصها ورواياتها، ومنها «منخفضات»، «الترحال على ساق واحدة»، «الشيطان منعكسًا في المرآة»، «الثعلب كان، آنذاك، هو الصياد»، «البطاطا الساخنة هي السرير الدافئ»، «الجوع والحرير (مقالات)»، «الموعد»، "الرجال الشاحبون وفناجين القهوة".

السرد من أجل الحرية

لم تبتعد الكاتبة أبدًا في كل أعمالها عن الفكرة الأساسية التي لم تتوقف عن الكتابة حولها، وهي مقاومة الظلم والطغيان والديكتاتورية، ففي رواية «ليتني لم أقابل نفسي اليوم»، تصر مولر على فكرتها المفضلة، أي على مقارعة الديكتاتورية، وما يتفرع من هذه المفردة من مواضيع مرتبطة بها، كالخوف والقهر والاستبداد والتسلط والقلق والصمت والخيبة والمكابدة.. ذلك أن الأنظمة المستبدة تحصي على المرء أنفاسه، فيكاد يتحول الإنسان إلى مجرد كائن مهمش، يؤثر الصمت ويعيش في عزلة أشبه بالموت، أو يجهر بمكنونات نفسه في جرأة تقوده إلى السجون والمعتقلات، فكانت مولر تسرد دائمًا من أجل الحرية.

منذ البدء نشعر بهذا الهاجس القلق لدى بطلة الرواية، وكانت مولر تكتب عن نفسها في حقيقة الأمر، فالبطلة هي امرأة في مقتبل العمر مطلوبة للمثول، مرارًا وتكرارًا، في ساعة محددة أمام ضابط الأمن، يحقق معها بلا نهاية. وها هي بطلة مولر في الرواية تتكلم بضمير المتكلم وكأن مولر تتحدث عن نفسها، تنقل هذا الشعور الضاغط في المقطع الأول، إذ تفتتح الرواية على هذا النحو:

«أنا مطلوبة للحضور، يوم الخميس في تمام الساعة العاشرة. أصبحت أطلب للحضور على نحو متزايد ظل يتزايد على الدوام: يوم الثلاثاء في تمام الساعة العاشرة، يوم السبت في تمام الساعة العاشرة، يوم الأربعاء أو يوم الإثنين، كأنما كانت السنوات أسبوعًا، ودهشت فعلًا لأن الصيف المتأخر يقترب من نهايته ويوشك الشتاء أن يعود«

الأيام تمضي والفصول تتعاقب، والبطلة مضطرة للمثول، على الدوام، أمام الضابط «ألبو» والإجابة على أسئلته التي لا تنتهي. هذا التكرار للذهاب إلى مركز التحقيق، يفتح أمام البطلة آفاقًا أمام تداعي الأفكار وتدفق تيار الوعي، فنذهب معها إلى حكايات الماضي والحاضر. تتحدث بلا ملل عن الذكريات والصداقات والأزمنة المنقضية. عن هواجس امرأة ومشاهداتها. عن كل تفصيل صغير يصادفها في الطريق، وعن كل شيء يقع تحت بصرها. كل موقف يقود إلى موقف آخر. وما إن تخوض حديثًا حتى تنتقل إلى آخر، وهي لا تتردد في البوح بكل ما يخطر في ذهنها، والاعتراف بمواقف وحالات مختلفة مرت بها. لكنها تعود دائمًا إلى نقطة البداية، إلى موضوع التحقيق الذي يمثل ذريعة لفتح جميع الملفات المتعلقة بحياة امرأة تتأهب يوميًا للتحقيق.

واللافت أنها صافية الذهن، وهي تسير نحو مقر التحقيق، بل إنها تلجأ أحيانًا إلى سرد شاعري، كما في حالة وصفها الطبيعة من حولها، إذ تقول: «في الطريق إلى الترام تعود شجيرات الخميلة عليها التوت البري الأبيض يتدلى مجددًا من خلال الأسيجة، تشبه أزرارًا من الصدف خيطت

متجهة إلى أسفل وكادت تنفذ في التربة، أو تشبه كريات من الخبز. وثمار التوت البري أصغر بكثير من أن تقارن برؤوس عصافير بيضاء لفت مناقيرها إلى وراء، ولكنني لابد من أن أفكر في رؤوس عصافير بيضاء. إنها تحدث بي دوارًا، الأفضل أن أفكر في ندف من الثلج في النجيل، ولكنها تسبب الضياع والسبات«

وإلى جانب هذا المنحى الشاعري، سنجد البطلة وهي تتحدث عن النوافل والبديهيات، إذ تروي كيف أن ذبابة دخلت عينها، وكيف ذهبت إلى محل للعدسات اللاصقة، وكيف يأكل سائق الترام فطوره. وهي لا تكف عن وصف ما تراه من أشخاص يصعدون ويهبطون من الترام فهذا شاب حيوي وذاك شيخ متعب، وتلك امرأة حزينة، وذلك طفل شقي.. ولأن شريط الذكريات يتواصل بلا توقف، فإن البطلة ستعود إلى ماضي أسلافها لتتحدث عن أمها وأبيها وعن أجدادها، وكيف قضوا حياتهم بمشقة في تلك القرى والمنخفضات والتلال. ستتحدث عن زواجها الأول وعن زوجها الحالي باول، وعن أهله وطبيعة حياتهم، بل إن موقفًا عابرًا مع إسكافي مجهول سيتحول إلى قصة إنسانية مؤثرة. هذا الاسترسال المحموم يقودها إلى الحديث عن الأزياء والمصانع والشوارع والبيوت والدروب المقفرة وصولًا إلى فنون الرقص. حين يخاطبها أحدهم، بأنها لا تتقن الرقص لأن أسرتها كانت متهاونة في تعليمها.

ترد البطلة إجابة موحية: «كانت أسرتي حزينة أكثر منها متهاونة، بعد المعتقل لم يعد أحد في بيتنا يبتهج إلى هذا الحد». ولن تنسى بطلة

مولر بالطبع إدانة شرور النظام الشيوعي الذي سلب الملاكين أرضهم وممتلكاتهم بحجج سرعان ما اتضحت أنها مزيفة.

ورغم أن الرواية تتناول هموم البطلة ومكابداتها، بيد أن المواضيع تتشعب على لسانها هي بالذات. تسير الرواية ضمن دوائر زمنية مغلقة، إذ يختلط الزمان والمكان وتشتبك المشاهدات والملاحظات والمواقف التي تستحضر أفرادًا مختلفين يعيشون ضمن بيئة اجتماعية مضطربة، مقهورة ما إن تتضح معالمها حتى يكتنفها الغموض من جديد. ويمتزج السرد مع الحوار والوصف الذي يأتي على نحو غير مألوف، كذلك إذ تكتب مثلًا

«سكنت بالإيجار عند رجل نحيل دائم الابتسام. تلوح ابتسامته كأنها تجعيدة من تجاعيد وجهه، وليست تعبيرًا. له من الخلف كتفان محدبتان، ومن الأمام عظام ترقوة مقوسة كالقبّة، كأنما كان الذي أراه عندما يأتي ليحصّل الإيجار، قفص طائر يقف ببابي. كان جلده شفافًا يوشك أن يتمزق من احتكاك العظام. يتحدث بصوت كالزقزقة الواهنة».

تعكس مولر في كتابتها حياة المحرومين «بتركيز لغة الشعر وصدق ووضوح لغة النثر»، كما في هذه الرواية التي تتسم بسمات الرواية البوليسية التي تفترض قضية غامضة، في البداية، ثم تتكشف الخيوط تدريجيًا وصولًا إلى النهاية وإجلاء الملابسات.

عبارات بسيطة وعملية وقدمتها في عناوين بعض الروايات مثل: "قلب الحيوان" عام 1994 و"أرجوحة النفس" عام 2009، أصدرت

مؤخرا ديوانا بعنوان "بي يُهاتف الذباب" وهو عبارة عن قصائد شعرية معتمدة على فن 'الكولاج" وقد اختارت فيه الكلمات بتمعن شديد ودقة متناهية.

وفي عناوين صادمة وغير مفهومة تكتب هيرتا مولر أعمالًا أخرى بعناوين مثل: "الثعلب هو قبل ذلك صياد"، "الإنسان، أكبر نصاب على وجه الأرض"، "الدعوة" ففي مثل هذه الأعمال تعبر هيرتا مولر من خلال جمل طويلة ومفصلة أكثر من المتوقع، حيث يكتسي الوصف الغارق في النثرية مسالك عجيبة تأخذ كل انتباه القارئ.

أدب المقاومة

في كل أعمال هيرتا مولر لا توجد أي مساحات لغير مقاومة الظلم والديكتاتورية، فلا حب ولا مشاعر عاطفية، بل حزنٌ غيرُ مدرَكٍ لشخصياتها، وسرد فقط من أجل الحرية ولأناس عانوا من الظلم والطغيان، وقد استقت هيرتا من سيرتها الذاتية ما مكنها من تشكيل مادة خام لصياغة أعمالها الأدبية، كالتذكير بديكتاتورية تشاوسيسكو في رومانيا، وبصعوبة التأقلم مع الحياة في الغرب، وتبث أعمالها تجارب تاريخية للأقلية الألمانية في منطقة أوروبية، أي رومانيا، بقيت حتى اليوم على الهامش

ومع تمسك الكاتبة بفكرة المقاومة تشدُّ قبضةَ لغتِها القاسيةِ على قارئها، لتسيّرَهُ دون قرارٍ مسبقٍ نحو خلاصٍ غيرِ يقينيّ الحدوث حتى الصفحة الأخيرة، مغطيةً مساحة قريتها بمشهديةٍ صامتة، حيث كلّ كلمةٍ

في كل عمل أدبي لها يؤكد على فكرة المقاومة، ومن بين أشهر رواياتها في هذا الاتجاه رواية "جواز السفر" التي نشرت عام 1986 في ألمانيا وترجمت في عام 1989، و"الموعد" التي نشرت عام 2001 وتصف القلق الذي تعيشه امرأة بعد أن استدعتها مديرية أمن الدولة.

أما في روايتها "أنا لا أُريد اجتماع اليوم" تسرد ما يمكن لقطات من حياتها الشخصية تحت مطرقة القمع والاضطهاد والضغوط الأمنية، وهي تعترف بكل ذلك في حوار معها سردت فيه ما حدث لها شخصيًا وعكسته في سرد أدبي على لسان شخوص أعمالها الأدبية.

تقول هيرتا مولر: "جاءَ أُناسٌ من "سيكيوريتات" (جهاز الأمن السري في رومانيا) وأخبروني بأنه عند قدومِ الضيوف مِنْ ألمانيا على سبيل المثال، يجب أن أكتب للشرطة السرية عن انطباعاتي عنهم، كما أرادوني أَنْ أَكْتبَ عن كل ما يقولُه زملائَي الرومانيون للضيوفِ الألمان. لَمْ يُمانعوا في خروجي مع الضيوف الأجانب، ولكني حرصت على إخبارهم بأنني لستُ بمومس، كما أخبرتهم أنني لا أجيدُ مراقبةَ الناس، وأن انطباعاتي عادةً ما تكون سيئة، ولكن رجل "السيكيوريتات" لم يهتم، طلبَ مني أن أكتبَ عن استعدادي للتعاون معهم، ولكنني رفضتُ التعاونَ معهُ بشكلٍ قطعي، ثم صفعَ البابَ بقوةٍ، وقالَ "سأوقعكِ في المشاكل".. "سأرميكِ في الماء"، وهذا يعني باللهجة العامية الرومانية الغرق في المتاعب، وهكذا لم أعد أنعمُ بالسلام لعِدّة أسابيع، وفي تمام السابعةِ والنصف من كل صباح، كنت استدعى إلى مكتب رئيسي لمناقشةِ المسألةِ معه، ومع مُمثل الحزب،

وسكرتير الشباب الشيوعي، كل مرة كانوا يَحثونني على الاستقالة، والبَحْث عن عملٍ آخر، لَكنني أخبرتُهم أنني قد أحببتُ العملَ في المصنع كثيرًا، ولا أُفكّرُ بالبَحْثِ عن مكانٍ آخر، أخبرتُهم أنْ يَطْردوني إن أرادوا حقًّا التَخَلُّص مني، وطَلبت منهم تحديد السبب في رسالة الطرد، ذهبتُ للحديثِ مع نقابة العمال، ولكن رئيسَها رفضَ حتى الاستماعَ لي. ما حَدث آنذاك كَانَ كوميديا سوداء، يُمْكِنُني أَنْ أضحك مِنْها الآن، لكن في ذلك الوقت، أشرفتُ على الانهيار العصبي، عَرضوا عليّ العمل كعاملٍ عادي لَكنّي رَفضت، ثمّ طَردوني، تُركتُ دون مصدرٍ للدخل، طُرد زوجي آنذاك ريتشارد واجنر من عمله في صحيفته، وفوق كل ذلك، كنت استدعى بشكل يومي للتحقيق معي في السيكيوريتات، وهناك حذّروني بأنّهم يُمْكِنُ أَنْ يبدأوا محاكمتي، وبكامل الشهود، قالوا أيضًا إنّني كُنْتُ أُتاجرُ في السوقِ السوداء.. قالوا إنّني كُنْتُ أَبِيعُ الأشياءَ على شارع بوبا سابكا في تيميشوارا، حيث كان السجنَ رُبَّمَا كَانوا يُحاولونَ إخْباري أين سأَنتهي".

ويتميز السرد عند الكاتبة بالتفاصيل المسرفة في طولها أحيانًا وتعقيدها مع بساطةِ ما تصفه، تجعلُ للأشياءِ أشكالًا غيرَ مسبوقة، فالحيوانات والأشخاص والمكان مجرد خلفياتٍ لإسقاطات الكاتبة، مساحاتُ الرؤية واسعةٌ، تجعل القارئَ يشردُ في تفاصيل حياةٍ لا تشي بإمكانية التغيير، "وفي الليلِ يأتي الحلمُ من الفناءِ الخلفيّ ويندسُّ في الفراش"

ما قبل العبارة وما بعدها في سرد هيرتا مولر سيرورةُ حياةٍ يوميةٍ تكاد لا تنفصلُ في لاواقعيتها واضطرابِها عن أحلام وكوابيس كاتبتها، ماعدا انقطاع النتيجةِ عن الموتِ الحتميّ، وكأنّ الليل فاصلٌ، تتلاشى بانتهائه أفاعي الكوابيس أمام صفعات الأم، ومكانسِ الجدات، والموت الواقف خارج العتبات، وعلى الرغم من تكرار إعلاء فكرة المقاومة عند هيرتا مولر إلا أن شخصيات هيرتا مولر مسمّرةٌ إلى ذاتها، شاردةٌ بلا ملامح، تترابط بمصادفات المكان والزمان، فلا علاقات حقيقية خارج القهر الإنسانيّ المتبادل، ولذلك لا فرق يحدث في مجريات السرد عند معظم شخصيات أعمال هيرتا مولر.

فلم تكن الكاتبة وحدها هي التي هربت من رومانيا إلى ألمانيا بحثًا عن الحرية، فبعض شخصياتها الروائية فعلت الشيء نفسه، واللافت للانتباه أن واقع الحياة في رومانيا وغياب الحرية بقي يطاردها ويعذبها، خاصة حين يتعرض الإنسان للنفي أو البعد عن وطنه لفترة طويلة، فإن ذلك يفرز تأثيرًا نفسيًا عليه يسمى في علم النفس التكيف القسري وبموجب هذا التأثير يبقى سلوك الإنسان كما هو حتى بعد زوال المؤثر. هذا ما حصل مع شخصيات مولر التي تهاجر لألمانيا: من المفروض أن تسعد بإمكانية بدء حياة جديدة في عالم خال من الملاحقات البوليسية وتقييد الحرية، إلا أن الشرطي ينتصب في داخلهم ويحرمهم من الاستمتاع بالحرية. ويبدو أن هذا أو شيئًا شبيهًا به حصل مع الكاتبة نفسها، فهي وإن غادرت الظروف الكئيبة في بلدها إلا أنها استحضرتها في رواياتها، وكأن الوطن الذي هجرته يلاحقها حتى في منفاها. وهناك أزمة أخرى

تواجهها مولر، وهي أزمة ميزت حياة غيرها من الفنانين والمثقفين الذين سبقوها في الهجرة من أوروبا الشرقية إلى الغرب بحثًا عن الحرية، فلم يجدوا سوى الاغتراب، وعالمًا لم يستطيعوا أن يتماهوا معه. سنجد بعض ملامح ذلك العالم في روايتها "السفر على رجل واحدة" التي تصور فيها صعوبة التكيف مع ظروف عالم جديد، وإن كان عالمًا يمنحك حرية الألم والصراخ على الأقل كمادة زخمة للفن. المفارقة أن هيرتا مولر هربت في أعمالها من عالمها الجديد الحر إلى العالم الذي هربت منه أصلًا بحثا عن الحرية.

على منصة نوبل

عندما سُئلت هيرتا مولر عن شعورها بعد أن علمت بفوزها بجائزة نوبل للآداب قالت: "لحظتها، لم أفكر في أي شيء ولم أتفوه بأية كلمة. سعادة غامرة هي تقريبًا مأساة كبرى: أعجز عن فهم ما جرى. وقد عاتبت عليّ مؤسسة نوبل عدم إدلائي بأي تصريح. حتما، أنا مبتهجة لكنني لست من النوع الذي يهتف فرحًا. خاصة، لا أريد لهذه الجائزة أن تغيرني. في رومانيا، ظللت أعيش حياتي بطولها وعرضها خوفًا من الموت ، ولكي لا أنبطح، حاولت جعل وقائع محددة تبدو كأنها عادية. ينبغي أن تحافظ على تماسكك حتى لا تتحطم. بالتالي، عملت تلقائيا على تصنيف الأشياء حقًا داخل رأسي، بقدر خطورة حظ كهذا، حدث بغتة في مسار حياتي"

ويمكن القول إن فوز هيرتا مولر بجائزة نوبل وهي أرفع الجوائز الأدبيّة فاجأ الجميع تقريباً، فحياتها البائسة الصعبة لم يكن يتصور أحد أبدًا

أن تصل بها إلى منصات التتويج الخاصة بنوبل وتضع اسمها بين كبار العالم في يوم من الأيام.

قبل فوز هيرتا مولر بجائزة نوبل للآداب كان على ألمانيا أن تنتظرَ عشر سنوات كاملة لتنال جائزةَ نوبل للآداب مرة أخرى، فالمرة الأخيرة التي نالت فيها ألمانيا هذه الجائزة كانت في عام **1999** عندما مُنحت إلى الكاتب والروائي الكبير "غونتر غراس" صاحب رواية "الطبل والصفيح" الشهيرة، والذي عُرف بمواقفه الإنسانية، وبدفاعه عن قيم المساواة والتسامح والسلام، واشتُهر بإبداعاته السردية، والمسرحية والشعرية، أما في هذا العام فقد تم مَنحُ الجائزة إلى الكاتبة الألمانية – الرومانية الأصل "هيرتا مولر"

وقد قالت لجنة حُكام جائزة نوبل للآداب في حيثيات تقديم الجائزة: "إن كتابات هيرتا مولر قد عكست حياةَ المحرومين بتركيز لغة الشعر، وصدق ووضوح لغة النثر"، حيث أعلنت الأكاديمية السويدية المانحة لجوائز نوبل العالمية عن تتويج الكاتبة الألمانية هيرتا مولر بجائزة نوبل في الآداب لعام **2009**، خلفًا للروائي الفرنسي جان ماري جوستاف لوكليزيو على عرش الأدب العالمي. حيث عكست كتاباتها الحياة اليومية الكئيبة في ظل نظام تشاوشيسكو القمعي والمعاملة القاسية للرومانيين الألمان. كما شكل الفساد وعدم التسامح والاضطهاد أفكارًا رئيسية في كتاباتها.

وتوجت الكاتبة الألمانية المولودة في رومانيا بجائزة نوبل وكان عمرها 56 عامًا فقط بالجائزة بعد منافسة قوية مع الأديبة الأمريكية جوسي كارول أوتيس الجزائرية آسيا جبار والشاعر السوري أدونيس وعدد من الأسماء المرموقة في الأدب العالمي.

وجاء حصول مولر على هذه الجائزة لتكون هذه الجائزة بمثابة اعتراف عالمي بالاضطهاد الذي جرى في رومانيا وأوروبا الشرقية، وتعرضت له هيرتا مولر نفسها، وساعد على فوز هيرتا مولر بهذه الجائزة أن معظم أعمال هيرتا مولر الأدبية بالرغم من أنها مكتوبة بالألمانية، إلا أنه تم ترجمتها إلى الإنجليزية، الفرنسية، والإسبانية، مما ساعدها على الانتشار حول العالم

وفي هذا الصدد قالت لجنة حكام جائزة نوبل الآداب في حيثيات تقديم جائزة نوبل للآداب: بأنها كاتبة عكست حياة المحرومين بتركيز لغة الشعر وصدق ووضوح لغة النثر وقال بيتر إنلجند السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية، إنه تم تكريم السيدة هيرتا مولر بسبب لغتها المتميزة جدًا من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب أن لديها حقًا قصة ترويها عن نشأتها في ظل نظام ديكتاتوري.. وكذلك نشأتها كغريبة بين أهلها، وحيث حصلت على جائزة نوبل عن مجمل أعمالها الأدبية التي قاومت فيها الاضطهاد والقهر والقمع وهي:

*الأراضي المنخفضة (رواية) 1984

* 1982 (رواية) 1984

*جواز السفر (رواية) 1986

*المسافرون على ساق واحدة (رواية) 1989

*الشيطان منعكسا في المرآة (رواية) 1991

*الثعلب هو بالفعل الصياد (رواية) 1992

*البطاطا الساخنة هي السرير الدافئ 1992

*الجوع والحرير (مقالات) 1995

*الموعد (رواية) 2001

*الملك يركع ويُقتل (رواية) 2003

*الرجال الشاحبون وفناجين القهوة (رواية) 2009

*أرجوحة الجهاز التنفسي Atemschaukel (رواية) 2009

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م .

2) عبد الله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م.

3) محاضرات الفائزين بجائزة نوبل للآداب (2000 – 2010) ترجمة: عبد الودود العمراني، مراجعة: وفاء التومي، الدار العربية للعلوم ناشرون، وزارة الثقافة والفنون قطر 2011.

4) هيرتا مولر: مجلة القافلة، بحث منشور، ع يوليو – أغسطس 2010.

5) هيرتا مولر – ويكيبيديا، https://ar.wikipedia.org/wiki.

6) هيرتا مولر الكتابة أنقذت نوبل: ترجمة: سعيد بوخليط، مجلة نزوى، سلطنة عمان، ع 1 أبريل 2010.

آليس مونرو .. حورية البحر طفلة في المزرعة

تتوفر في قصصها القصيرة الكثير من التفاصيل والمفاجآت، فيصعب تلخيصها. كما أنها تترك المجال للقارئ لكي يعيد كتابة قصصها.

فتصاعد الحدث يشد القارئ لا محالة لتتبع القراءة، وتجعله يفكر لإيجاد أجوبة لأسئلته وربما لا يجدها. يشعر بقوة الشخصية النسائية حتى في سكوتها، وأحيانا حتى في خضوعها.

في 10 يوليو من سنة 1931 ولدت الطفلة آليس بمقاطعة أونتاريو في كندا، ومع فرحة والدها روبرت لايدلو الذي كان يعمل مزارعًا ويربي الثعالب ليحصل على فروها لبيعه ليتم تصنيعه كفرو منك فاخر للنساء، وكانت والدتها أنا لايدلو تعمل معلمة، إلا أن آل لايدلو لم يكونوا يعرفون أن ابنتهم سوف تشغل الدنيا كلها فيما بعد بما تكتبه.

بدأت آليس الكتابة في سن مبكرة، وكانت أول قصة قصيرة لها "أبعاد الظل" عام 1950، وتقول آليس مونرو عن هذه البداية القصصية المبكرة في حياتها التي قادتها لتجربتها السردية:

"اهتممت بالكتابة من وقت مبكر، بسبب قصة قُرأت لي، كتبها هانز كريستيان آندرسن، وهي قصة "حورية البحر الصغيرة" لا أعرف إن كنت تذكر القصة، ولكنها كانت حزينة بشكل بشع. وقعت الحورية في

حب هذا الأمير، ولكن لم يكن بإمكانها أن تتزوجه، لأنها حورية بحر. وكانت قصة حزينة جدًا لا أستطيع أن أسرد عليك تفاصيلها. ولكن على كل حال، في اللحظة التي أنهيت فيها القصة خرجت وسرت حول المنزل الذي كنا نعيش فيه، المنزل الطوبي، وابتكرت قصة بنهاية سعيدة، لأنني شعرت بأن هذا واجبي تجاه الحورية الصغيرة، وفاتني أنها تحولت إلى قصة أخرى بالنسبة لي، لم يعرف أحد بالقصة ولم يقرأها أي شخص في العالم، ولكنني شعرت أنني قمت بأفضل ما يمكنني فعله، ومن الآن ستتزوج الحورية الأمير وتعيش في سعادة وأن تحصل على قدمين بدلًا من أن تلقى مصيرها بالموت في المياه بدون أن يشعر بها أحد"

بعدها درست آليس اللغة الإنجليزية في جامعة ويسترن أونتاريو، تركت الجامعة في عام **1951**، وتزوجت من جيمس مونرو لتحمل اسمه وتعرف على الدوام باسم "آليس مونرو"، وفي عام **1963** انتقلت آليس وزوجها إلى فكتوريا.

وتناولت معظم قصصها موضوع الحب والصراع والحياة في الريف، ونالت جائزة الحاكم العام في كندا عن القصة "رقص الظلال السعيدة" عام **1968**، وتوالت بعدها قصص أخرى مثل "المشهد من كاسل" "روك" "حلم أمي" "أقمار المشترى" "العاشق المسافر"، وكتبت آخر قصة "الحياة العزيزة" عام **2012**، وفي عام **1980** عينت في منصب الكاتب المقيم في جامعة كولومبيا البريطانية وجامعة كوينزلاند.

وظلت آليس على قائمة المرشحين لنيل جائزة نوبل لسنوات طويلة، حتى حصلت عليها عام 2013م ليفاجأ العالم في ذلك الوقت بكاتبة نسوية من طراز خاص. وهذه المفاجأة جعلت النقاد فيما بعد يصفون حدث فوزها بأنه يمثل حادثًا فريدًا في تاريخ الأدب، لأنه بمثابة فوز ربة منزل بأرقى جائزة أدبية يمكن أن يحصل عليها مبدع أو مبدعة، لكن مع ذلك فلا أحد قلل من موهبة وأهمية ما كتبته آليس من إبداع.

وتميزت آليس مونرو بأسلوب خاص في الكتابة القصصية والسرد، بالرغم من أن معظم أعمالها قصيرة بل وبعضها قصير جدًا، إلا أن أسلوبها السردي وبناء الجملة لديها دفعا بعض النقاد لأن يصفوا ما تكتبه بأنه يمثل "سبيكة سردية"، ووصفها نقاد بأنها "تشيكوف النساء" في هذا العصر، وأكثر من ذلك أن بيان الأكاديمية السويدية الذي صدر ليعلن فوزها بجائزة نوبل وصفها بأنها بـ «سيّدة القصة القصيرة المعاصرة»، وحيث وصف البيان أسلوبها في الكتابة بأنه يتميز بطابع خاص يجعل «سردها القصصي المسبوك ببراعة، المتّسم بالوضوح والواقعيّة السيكولوجية«

وتعتبر نفسها من الكاتبات القلائل اللائي أخلصن للقصة القصيرة طوال مسيرتها الكتابيّة الممتدة إلى ما يزيد على نصف قرن، بل إنها في أكثر من مناسبة تؤكد على أن القصة لم تكن مجرد خيار إبداعي أو «بروفات إلى أن يحين وقت كتابة رواية»، بل كانت «القدَر الذي ينبغي مواجهته»، بالرغم من أن إصرار مونرو على الإخلاص لكتابة القصة

القصيرة، والقصة القصيرة جدا، والتي توصف بـ (الأقصوصة) جعل آليس على الدوام تقبع فيما يعتبر بين الأوساط الأدبية "كاتبات الظل"

وتميز أدبها بأنه يجري دائمًا في مكان واحد وحيز جغرافي يكاد لا يتغير في معظم أعمالها، وهو مقاطعة هيورن في أونتاريو ببلدها كندا، وفي أعمالها الأولى كانت بطلات قصصها من الفتيات المراهقات، وغالبًا ما تكون الحبكة في أعمالها الأولى عن فتاةٍ وصلت سنّ البلوغ وبدأت رحلة معاناتها مع العائلة والبلدة الصغيرة التي تحدّ من أحلامها، لكن بعد ذلك تحولت لأن تكون بطلاتها من النساء الناضجات، لكن ما يميز أعمالها أنها كانت تتناول حياة وقضايا النساء بطريقة هادئة، وبدون أن تظهر نفسها مناضلة نسوية تكره الرجال أو تناصبهم العداء.

فهدوء شخصية مونرو المنعكسة على أدبها، جعل الكثير من النقّاد يصفون أدبها بأنّه «عن النساء ولهنّ، ولكن من دون أَبْلَسَة الرجال» حيث تميزت كل أعمالها القصصية بأنها تستند إلى «لحظة تجلّ، وكشفٍ مفاجئ، ثم تمضي القصة بتفاصيل موجزة، دقيقة، وملهِمة«

تقول آليس عن هذا المنحى العام في سردها القصصي:

"لم أشعر بأن هذا أمر مهم، ولكني لم أفكر في نفسي على أنني أي شيء سوى امرأة، وكانت هناك قصص جيدة عديدة عن الفتيات الصغيرات والنساء. ربما عندما تصل للمراهقة يصبح الأمر بشكل أكبر عن مساعدة الرجل للوصول لرغباته وهكذا. ولكن عندما كنت شابة لم

يكن لديّ شعور بالضعة لكوني امرأة. وربما يكون هذا بسبب كوني عشت في أونتاريو حيث كانت تقوم النساء بالقراءة، وتسرد معظم القصص، بينما يكون الرجال بالخارج يقومون بالأمور المهمة، لم يكونوا يهتمون بالقصص، بالتالي شعرت بأنني في موطني"

وتضيف: "كنت أبتكر القصص طوال الوقت، كنت أسير في طريق طويل نحو المدرسة، وطوال الطريق كنت عامة أبتكر القصص، عندما كبرت أصبحت القصص عني أكثر فأكثر، كبطلة في هذا الموقف أو ذاك

وفي حقيقة الأمر فلم يكن مستغربًا من مونرو أن تحوّل بلدتها الصغيرة إلى عالم قصصي كامل، بل يبدو أن هذا كان هدفًا لها منذ كانت في الحادية عشرة، عندما قررت في هذه السن المبكرة أن تصبح كاتبة، لترسم ملامح هذا العالم الصغير منذ قصتها القصيرة الأولى «أبعاد ظل» عام 1950، ولم يكن «النّفَس القصير» في قصصها عائقًا أبدًا أمام رسم ملامح عالم روائيّ حافل يزدحم بالشخصيات التي ترغب آليس مونرو في أن تبرز للسطح، فهي رغبت على الدوام في أن ترى أن «الأشياء الكبرى، مثل الشرور التي تحدث في العالم لها صلة مباشرة بالشرور التي تحدث حول طاولة عشاء» على حد قولها في أكثر من مناسبة نقدية، بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك في تحديد نهجها السردي، وهو أن التفاصيل المهمة في أي سرد قصصي أن يحكي هذا السرد عن «كيف حدثت الأمور» وليس «ما الذي سيحدث»، وهو اتجاه قد يخالف ما يتوقّعه القرّاء عادة من أي عملٍ أدبي.

المعاناة مرادف الابداع

وككل المبدعين كانت المعاناة هي مرادف الإبداع، لأن الإبداع لا ينتج عن شخص عادي يعيش في ظروف عادية، وإلا أنتج أدبًا عاديًا، أما الإبداع فإنه ثمرة مميزة يصدر عن شخص مميز يحيا ظروفاً خاصة غالبًا ما تكون معاناة وقهرًا أو إحساسًا بالظلم، إن عملية الإبداع في الواقع هي تعبير عقلي قائم على مضمون وأحاسيس.

وعلى هذا فقد مرت آليس مونرو بهذه المعاناة التي خلقت منها القاصة المتفردة، وتعددت أشكال المعاناة التي مرت بها إلا أن الغالب عليها أنها كانت معاناة اجتماعية وأسرية، فقد تزوجت مونرو أول مرة عام **1951** وانتهى الزواج بالطلاق عام **1972**، وتزوجت مرة أخرى عام **1976** من جيرالد فريملين، وهو عالم جغرافيا وتوفي في أبريل **2012**، ثم مرت آليس مونرو بالمعاناة المرضية عندما عاشت لفترة من حياتها تحت رحمة مرض السرطان الخبيث.

وفي مرحلة حساسة من مراحل حياتها تعرضت لضائقة مالية هددت استقرارها النفسي ككاتبة، وفي هذه الفترة لم يكن لديها هي وزوجها سوى أن يحاولا كسب الرزق من خلال بيع الكتب في مكتبة لهما، ليتمكنا من خلالها من البقاء على قيد الحياة، لكن كل ما كانت تحصل عليه مونرو وزوجها في هذه الفترة هو فقط مبلغ **175** دولارًا شهريًا، وكان عليها وزوجها أن ينتظرا فترة طويلة أخرى حتى يحصلا على مبلغ مماثل،

وتقول آليس مونرو عن هذه الفترة الصعبة من حياتها وزوجها: "وكل الناس ظنوا أننا مجانين، وأننا سنجوع حتى الموت"

بل إن عملها بالكتابة بشكل مستمر لم يكن إلا للحصول على المال ولتخطي هذه العقبة المالية في حياتها، وتقول عن هذه التجربة: "لم تكن عندي فرصة أخرى لأنني لم أمتلك نقودا"

والحقيقة أن المعاناة للحصول على سبل العيش لازمتها لفترة ممتدة في حياتها، فحتى عندما التحقت بالجامعة اضطرت أن تعمل في مهن بسيطة لسداد تكاليف دراستها، فعملت كنادلة في مطعم وكجامعة للتبغ.

وقبل ذلك تعرضت أسرتها لأزمة مالية طاحنة في خلال فترة الكساد الاقتصادي، حيث اضطر والدها إلى بيع مواشيه ومزرعته والعمل في مسبك كان يصنع المدافئ التي كانت توزع وتباع في عموم كندا. ولعل اختيار الأب هذه المهنة التي كانت تجعله يغيب عن البيت كانت هروبًا من البيت والزوجة المريضة، وهو جزء آخر من المعاناة التي كانت تقع على عاتق آليس التي وجدت نفسها مسؤولة عمليًا عن تسيير أمور بيت أسرتها ورعاية أمها في غياب الوالد ومساعدة إخوتها على الصمود والبقاء على قيد الحياة.

ومن المتاعب الأسرية التي تعرضت لها آليس مونرو في حياتها هي ما يتعلق بمرض أمها، لذلك فقد كانت مشاعرها تجاه أمها معقدة جدًا، لأنها كانت بمرض مزمن، يجعلها تحتاج للمساعدة، وكانت تتكلم بصعوبة، لم

يكن الناس يستطيعون تحديد ما الذي تقوله، بالرغم من أن أمها كانت محبة للحياة والمجتمع، وأرادت بشكل كبير أن تكون جزءًا من الحياة الاجتماعية، لكن هذا لم يكن ممكنا لها بسبب صعوبات الكلام لديها، وتقول هي نفسها عن مشاعرها تجاه أمها:

"كنت مرتبكة منها، أحببتها ولكن بطريقة ما لم أكن أريد أن يعرف الناس أنها أمي، لم أرد أن أقول الأشياء التي أرادت مني أن أقولها للناس، كان وقتًا صعبًا بالطريقة نفسها التي يعاني منها أي شاب لديه شخص أو أب أخرس بطريقة ما"

لكن مع ذلك، فإن معاناة آليس جعلتها أكثر قدرة على الكتابة وعلى الإبداع ، وتقول هي عن ذلك :

"كانت أمي منجذبة لشخص يريد أن يكون كاتبًا وكانت تقرأ ما كنت أقوم بكتابته"

وتنعكس العلاقة بين آليس وأمها، ما وصفته بالمشاعر المعقدة التي كانت تشعر بها تجاه أمها في ما كتبته آليس في قصة "سادي" المغنية المعروفة في إذاعة محلية، حيث جاءت تساعد أمها في مهام البيت وتعرفت عليها وأحبتها، وأحبت صوتها الجميل الذي كان يحمل مسحة من الحزن، حيث كانت تفتح الإذاعة المحلية بأغنية ريفية عن التلال الجميلة، والشمس التي تسطع بضوئها على النهر والورود المزهرة بعد شتاء قارس. سادي – التي كانت تذهب إلى قاعات الرقص لوحدها، وأحبتها مونرو– لم تعمر

طويلا فقد دهستها سيارة عندما كانت خارجة من قاعة الرقص في الليل وقضت على صوتها وشبابها.

وفي الحديث عن سادي تجلب الكاتبة أو تستعيد اهتمامات السكان في تلك الأوقات، حيث كانوا يفضلون الاستماع إلى الإذاعة المحلية بدلا من الإنصات إلى الأخبار والسياسة. في الجزئيات التي تتحدث عنها مونرو عن الحياة فإنها تبحث عن الأوقات الصعبة والجميلة، وعن الوجوه التي تلاحقها، ونعرف أن من تسرد الحكاية هي مونرو لأن الساردة في القصص ولدت عام 1931، وهو العام الذي ولدت فيه الكاتبة، فعندما تكتب مونرو أن قصصها الأخيرة في مجموعة "عزيزتي الحياة" تحمل بعضًا من حياتها وليس كل الحياة، تريد أن تخلق في ذهن القارئ وهم الفصل عن الواقع والحقيقة، ولكن القارئ بدلًا من أن يتعامل مع الوجوه والأصوات والفضاء الذي تتجادل فيه القصص يذهب أبعد من هذا، ويبحث عن مقاربات بينه وبين حياته، ويرى أن هناك شبه أو تشابه فيما تحكيه الساردة عن نفسها وما مضى من حياته. تخلق مونرو من التفاصيل الصغيرة، أو حكايات "ربة البيت" كما وصف ناقد أعمالها عالمًا جميلًا يفصح عن واقع كندا والأحداث التي تعرضت لها الكاتبة.

ولمن يريد أن يعرف الكثير من مشاعر المعاناة التي مرت بها يمكنه بكل بساطة أن يطلع على تفاصيل بطلة روايتها «حياة الصبايا والنساء» وهي الرواية الوحيدة التي كتبتها، تتميز برؤية متبصرة وصدق عميق، تبدو

سيرة ذاتية من حيث الشكل لكنها ليست كذلك في الحقيقة؛ إذ إنها ترصد حياة فتاة صغيرة نشأت في ريف أونتاريو في أربعينيات القرن العشرين.

وفي تفاصيل الرواية التي تشبه تفاصيل حياة الكاتبة تعيش ديل جوردان في نهاية طريق فلاتس في مزرعة الثعالب التي يمتلكها والدها، حيث يكون رفيقاها الدائمان هما رجل أعزب غريب الأطوار، وهو صديق العائلة، وشقيقها الصغير الفظ. وعندما تبدأ في قضاء مزيد من الوقت في المدينة، تجد نفسها محاطة بمجموعة من السيدات: والدتها امرأة صعبة المراس، تعمل في بيع العباءات للفلاحين، وفيرن دوجرتي الشهوانية، وهي مستأجرة لدى والدتها، وصديقتها المقربة ناعومي التي تشاركها ديل إخفاقات فترة المراهقة ومشاعر النشوة الجامحة.

ويمكن للقارئ أن يتتبع ملامح المعاناة في حياة آليس، وهي ملامح تتوزع على كل أعمالها القصصية، ففي قصة "العين" تسترجع الطفلة التي عمرها خمس سنوات خلافاتها مع أمها. أما في قصة "الليل"، فتستنتج الطفلة – الراوية سداد رأي أبيها وتفهمه لها. وتلاحظ الطفلة – الراوية في قصة "الأصوات"، حزن الفتاة التي فقدت حبيبها في الحرب. أما في قصتها "الحياة العزيزةDear live "، فتسترجع الراوية – الكاتبة طفولتها مع والدها وتنقله من مزارع ثم مربي غزلان وثعالب، والمتاجرة في فروها، إلى عامل في معمل البيرة بعد الانتكاس الاقتصادي آنذاك. أما والدتها فقد اضطرت لترك التدريس لإصابتها بمرض خطير، مما جعل الراوية – الكاتبة تتحمل أعباء البيت ومساعدة إخوتها وهي في عمر صغير.

وهو ما يتكرر في قصة "المعلمة الشابة" التي تلتحق بمستشفى أمراض السل لتدريس الأطفال النزلاء، فإنها تشهد تغييرات داخل بنيتها.

"الفتاة التي تبيع التذاكر في السينما" قصة أخرى تعكس معاناة آليس، فهذه الفتاة تعيش تحت ضغط أهلها المتزمتين، والذين يمنعونها من كل شيء حتى من سماع أو رؤية مقطع فيلم، فتختفي يوما بدون سابق إنذار. ونكتشف زواجها من ابن راعي كنيسة المدينة. وقد أقام راعي الكنيسة (والد زوجها) علاقة معها عندما اضطرت للسكن معهم. وتقاعد القس وتركها هي أيضا وزوجته وذهب للعيش مع راعية كنيسة..

ومن خلال كل شخوصها القصصية، ومن خلال ما مرت به آليس من تجارب مع الحياة والولادة والموت، تستكشف كل جوانب الأنوثة البراقة، وكذلك جوانبها المظلمة.. وقد تمخضت تلك التجارب عن تصوير قوي ومؤثر وطريف لإدراك آليس مونرو الذي لا يضاهي عن طبيعة حياة الصبايا والنساء.

مونرو والنسوية

كتبت آليس مونرو معظم أعمالها حول النساء وربات البيوت وحتى الفتيات المراهقات، لكن لم تزعم أبدًا أنها ناشطة نسوية أو مناضلة من أجل حقوق النساء، في حقيقة الأمر فإن آليس دافعت عن بنات جنسها وكتبت عن مشاعرهن في كل ما صدر لها من قصص، بل كانت هذه

القصص تكتب حولهن بوجه خاص، لكن لم تقصد آليس أن تظهر كامرأة معادية للرجال، ولم تدع لنفسها بطولة الدفاع عن النساء المقهورات.

كانت تكتب عن المرأة، لأنها كانت تريد التعبير عن نفسها، وليس لنقل مشاعر أو تجارب الآخرين كما يفعل كثير من الكتاب.. تقول آليس مونرو نفسها عن ذلك:

"لا أعتقد أنني كنت بحاجة إلى أي إلهام، كنت أفكر في أن القصص مهمة جدًا في العالم، وأردت أن أبتكر بعضًا من هذه القصص، أردت أن أستمر في فعل هذا، وذلك لم يكن له علاقة بالناس الآخرين، لم أكن بحاجة لأسردها أمام أحد، ومضى وقت طويل حتى أدركت أنه سيكون من المثير للاهتمام أن يتلقاها جمهور أكبر"

وتلفت مونرو إلى نقطة في غاية الأهمية فما يتعلق بعلاقاتها بالنسوية فتقول:

"لم أكن أعرف مصطلح "نسوية"، ولكن بالطبع كنت نسوية، لأنني نشأت في الحقيقة في جزء من كندا تكتب فيه النساء بشكل أسهل من الرجال. الكتاب الكبار والمهمون كانوا رجالًا، ولكن معرفة أن امرأة تكتب قصصًا لن يشينها بقدر ما يشين الرجل الذي يكتب القصص، لأنها ليست مهنة رجال. حسنا، هذا كان الوضع عندما كنت شابة، الأمر ليس على هذا النحو الآن"

ولعل وصف ربة البيت والحلية المفرطة في كتاباتها نابع من المواقف التي تعرضت له كامرأة وكاتبة في بداية حياتها، فمعظم قصصها تدور في مدن صغيرة، حيث غالبًا ما يؤدي نضال الناس من أجل حياة كريمة إلى مشاكل في العلاقات ونزاعات أخلاقية، وهي مسألة تعود جذورها إلى الفروقات بين الأجيال أو مشاريع حياة متناقضة تكون النساء طرفًا أساسيًا فيها.

وفي بداية كتابتها حول المرأة كانت آليس مونرو من الكاتبات اللائي يفضلن النهايات السعيدة لبطلات قصصهن، تمامًا كما فعلت وهي طفلة صغيرة عندما غيرت النهاية الحزينة لحورية البحر ومنحتها ساقين لتستطيع الصعود إلى البر لتكون قادرة على تغيير مسار حياتها وتتزوج بالأمير الذي أحبته. لكن بعد ذلك وبعد أن قرأت الرواية الشهيرة "مرتفعات وذرينج" بدأت تظهر ملامح النهايات الحزينة للنساء من شخصيات قصصها.

وتعتبر آليس أنه لم يكن بمقدورها إلا أن تكتب بمشاعر امرأة وأن تفكر كيف تسير الحياة بالنساء وربات البيوت والأمهات، تقول آليس مونرو عن نفسها في هذه الزاوية من الحياة:

"لقد كنت دومًا أحضر الغداء لأطفالي، أليس كذلك؟ لقد كنت ربة منزل، لذا تعلمت أن أكتب في أوقات الفراغ، لا أعتقد أنني استسلمت أبدًا، على الرغم من مرور أوقات كنت فيها محبطة جدًا، لأنني كنت أبدأ في رؤية أن القصص التي كنت أكتبها ليست جيدة جدًا، وأنه

أمامي الكثير لأتعلمه، وأن المهنة أصعب كثيرًا جدًا مما كنت أتوقع. ولكني لم أتوقف، لا أعتقد أنني فعلت ذلك أبدًا"

كانت آليس مونرو تعيش كأم وزوجة وربة بيت وككاتبة في نفس الوقت، كانت تكتب كما تعيش هي نفسها في الحقيقة، وكانت تتخلص من بعض قصصها التي كتبتها، ربما لأنها لم تكن راضية عنها ولا عن مصير بطلاتها فيها من أمهات وربات بيوت.

قصص آليس مونرو، كانت قادرة على أن تدفع للمشهد العام برؤية خاصة وحقيقية عن الطريقة التي كانت يمكن بها للمرأة أن تأخذ زمام أمورها بيدها، رغم التابوهات والضغوط الممارسة عليها، وتختار لنفسها مخرجًا ربما يسعدها أو يقلب حياتها رأسًا على عقب. فتجسيد هذه الشخصيات الخيالية يساهم في خلخلة التقاليد المتعارف عليها ويضعها تحت المجهر. فكما أننا نعرف أن تحرر المرأة ارتبط في العالم الغربي بعدة عوامل؛ منها النمو الاقتصادي الناتج عن الثورة الصناعية وتغيير العادات الاجتماعية وقانون الملكية والتحاق الفتيات بالتعليم والاحتجاجات النَسوية والنسْوية التقدمية وتراجع الضوابط الدينية.

ففي كل قصصها ورواياتها تحتل الشخصية النسائية المرتبة الأولى، ولا تقبل أن تكون من الدرجة الثانية، رغم حياتها المعقدة لم تستسلم، فتختار الطريق الذي تراه حلا لمشكلتها.

وتتوفر في قصصها على الكثير من التفاصيل والمفاجآت، فيصعب تلخيصها. كما أنها تترك المجال للقارئ لكي يعيد كتابة قصصها فالتغييرات التي تحدث داخل القصة تشدنا لا محالة لتتبع القراءة، وتجعلنا نفكر لإيجاد أجوبة لأسئلتنا وربما لا نجدها. نحس قوة الشخصية النسائية حتى في سكوتها، وأحيانًا حتى في خضوعها وتفاجئنا كل مرة فتحسم الأمر وتستمر حياتها.

في قصتها المعنونة "الوصول إلى اليابان" كانت الحركة النِسوية في بدايتها. فلم يكن بإمكان المرأة أن تدلي برأيها، أن تكون شاعرة، والأصعب من ذلك أن تطرح أفكارًا جديدة أو تكون متحررة. الشاعرة، كريتا، ربة بيت متزوجة غير سعيدة، تعاني أيضًا من تضييق المجتمع عليها.

تعرفت خلال احتفال أدبي على الصحفي "هانس" ووقعت في حبه. واستغلت أقرب فرصة للقائه. لكن خلال سفرتها بالقطار تترك ابنتها، كيتي، نائمة في عربة القطار المخصصة للنوم وتلبي دعوة شاب وتذهب إلى غرفته. لكن عند عودتها تفتقد ابنتها ويجن جنونها. وأخيرًا تجدها جالسة على القطعة الحديدية التي تربط القاطرتين. تجرها بحذر وتضمها إلى صدرها وتعيد حساباتها والإحساس بالذنب يقتلها لتركها ابنتها لقدرها. ترفض بعدها الطفلة النوم بجانب أمها. لكن عندما يصل القطار إلى تورونتو، تجد كريتا هانس في انتظارها فتترك الطفلة يد أمها؛ لا تعرف ما يحدث بالضبط، لكنها متأكدة من إهمال أمها لها.

وتشير الكاتبة كما في قصة "عزيزتي الحياة" إلى وضع المرأة في المجتمع، فلأنها استمرت طويلًا في الدراسة ظن جارها أنها ليست ناجحة في الدراسة وكانت تعيد السنة وراء السنة، ففي العادة كانت معظم الفتيات يخرجن من المدرسة بعد نهاية السنة التاسعة للعمل في المحلات، أو يتزوجن ويتفرغن لإنجاب الأطفال.

وكانت آليس تقول عن هدفها من الكتابة:

"أنا أريد من قصصي أن تحرك الناس، لا أهتم إن كانوا رجالًا أم نساءً أم أطفالًا، أريد من قصصي أن تقول شيئًا عن الحياة، لا تجعل الناس تقول أليست هذه هي الحقيقية، ولكن أن يشعروا بنوع من المكافأة من الكتابة، وهذا لا يعني أن تكون النهاية سعيدة أو أي شيء من ذلك، ولكن أي شيء تقوله القصة يحرك القارئ بطريقة أنه يشعر أنه شخص مختلف عندما ينتهي منها"

"ربة بيت تجد الوقت لكتابة قصص قصيرة" عنوان صفحة بجريدة محلية في أونتاريو، يعلن عام **1968** عن انطلاقة آليس مونرو عام، بصدور أول مجموعة قصصية لها وهي في الأربعين من عمرها. لكن هذا العنوان لم يكن فحواه صحيحًا لأن آليس مونرو لم تجد فعلا الوقت الكافي للكتابة وهي التي كانت تدفع أصابع ابنتها البكر التي كان عمرها آنذاك أقل من سنتين بيد، وباليد الأخرى تطبع على الآلة الكاتبة. لقد كان شغف الكتابة يأخذ الكثير من وقتها. وهذا الإحساس بالذنب والتقصير تجاه أطفالها

الأربعة رافقها في كل أعمالها التي تشمل ثلاث عشرة مجموعة قصصية ورواية وحيدة ، صدرت عام **1971**.

وعلى ذلك فمعظم أحداث قصص مونرو تقع في المدن الصغيرة والأوساط الضيقة في غرب أونتاريو في كندا؛ حيث تكون الرقابة الاجتماعية والتزمت في أشد حالاتهما لقلة أو انعدام مجالات الترفيه والتثقيف. وقد تذكر مونرو أحيانًا زمن حدوث القصة وأحيانًا نكتشف ذلك من خلال أحداثها. أما شخصياتها فهي مختلفة ومتنوعة؛ شخصيات نسائية تحاول التملص من إرضاء توقعات الزوج والأولاد والأمهات والجيران. لكن بالرغم أن مونرو تهتم بوضع المرأة من خلال شخصياتها النسائية من بداية القرن العشرين لكننا لا نجدها تصدر أحكامًا مسبقة عليها. بل بالعكس تحرص على معالجة هذه الفكرة المشتركة في كل أعمالها القصصية في زمانها ومكانها من خلال إلقاء الضوء عليها.

آليس على منصة التتويج

عندما أعلن عن فوزها بجائزة نوبل للآداب في عام **2013**م اعتبر النقاد أن فوزها كان مفاجأة غير متوقعة ولم يكن أبدًا في الحسبان، كعادة «نوبل» كل عام، لم تذهب الجائزة إلى الأكثر حظوظًا، بل إلى «كتّاب الظل» حيث لم يكن اسم الكنديّة آليس مونرو مطروحًا على لائحة مرشَّحي «نوبل» هذا العام، بل تسلّل للقائمة في اليوم الأخير.

وكان من أحد أسباب اعتبار أن فوزها، أنها كانت قد أعلنت توقفها بالفعل عن الكتابة بعد أن تخطت الثمانين من عمرها، لكن ذلك لم يمنعها من أن تفوز بالجائزة التي يحلم بها كل روائي حول العالم.

فقد كان جانب كبير من المفاجأة أيضًا أن فوز آليس مونرو بجائزة نوبل للآداب كان المرة الأولى منذ 112عامًا التي تكافئ فيها الأكاديمية السويدية (1901) كاتبا تقتصر أعماله على الأقصوصة.. بجملة موجزة أعلنت الأكاديمية الملكية السويدية في ستوكهولم فوز آليس مونرو بـ«نوبل للآداب»، واصفة إياها بـ «سيّدة القصة القصيرة المعاصرة» بعدها صدر الإعلان الرسميّ عن الأكاديمية ليتوّج لم يكن في وسع هذه الجملة المكثّفة أن تخفّف من صخب الذين فوجئوا بهذا الاختيار، حيث أعلنت الأكاديمية أن آليس أنجزت عملًا مذهلًا يكفي لنيل «نوبل«

ولم تكن مناسبة إعلان فوز آليس مونرو بجائزة «نوبل» المرة الوحيدة التي تُثار فيها قضية توقّفها عن الكتابة، لكن كان صدور مجموعتها «المنظر من كاسل روك» (2006) أول مناسبة تلمّح فيها إلى أنها ستتقاعد، ثم أعلنت في مناسبة تالية التوقف عن الكتابة بعد صدور مجموعتها الأوتوبيوغرافيّة «عزيزتي الحياة» (2012) التي نالت عنها جائزة «تريليام بوك أوورد» في نفس عام صدورها. لكنها عادت إلى الكتابة لتستمر أعمالها في الصدور بمعدّل شبه ثابت، منذ كتابها الأول «رقصة الظلال السعيدة» (1968)، أي بمعدل كتاب كل أربع سنوات. فصاحبة

«عزيزتي الحياة» ليست غريبة عن جوّ الجوائز، وإن كانت أكثر ميْلًا إلى الابتعاد عن صخب الأضواء.

نال كتابها الأول أرفع جائزة كنديّة «جائزة الحاكم العام» التي كانت من نصيبها في مرتين لاحقتين. وكذلك وصلت مجموعتها «من تظن نفسك؟» (نُشرت بعنوان آخر هو «الخادمة المتسوّلة» (1978) إلى القائمة القصيرة لجائزة «مان بوكر» (1980) لتنالها عام 2009 عن مجمل أعمالها، قبل أن يتم تتويج آليس مونرو في نهاية المطاف على المنصة التي يحلم بها كل أديب، وهي منصة جائزة نوبل.

المراجع:

(1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.

(2) آليس مونرو: قصص، ترجمة : أحمد شافعي، الكتب خان، القاهرة، 2014.

(3) آليس مونرو – ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

https://ar.wikipedia.org/wiki

(4) كتّاب لم يعرفهم العرب قبل الفوز ب"نوبل"، مهند الصباغ، الاتحاد الاماراتية، 21 أكتوبر 2015.

(5) عبد الله زكريا الأنصاري: أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م.

(6) مجموعة من المؤلفين: أفضل القصص القصيرة في القرن العشرين، تحرير: جون أبدايك وكاترينا كنيسون، ترجمة: فؤاد سروجي، نسخة إلكترونية بدون تاريخ نشر

سفيتلانا أليكسيفيش .. انتصار القصة القصيرة

تقول عن طريقتها في الكتابة: "أبحث مع الناس، عن المعنى العميق لما عاشوه. أحيانًا، قد لا يظهر ذلك، إلا بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على تسجيل ما.

ثم تأتي أهمية اختيار عنوان الكتاب، بحيث عندما أستلهم عنوانًا، أعلم بالضبط عن ماذا سيتحدث؟ فأجد له إيقاعه، ستصل ربما اللحظة، التي نتكلم فيها عن علاقات الإنسان بالعالم والحيوانات والكون."

عندما أعلنت الأكاديمية السويدية عن فوز البيلاروسية سفيتلانا أليكيسيفيش بجائزة نوبل للآداب عام 2015، فقد اعتبر ذلك على نطاق واسع أنه انتصار للقصة القصيرة، باختيار واحدة من أبرز كاتبات القصة القصيرة المعاصرة للفوز بالجائزة، التي طالما احتكرها الروائيون ممن يكتبون الروايات الكبيرة التي تتجاوز عدد صفحاتها المئات وتصل إلى الآلاف في بعض الأحيان.

وفي بداية الأمر لم يلتفت النقاد إلى اسم البيلاروسية سفيتلانا أليكيسيفيش حتى وهي ضمن الترشيحات في القائمة المختصرة للفائزين المحتملين بجائزة نوبل، ربما لأن اسمها ظهر ضمن قائمة المرشحين لنيل الجائزة عام 2015 من بين أسماء كبيرة بحجم فيليب روث، وآخر بشهرة هاروكي ماروكامي، بالإضافة إلى ما يعتقده النقاد على نطاق واسع من أن

البيلاروسية سفيتلانا أليكيسيفيش هي من ضمن الكتّاب أصحاب الرأي السياسي الواضح، وهو ما يقلل من فرصتها في الفوز بنوبل.

وحتى في داخل بلادها وبين مواطنيها كان فوزها بجائزة نوبل مفاجاة، فقد أظهرت نتائج استطلاع للرأي العام في روسيا التي ظلت بيلاروسيا تابعة لها لسنوات أن 65% من المشتركين فيه لا يعرفون شيئًا عن الكاتبة سفيتلانا أليكسيفيش. وأجرى الاستطلاع مركز ليفادا خلال أيام 23 – 26 من شهر أكتوبر/ تشرين الأول 2015 شارك فيه حوالي 1000 شخص من 134 مركزًا سكانيًا تقع ضمن 46 منطقة في روسيا. وقال 17% إنهم سمعوا باسمها ولكنهم لم يطلعوا على إنتاجها ولم يشاهدوا كتبها، في حين أعلن 5% فقط أنهم قرأوا كتابها "ليس للحرب وجه أنثوي"، و2% أعلنوا أنهم قرأوا كتاب "الشهود الأخيرين"

ربما جاءت الدهشة من أن القارئ في البلدان التي كانت خاضعة للاتحاد السوفييتي السابق لم يكن يعرف أن سفيتلانا هي كاتبة وقصصية فضلًا عن وظيفتها كصحافية، وعدم معرفة القارئ الروسي والبيلاروسي بأن مواطنة له قد فازت بنوبل جاء لأنه لم يعد يقرأ الأدب، ولم يعد يتابع "المعايير الجديدة" لجوائز نوبل، سواء في الأدب أو في السلام.

وفي شهادة إعلان فوز سفيتلانا بجائزة نوبل اعتبرت اللجنة المانحة للجائزة أن صاحبة مؤلف "وجه الحرب غير الأنثوي" الذي صدر عام 1985 في إنجلترا، وهو عبارة عن مجموعة من المقابلات مع مئات النساء من السوفيت ممن شاركن في الحرب العالمية الثانية، هو شكل جديد من

أشكال الإبداع القصصي الذي يجمع التوثيق بالأدب، ووصف الكتاب على أنه "تاريخ مجهول" استطاع أن "يقربك من كل فرد"، وقد ابتكرت أليكيسيفيش من خلاله "نوعًا أدبيًا جديدًا"، محققة تفوقًا واضحًا لا يقتصر على المحتوى فقط، إنما في الشكل، كذلك فقد أجرت آلافًا وآلافًا من المقابلات مع النساء، بأطفال ورجال. وقدمت تاريخًا من العواطف، تاريخاً للروح.

وجاء فى بيان الجائزة أيضًا أن الأكاديمية الأدبية أليكيسيفيش منحت الجائزة عن كتاباتها متعددة الأصوات التي تمثل معلمًا للمعاناة والشجاعة في زماننا، وآن أليكيسيفيش البالغة من العمر 67 عامًا، استخدمت مهاراتها في خلق تأريخ أدبي للمآسي الكبيرة التي واجهها الاتحاد السوفييتي وانهياره، مثل الحرب العالمية الثانية والحرب السوفييتية في أفغانستان، وكارثة تشرنوبل النووية، وحالات الانتحار التي نجمت عن موت الشيوعية.

وبهذا الفوز تكون هذه الابنة الوفية لبلادها قد منحت الدولة المستقلة حديثًا التي تنتمي لها تاريخًا أدبيًا جديدًا، لكن في نفس الوقت فكما كانت الدهشة لإعلان فوزها بنوبل فقد اختلط الأمر على النقاد فور إعلان النتيجة متصورين أن المجد عاد ليداعب الدب الروسي، وأن هذا الفوز سوف يضع بوشكين وتولستوي ومكسيم جوركي وديستوفكي وأنطون تشيخوف، وغيرهم من القامات الأدبية الروسية على طاولة اهتمام العالم من جديد، لكن فات هؤلاء أن الفائزة بجائزة نوبل هذه المرة هي من

بيلاروسيا أو روسيا البيضاء وليس من روسيا، وأن سفيتلانا أليكيسيفيش سوف تكتب تاريخًا أدبيًا وهوية أدبية جديدة لبلادها بيلاروسيا أو روسيا البيضاء بعد سنوات من طمس هذه الهوية الأدبية تحت القمع الروسي.

فسفيتلانا أليكيسيفيش تنتمي لجمهورية روسيا البيضاء، وروسيا البيضاء أو بيلاروسيا دولة داخلية في أوروبا الشرقية تحدها روسيا إلى الشمال الشرقي، وأوكرانيا إلى الجنوب، وبولندا إلى الغرب، وليتوانيا ولاتفيا إلى الشمال الغربي. عاصمتها مينسك ومن المدن الرئيسية الأخرى بريست وغرودنو وغوميل وموغيلوف وفيتيبسك، تشكل الغابات 40% من مساحة البلاد البالغة 207.600 كم2، أقوى قطاعاتها الاقتصادية هي الزراعة والصناعة.

وحتى القرن العشرين، افتقرت بيلاروسيا الفرصة لخلق هوية وطنية مميزة لعدة قرون بسبب خضوع أراضيها لدول عدة مختلفة عرقيًا، ثم تشكلت الجمهورية البيلاروسية الشعبية 1919، وما لبثت أن أصبحت إحدى الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفييتي تحت اسم جمهورية بيلاروسيا الاشتراكية السوفييتية.

تضررت البلاد بشدة جراء الحرب العالمية الثانية، حيث فقدت خلالها روسيا البيضاء نحو ثلث السكان وأكثر من نصف مواردها الاقتصادية، ثم أعيد بناء الجمهورية في سنوات ما بعد الحرب، وأصبحت جمهورية بيلاروسيا الاشتراكية السوفييتية عضوًا مؤسسًا للأمم المتحدة

جنبًا إلى جنب مع الاتحاد السوفييتي وجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفييتية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أعلن الاستقلال في 25 أغسطس 1991، اللغتان الرسميتان في البلاد هما: البيلاروسية والروسية، وتم ذلك من خلال استفتاء شعبي في عام 1995.

وتستمد التسمية بيلاروسيا من المصطلح «روسيا البيضاء»، وتوجد عدة فرضيات حول أصل التسمية، حيث يصف الاسم المنطقة المغطاة بالثلوج في شرق أوروبا والمسكونة من قبل الشعب السلافي كمنطقة جميلة وحرة كنقيض للمنطقة الليتوانية «روثينيا السوداء»، وقد يكون للملابس البيضاء التي كان السلافيون يرتدونها دور في التسمية وفقًا لنظرية أخرى.

ويمكن القول إن الأدب البيلاروسي قد بدأ مع الكتابات الدينية بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، يمثله شعر سيريل التورافي من القرن الثاني عشر، وبحلول القرن السادس عشر ترجم فرانسيسك سكارينا المقيم بولوتسك الكتاب المقدس إلى البلاروسية، ونشر في براغ وفيلنيوس بين عامي 1517 و1525، مما يجعله أول كتاب طبع في بيلاروسيا أو في أي مكان في أوروبا الشرقية، ثم بدأت المرحلة الحديثة من الأدب البيلاروسي في أواخر القرن التاسع عشر، حيث كتب العديد من الكتاب البيلاروس البارزين في ذلك الوقت، مثل: أولادزيمير زيلكا وكازيمير سفاياك

وياكوب كولاس وجميتروك بيادولا ومكسيم هاريتسكي لصحيفة باللغة البلاروسية يطلق عليها «ناشا نيفاو» التى نشرت في فيلنيوس.

بعد ضم بيلاروسيا إلى الاتحاد السوفييتي، فإن الحكومة السوفييتية سيطرت على الشؤون الثقافية للجمهورية، فكان التطور الحرفي للأدب مقصورًا فقط على الأراضي التى كانت تحت السيطرة البولندية، حتى سيطر عليها السوفييت أيضًا في عام 1939، ونفي العديد من الشعراء والكتاب بعد الاحتلال النازي لبلاروسيا، ولم يعودوا حتى ستينيات القرن العشرين، ثم ظهرت آخر محاولات إحياء ماضي الأدب البيلاروسي في الستينيات من خلال روايات فاسيل بيكاف وأولادزيمير كاراتكييفيتش، لكن فوز سفيتلانا أليكيسيفيش بجائزة نوبل للآداب والشعراء، فهي بذلك تكون قد كتبت بداية جديدة للهوية الثقافية في بيلاروسيا بعيدًا عن الهوية الروسية للأدب الروسي.

وكانت الكاتبة البيلاروسية قد نشرت أول رواية لها عام 1985، معتمدة فيها على روايات لم يسبق سردها لنساء خضن القتال ضد ألمانيا النازية، وقد بيع من هذه الرواية التي حملت عنوان «الوجه غير الأنثوي للحرب» أكثر من مليون نسخة، وتم توزيع ونشر رواياتها في 19 دولة، وإلى جانب الرواية، وضعت أليكيسيفيش 3 مسرحيات، بالإضافة إلى سيناريوهات لواحد وعشرين فيلمًا وثائقيًا.

ولدت سفيتلانا أليكيسيفيش في 31 مايو 1948، في بلدة أوكرانية تدعى إيفانو فرانكوفيسك، لأب بيلاروسي وأم أوكرانية. ثم عادت

إلى بلاروسيا لتدرس الصحافة، وبعد إنهاء دراستها الجامعية عملت كمراسلة في العديد من الصحف المحلية لفترة وجيزة قبل أن تصبح مراسلة لمجلة أدبية بارزة هناك، وتنقلت ما بين باريس وبرلين ثم استقرت في منسك عاصمة بيلاروسيا.

وقبل فوزها بجائزة نوبل عرفت بأنها من أهم وأكبر الصحفيات في بيلاروسيا (روسيا البيضاء)، كما أنها تعد من ألمع الكاتبات اللاتي كن مرشحات للفوز بنوبل طوال السنوات الأخيرة بسبب مؤلفاتها المؤثرة حول كارثة تشرنوبل وحرب أفغانستان وتاريخ الاتحاد السوفييتي وحروبه، وهي أعمال حُظرت في بلادها، وغالبا ما تنأى لجنة جائزة نوبل بنفسها عن ترشيح أشخاص من ذوي التحيزات السياسية.

كما جاءت المفاجأة من كون تاريخها المهني يقوم على أساس أنها تعمل محققة صحفية، وهي شغوفة بجمع الأدلة الوثائقية لعملها الصحفي ولقصصها؛ ما يجعل أعمالها أقرب للواقعية. وانعكست طبيعة عملها الصحفي على رواياتها التي صورت فيها مشاهد الحياة المختلفة والحرب التي خاضها الاتحاد السوفييتي في أفغانستان وكارثة تشيرنوبل، لكن ذلك في نفس الوقت جعل كتابتها الأدبية بعملها كصحفية مشغولة بتصوير الحياة والحرب خلال الاتحاد السوفييتي وبعده، فروايتها الأولى "وجه غير أنثوي للحرب" التي صدرت عام 1985 أعيد طبعها لأكثر من مرة، ووزعت أكثر من مليوني نسخة. وهي تتضمن عدة مونولوجات على لسان نساء يروين ذكرياتهن عن الحرب العالمية الثانية.

ومن أهم وأشهر رواياتها "أصوات من تشرنوبل: التاريخ الشفوى لكارثة نووية" التى تناولت فيها أزمة تشيرنوبل وتأثيرها، وضمّنت شهادات لأكثر من مائة ممّن شهدوا حادثة انفجار المفاعل النووى في منطقة تشيرنوبل شمالي كييف، وعن وقائع وتداعيات ما بعد الصدمة.

أما "أولاد زنكي: أصوات سوفيتية من حرب أفغانستان" فقد عكست مآسي الحرب السوفييتية في أفغانستان.

وقد تُرجِمت أعمالها، التي تستند كلها إلى شهادات واقعية جمعتها، إلى عدة لغات ونشرت في العديد من دول العالم، وحُولت بعض أعمالها إلى مسرحيات عرضت في فرنسا وألمانيا.

وتقول سفيتلانا أليكسيفيش عن ذلك: "كنت أبحث عن جنسٍ أدبي يسمح لي بمقاربة رؤيتي للحياة بأفضل ما يمكن. فاخترت أن أكتب أصوات الناس واعترافاتهم"

وتعتبر سفيتلانا أليكسيفيش أن صورة الحرب تختلف تمامًا في عيون النساء والأطفال عن صورتها في الكتب والسجلات والوثائق الرسمية. ولاهتمامها الدائم بالأمور الإنسانية وصفت كتبها بأنها "وقائع أدبية من التاريخ العاطفي للمواطن السوفييتي"، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وتلخص سفيتلانا رؤيتها لما تحتويه أعمالها من مشاهد ووقائع بقولها: "إذا كان لنا أن ننظر إلى الوراء لتاريخنا، سواء ما قبل انهيار الاتحاد السوفييتي

أو بعد انهياره، سنجد أن هذا التاريخ عبارة عن قبر جماعي ضخم وحمام من الدم الساخن، بل هو محادثة مستمرة بين الجلادين والضحايا."

المرأة تنتصر للحياة

اعتبر نقاد أن فوز سفيتلانا بمثابة انتصار مزدوج: انتصار للمرأة، وانتصار للحياة، لأنها أديبة انتصرت للحياة ضد الحرب وضد الموت في كل أعمالها الأدبية، وتعد سفيتلانا المرأة الرابعة عشرة التي تفوز بجائزة نوبل للأدب منذ إطلاقها في عام 1901. وقد سبقتها خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة كل من البريطانية دوريس ليسينغ عام 2007، والفرنسية جان ماري جوستاف عام 2008، والألمانية هيرتا مولر عام 2009، والكندية آليس مونرو عام 2013.

وكانت الأكاديمية السويدية قد اختارت 198 مرشحًا وأعلنت عنهم، بينهم 36 كاتبًا لم يسبق لهم الترشح، ثم تمت تصفيتهم لخمسة مرشحين بنهاية صيف 2015 وضمت ترشيحات استطلاع الرأي حول الفائزين المحتملين بالجائزة الكُتاب الأكثر حظًا للفوز بالجائزة هذا العام قبل إعلانها رسميا إلى جانب أليكسيسيفيش، كلًا من الكاتب الياباني هاروكي موراكامي، الكاتبة والكاتب النرويجي نجوجي واثيونج، والكاتبة الأمريكية جويس كارول أوتس، والروائي الأمريكي فيليب روث، والشاعر الكوري الجنوبي كو أون، والكاتب النمساوي بيتر هانديك، والكاتب الأيرلندي جون بانفيل، والكاتبة المصرية نوال السعداوي.

وقد حرصت سفيتلانا في كل أعمالها أن تسبر بلا كلل أعماق الروح للنساء اللائي عانين تحت وطأة الحروب، ابتداءً من فترة الحرب العالمية الثانية، وحتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي السابق لتعطي دليلًا آخر على أن الأدب هو في حقيقة الأمر يتجسد في المرأة أو أن الأدب امرأة كما يقول كثير من النقاد.

وتقول عن طريقتها في الكتابة عن هموم الناس والحياة: "أنا أبحث مع الناس عن المعنى العميق لما عاشوه. أحيانًا، قد لا يظهر ذلك، إلا بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على تسجيل ما. ثم تأتي أهمية اختيار عنوان الكتاب، بحيث عندما أستلهم عنوانًا، أعلم بالضبط عن ماذا سيتحدث؟ فأجد له إيقاعه، ستصل ربما اللحظة التي نتكلم فيها عن علاقات الإنسان بالعالم والحيوانات والكون"

وتعترف سفيتلانا بأن ذكرياتها وأحاديث النسوة العجائز التي سمعتها وهي صغيرة تركت في نفسها تعلقًا شديدًا بحياة الناس، حتى بعد أن قررت أن تعمل صحافية وأديبة فهي تكتب عن الحياة وعن الإنسان، وتتذكر

"كنت أسمع وأنا صغيرة حوارات بين نساء داخل المطبخ، ولازلت حتى اللحظة أسمع تردد الصوت المعشوق لجدتي الأوكرانية. نعم، يشغل الحكي النسائي حيزًا مهمًا في خيالي. أجد صعوبة، كي أتموقع في الفضاء الذكوري. بوسع النسوة التكلم في المطابخ عن الحرب، لكن بطريقة مختلفة جدًا. أذكر، حين اشتغالي على كتابي: ليس للحرب وجه امرأة، أني التقيت

زوجين لهما ذكريات على قدر من التباين، سيندهش كل واحد منهما حول ما يرويه الثاني بصدده. أما فيما يتعلق بحبهما، فالزوجة بقيت تتذكر كل شيء، أما زوجها فلا يذكر شيئًا"

ومن خلال عملها كصحافية حرصت على جمع الشهادات الإنسانية عن الحروب، وحرصت أكثر في هذا الصدد أن تكون الشهادات للنساء بوصف النساء أكثر المتضررات من الحروب والكوارث، بل إن سفيتلانا أليكيسيفيش تعتبر أن المرأة هي النقيض للحرب والدمار، وتعبر عن وجهة نظرها هذه بقولها: "عندما نتكلم عن الحب في الأدب الروسي، سيأخذ المفهوم منحى خاصًا جدًا: الجسد غائب تمامًا، بل لا وجود حتى لهذه الكلمة. غالبًا، الحب الروسي، هو امرأة تنتظر رجلًا سيعود في حالة سيئة من الحرب أو السجن أو تشرنوبيل. دائمًا يجسد حب المرأة تضحية. مثلًا، في كتابي: تضرّع. تزور امرأة زوجها في المستشفى، الذي تعرض لنشاط إشعاعي، ورغم حواجز الواقيات والستائر الفاصلة بينهما اقتربت منه وتناولت تفاحة من يده. بعد فترة، أنجبت مولودة صغيرة، مشوهة الخلقة، ثم لفظت أنفاسها، خلال أيام"

وهو ما أعادت سفيتلانا التأكيد عليه بقولها: "ليس للحرب وجه امرأة، فحين تجميعي لشهادات عدد من النساء أسجل كل شيء، لأنه حينما نعاود الكتابة ثانية بالقلم، نضيّع الفوارق، فيجب تناول عمق الأفراد، وليس مجرد كلماتهم، بالنسبة للشهادات الطويلة أسعى للقاء الشخص عشرات المرات. أحاول بداية التخلص قدر الإمكان من

المبتذل. يهمني أساسًا تلك التفاصيل الصغيرة التي لا نطرح دائمًا حولها أسئلة"

وتطبيقا لمنهجها في الكتابة بعد أن تستطلع آراء المئات من الناس نشرت سفيتلانا أليكيسيفيش في عام 1985 أولى إصداراتها الأدبية تحت عنوان "الحرب ليس لها وجه امرأة"، وتسبب هذا الكتاب فى شهرة سفيتلانا بشكل كبير فى وقت صغير، وبيع منه أكثر من مليوني نسخة، ويتكون هذا الكتاب من عدة مونولوجات لذكريات النساء عن الحرب العالمية الثانية، واتهمها كُثر من دوائر السلطة عند صدوره، ب"معاداة الروح الوطنية"

ولذلك فقد قضت سفيتلانا أربع سنوات من العمل تنتقل بين 100 بلدة ومستوطنة تنقل عن المحاربات القديمات، فقد أرادت التذكير بدور نساء تراوحت أعمارهن بين 15 و30 عامًا وقفن في الخطوط الأمامية للحرب العالمية الثانية وأتقنّ مهن الرجال في الطيران والقنص حتى قيادة الدبابات، ولم يكتفين فقط بالتمريض حتى سرق الرجال منهن النصر ونسوا دورهن حتى عبرت النساء عن ذلك بشكل لا يقدر عليه رجل معلنات مخاوفهن من المرور بين الجثث فأجمعن "كانت الجثث كأكوام البطاطا"

فقد كتبت سفيتلانا تاريخًا للعواطف في أشد الحروب والكوارث على لسان النساء والأطفال، ويمكن القول بأنها تخصصت في رصد أصوات واعترافات الإنسان الحقيقية وأدلة الشهود والوثائق، وكما عبرت

فهي بهذه الطريقة تستطيع أن تكون عدة أشخاص في وقت واحد: كاتب، وصحفي، وعالم اجتماع، وعالم نفس، وواعظ.

صوت الحقيقة

اختارت سفيتلانا أليكسيفيش أن تكون على الدوام هي الصوت الذي يعكس الحقيقة سواء من خلال نشاطها الصحافي أو أعمالها الأدبية، وقد نجحت في أن تمزج بكل مهارة بين وظيفتها كصحافية وعملها المحبب لها كأديبة لتسجيل الحقائق ونقلها على الورق بعد أن تستمع لشهادات حقيقية حولها، وهو ما قامت به للكتابة عن الكوارث التي وقعت للبشرية من خلال الحرب العالمية الثانية ومن خلال كارثة مفاعل تشيرنوبل، ففي حربها على أفغانستان من عام **1979** إلى عام **1989**، قدرت القوات السوفييتية التي قامت بغزو هذا البلد الإسلامي بنحو مليون جندي خلفوا **50** ألف قتيلًا وعبثوا بمستقبل الآلاف وإنسانيتهم، وهنا اختارت أن تكون سفيتلانا أليكسيفيش هي نفسها صوت التاريخ المخفي عن الحرب الأفغانية، فوثقت لقصة أكثر ما يثيرك فيها وحشيتها، وكشفت التشابه بينها وبين حرب فيتنام الأمريكية في بحث استمر أربعة أعوام عن تلك النظرات المروعة.

فالتحقيقات حول الحرب السوفييتية تعتبر توصيفًا صحفيًا قامت به مع أسر ضحايا قتلى روس في أفغانستان، حيث أنها تدين الحروب والمذابح والقمع، وتعتبر أن تاريخ الإنسان السوفييتي عمومًا تاريخ مقبرة

جماعية سواء قبل تفككه أو بعده، وهي التحقيقات التي حولتها فيما بعد لشكل من أشكال الأدب الرفيع.

جعلت سفيتلانا في الرواية كل قارئ على صلة حميمية بحرب بعيدة جدًا عنه، وكأنها أعادت شحن القتلى من توابيت الزنك المختومة أمام دولة نفت مرارًا وقوع الحرب ومجتمع سوفييتي ما زال يرفض ذكر "فيتنام السوفييتية"

ولا شك أن رواية "أبناء الزنك" أضرت بالكاتبة وأثارت الجدل والغضب حولها عندما نشرت لأول مرة في الاتحاد السوفييتي حتى وصفوا روايتها "بنص افتراء صنعة الخيال وأصوات هستيرية لهجمة خبيثة في صورة كتاب"، فقد حوى الكتاب شهادة صريحة للجنود والممرضات والأمهات وأبناء الضحايا وبناتهم، كل من لا ينسى أثرًا للحرب حتى ملأت سفيتلانا ثقبًا في الذاكرة اسمه حرب أفغانستان، وهي تحكي عن جمال الطبيعة بها، ووحشية القوات العسكرية، وتعمد القتل والتشويه، واضطراب الحياة اليومية.

وتقول عن تجربتها الشخصية في الحرب الأفغانية وما حدث لها من نقطة تنوير خلال هذه الحرب: "كنت في الثلاثين من عمري، وقد امتلكت منذئذ حدسًا أوليًا. لقد تبينت الأمر حول الحرب العالمية الثانية، حيث لا تزال وقتها الأيديولوجية السوفييتية متماسكة جدًا. فضلا عن ذلك، تحقق الانتصار الروسي مرده إلى صلابة هذا المثال الأعلى. لكن حينما ذهبت

إلى أفغانستان، سنوات قليلة بعد ذلك، وحاورت الناس هناك، اكتشفت تصدعًا لهذا المثال الأعلى"

كما سجلت الكوارث الإنسانية التي وقعت نتيجة حرب أفغانستان، لم تترك سفيتلانا كارثة تشيرنوبل تمر دون أن تعالجها أدبيا لتكشف حقيقة ما حدث، ففي 26 أبريل 1986 وقع حادث بمفاعل تشيرنوبل وظل أسوأ حادث نووي في التاريخ، وغطت آثاره المدمرة ثلاثة أرباع أوروبا، حيث كان ما يقرب من 200 موظفًا يعملون في مفاعل الطاقة النووي بأوكرانيا، لقي منهم 36 شخصًا مصرعهم، وأصيب أكثر من 2000 شخصًا.

"صلاة تشيرنوبيل" كان الكتاب الأول الذي نقل أصوات من وقعت عليهم المأساة في صمت، قامت سفيتلانا بإجراء مقابلات مع 500 ناجٍ وناجية من الانهيار ورجال الإطفاء، ومن تم تكليفهم بدفن وجه الأرض الملوث وإطلاق النار على كل الحيوانات بالمنطقة، وقصصهم التي كشفت عن الخوف والغضب واللا يقين المستمر معهم رغم تنظيف آثار الكارثة جيدًا لكنها الآثار التي لا تمحى من نفوس البشر.

نقلت سفيتلانا أصوات الضحايا داخل روايتها في شكل مونولوج بصدق وعاطفة لا تسعها اللغة جسدت التغيرات النفسية التي أحدثتها الكارثة، والتحولات الجينية التي تركت أثرًا كبيرًا لدى السكان هناك ولكل الساعين في البقاء، ولكن بدلًا من المضي قُدمًا قررت سفيتلانا الرجوع

لكارثة وصفتها بأنها أسوأ بكثير من معسكرات الاعتقال ومصارعة المجهول.

وحتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي السابق لم تتوقف الكاتبة عن مهمتها التي نذرت نفسها لها في كشف الحقيقة حتى لو كانت هذه الحقيقة صادمة للمشاعر القومية وحتى لو اتهمت من جانب الآخرين بأنها تكتب كتابة مسيسة وليست كتابة إبداعية، وهو ما حدث عندما أثار كتابها الأخير الصادر عام 2013 بعنوان "نهاية الإنسان الأحمر" ضجة كبرى في روسيا وأوروبا وحصد جائزة "ميديسيز للدراسات" في فرنسا عام 2013، كما اختارته مجلة "لير"، المتخصصة بالكتب، كـ "أفضل كتاب للعام 2013، حيث تناولت فيه تداعيات ما بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وتأثير ذلك على الحياة اليومية للمواطنين الذين عاشوا في كنف النظام وشهدوا سقوطه، مؤكدة أنها لا تريد أن تجعل من "الإنسان الأحمر مجرّد ضحية أو مجرد جلاد"؛ بل تسعى لفهم كيفية نهايته، وموضحة أن القائمين على المشروع السوفييتي للمجتمع كانوا معبئين بإرادة صياغة نموذج "الإنسان السوفييتي" المعروف بـ "الإنسان الأحمر". ولا تتردد في القول منذ البداية أيضًا، إن ذلك "النموذج المصنوع بالمختبرات" كان محكومًا عليه بالزوال مع "تفجّر الاتحاد السوفييتي"

وتستنكر سفيتلانا أن أحدًا لم يفكّر في تقديم مسؤولي الاتحاد السوفييتي إلى المحاكمة، على غرار محكمة "نورمبرج" التي مثل أمامها بعض مسؤولي النظام النازي، رغم أن ضحاياه – النظام السوفييتي – كانوا

بالملايين. وعقدت مقارنة في كتابها بين "الرعب الشيوعي" و"الرعب النازي"

فالصحفية البلاروسية سفيتلانا أليكيسيفيش، التي أصبحت فيما بعد أديبة نوبل لا تتردد في التعبير عن مواقفها السياسية ولم تصف وجهة نظرها حول السياسة بشكل ملتبس كما فعل آخرون، فهي قد قالت بكل صراحة أنها تكره ستالين و"الإرهابي بيريا" وفلاديمير بوتين، لأنهم أوصلوا روسيا للحضيض، ويجسدون كل قيم ومعاني وسمات الشر المطلق.

المراجع:

1) إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.
2) حوار مع الكاتبة والصحفية سفيتلانا ألكسيفيتش، ترجمة: أحمد الزبيدي، جريدة المدى العراقية، 9 أكتوبر 2015.
3) سفيتلانا أليكيسيفيش: أجمع النفايات التي تتركها الحياة وأصنع منها فنًا، ترجمة: مرفت عمارة – عن الجارديان البريطانية، أخبار الأدب القاهرية، 17 يوليو 2016
4) كتّاب لم يعرفهم العرب قبل الفوز بـ"نوبل"، مهند الصباغ، الاتحاد الاماراتية، 21 أكتوبر 2015.

القسم الثاني
جائزة العبقري مثيرة للجدل

- العبقرية والجائزة المدهشة
- مؤسسة نوبل.. الشروط والقانون
- الجائزة والأكاديمية السويدية
- دائرة الشكوك

العبقرية والجائزة المدهشة

في 21 أكتوبر تشرين الأول عام 1833 ولد ألفريد برنارد نوبل في استكهولم في نفس العام الذي أفلس فيه أبوه "إيمانويل"، وهو من أصل إسكندنافي، تمتد جذور أسرته حتي أواخر القرن السابع عشر في أبرشية بإقليم سكين.. يقال لها "نوبلوف" في أقصي جنوب السويد، ومن هنا استمد اسمه نوبل.

وقد تلقى تعليمه في المنزل على يد مدرسين خصوصيين – نظرا لاعتلال صحته – مثله مثل أخويه روبرت ولودفيغ، وشب "ألفريد" ضعيفا، ولولا أن والده كان مهندسا موفور الذكاء، ويمتلك قدرا من الطموح والقدرة على الابتكار، ما كان له أن يعاود نشاطه بعد مغادرته "استكهولم" إلى "سان بطرسبرج" حيث افتتح ورشة "هندسية" ما لبث أن اتسعت ولاقت رواجا كبيرا.. خاصة عقب نشوب حرب القرم حينما عهدت إليه الحكومة الروسية بصنع ألغام الغواصات والبواخر، ليحقق نجاحالم يكن يحلم به. وبعد انتهاء الحرب ازداد نشاطه الذي دفعه إلي المغامرة في التوسع حتى أشهر إفلاسه من جديد، لكن لم يتطرق اليأس إلى قلبه وعاد مع ابنه "ألفريد" ليحققا الثراء من جديد.. هذا الابن ورث صفات أبيه من الدأب وسعة الخيال والذكاء، وهي أشياء لا تقدر بثمن..

وفي عام 1842 صحب ألفريد أباه الذي شمر عن ساعديه من جديد ليعيد جمع ثروته الضائعة، وقد شق طريقه إلى الشهرة كمهندس عسكري، واصطحب أسرته إلى روسيا، وهناك بدأ في صناعة الألغام الأرضية والبحرية التي كان يمد بها الحكومة الروسية.

وفي عام 1850 انصرف ألفريد إلى دراسة الهندسة والكيمياء ما بين سان بطرسبرج والسويد، كما قضى سنة في الولايات المتحدة الأمريكية، وسجل وهو في العشرين من عمره براءتي اختراع لعداد غاز وعداد ماء من نوع خاص. ورغم أنه لم يحصل على أية درجة علمية أكاديمية إلا أنه أصبح في أواخر العقد الثاني من عمره كيميائياً نابها يجيد اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية بالإضافة إلى السويدية والروسية.

وكان النيتروغليسرين قد اكتشف حديثا من قبل إسكانيو سوبريرو ASCANIO SO-BRERO في عام 1846 في تورينو وذلك بمعاملة الجلسرين النقي تقريبا بخليط من حمض الكبريت وحمض الآزوت، وعرفت قوة تفجيره الكبيرة، ولكن بدت صعوبة استعماله لحساسيته للصدمات وبالتالي صعوبة نقله وخطر تفجيره، إلى جانب عدم وجود المفجر المناسب له.

فلما عاد ألفريد إلى أوروبا وواصل أبحاثة سرعان ما لمع اسمه بين المخترعين، كما كان له نصيب في مؤسسة البترول التي كان يملكها أخواه وهما اللذان افتتحا آبار البترول في باكو بجنوب روسيا.. وقد اشترك ألفريد نوبل مع والده الذي كان قد عاد هو الآخر إلى السويد، في إجراء

المفرقعات، وأنشأ الاثنان – الأب والابن – ورشة صغيرة لإجراء أبحاثهما ولإنتاج "النيتروجلسرين"، وكان ذلك في مدينة "هيلنبرغ" بالقرب من استكهولم. وكان ألفريد قد اكتشف طريقة مفيدة لتفجير تلك المادة، وحصل لهذا الغرض على براءة اختراع حكومية، وبينما كان الاثنان ذات يوم في ورشتها وقع حادث مؤسف، ذلك أن انفجارا في النيتروغليسرين أدى إلى تدمير الورشة وإلى مقتل الأخ الأصغر لأفريد وعدد آخر من الرجال، ولم يمض على ذلك الحادث شهر حتى أصيب إيمانويل بالشلل وظل عاجزا بقية حياته.

وجد ألفريد نوبل نفسه بعد تلك الحادثة – عام **1863** م – يعمل بمفرده، وقد بدأ في إقامة مصانع جديدة في كل من النرويج وألمانيا، غير أن النيتروجلسرين ظل شديد الخطورة، ولا سيما إذا لم يعامل بعناية، ولم تكن الحادثة التي أودت بحياة الأخ الأصغر لألفريد هي الوحيدة من نوعها، فقد انفجر مصنع نوبل في ألمانيا، كما انفجرت سفينة بالقرب من سواحل بنما، كما وقعت انفجارات عدة أخرى في سان فرنسيسكو ونيويورك وأستراليا؛ لذلك منعت كل من بلجيكا وفرنسا صناعة النيتروجلسرين في بلادها، كما أن السويد حظرت نقله، وفرضت بريطانيا قيودا شديدة على استخدامه.

لكن النيتروغليسرين استهوى نوبل فمنذ عام **1864** أخذ في مواصلة أبحاثه وتمكن في العام نفسه من إيجاد كبسولة مناسبة من فولمنيات الزئبق التي كان قد كشف عنها هوارد في عام **1800**، وهي صالحة

للتفجر بالصدم أو الإشعال. وقد سجل نوبل براءة اختراع هذه الكبسولة في عام 1864 نفسه وقام في عام 1865بإنشاء معمل في فينتوفيكن VINTOHVIKEN في السويد، وآخر في كرومل KRUMMEL قرب هامبورغ في ألمانيا. كما منح رخصا لإنشاء معامل في النرويج وألمانيا المتحدة لإنتاج هذا الزيت المتفجر الذي أصبح يعرف باسم "زيت نوبل للتفجير".

كانت هذه المادة المتفجرة السائلة ذات المظهر الزيتي تنقل في صفائح أو في آنية خشبية، وكانت عرضة للتفجر والحوادث المؤسفة سواء في مكان صنعها أو أثناء نقلها إلى أماكن الاستعمال. وهكذا فقد حدث لنوبل تفجير آخر دمر له معمل هامبورغ في عام 1866، وقرر عندها أن يجد وسيلة لتثبيت هذا السائل الخطير، فكان له ذلك بإضافة 25% من مسحوق سيليسي للدياتوميات "الكيزيلغوهر KIESCLGUHR" إلى النيتروجلسرين. وقد ثبتت هذه المادة المجهرية الخاملة كيميائيا المتميزة بمساميتها وقدرتها الكبيرة على امتصاص السائل المتفجر وحولته إلى عجينة يمكن تعبئتها في أنابيب من الورق المقوى بشكل أسطوانات صغيرة بوزن 100 جرام أطلق عليها نوبل نفسه اسم ديناميت DYNAMITE، وسجل براءة اختراعها في إنجلترا في عام 1867 ثم في الولايات المتحدة الأمريكية في العام التالي 1868.

تميز الديناميت بالأمان في النقل والاستعمال وسهولة حشوه في ثقوب التفجير فقفز الإنتاج من 11 طن في عام 1867 إلى ما يزيد على 3000 طن في عام 1874.

انهالت الثروة على نوبل، وتعددت شركاته في العالم؛ فاستقر منذ عام 1873 في باريس يتابع منها مشاريعه والتحسينات في متفجراته، وفي عام 1847 لاحظ العالم السويسري كريستيان شونبين C.SCHONBEIN أن القطن المنتج يحوي خواصا متفجرة، لكن هذا القطن لم يأخذ أهمية إلا بعد تمكن العالم الإنكليزي فردريك أوغستوس أبل F.A. ABEL في عام 1865 من تنقيته وعرف عند ذلك باسم النيتروسليلوز كما عرف محلوله في الأثير والكحول باسم كولوديون COLLODION.

وقد استفاد نوبل من الكولوديون فأنتج ما يسمى "ديناميت نوبل الممتاز DYNA- NOBEL MITE EXTRA– بمزج % 93 من النيتروغليسرين و7% من الكولوديون وسجل براءة اختراعه في عام 1875.

وقد أنشأ في عام 1881 في سفران (مقاطعة سين وواز– فرنسا) مخبرا لتحسين أنواع الديناميت وخاصة بعد استخدام النتروسليلوز مع النيتروغليسرين، فأوجد من مزج هذين المتفجرين الديناميت الجيلاتيني والديناميت البلاستيكي، كما صمم في عام 1887 مسحوقا دافعا مؤلفا من 50% من النيتروغليسرين و50% من النيتروسليلوز أطلق عليه اسم

"الباليستيت BALISTITE" عديم الدخان وسرعان ما بدأت معظم الدول في استخدامه بارودا، وقد بلغ مجموع براءات الاختراع التي حصل عليها نوبل لاختراعاته أكثر من مائة براءة، وبلغ عدد معامله في العالم ثمانين معملا تنتج سنويا 66000 طن من الديناميت والبلاستيك بقيمة مليون كرونة سويدية.. إن خرق نفق سان جوتار، ونسف صخور الهلجات في ممر نيويورك وإنشاء قناة بنما، وتعقيم قناة كورينثوس، وتنظيم الدانواب عند "أبواب الحديد" كلها مشاريع تيسر إتمامها بما أنتجته معامل نوبل من متفجرات.

وقد اعتبر أن الحكومة البريطانية قد استغلت اختراع الباليستيت في تصنيع مادة "الكورديت CORDITE " الدافعة والمركبة من 58% نيتروغليسرين و 37% نيتروسليلوز و 5% فازلين وأقام عليها دعوى في العام 1894 ولكن الحكم الذي صدر في العام 1895 كان ضده، ونقل نوبل مخبر سفران في عام 1890 إلى سان ريمو في إيطاليا، حيث استقر فيها في عام 1895.

وقد قضى نوبل حياته عازبا، وبالتالي لم يكن له وريث مباشر، وبالرغم من أنه أسس مع إخوته المقيمين في بطرسبرج "شركة بترول باكو" فإنه لم يكن على علاقة طيبة معهم، وكان يعتبرهم مغامرين فاشلين في حقل الاستثمار بالرغم من أن شركة بترول باكو التي كان هؤلاء الإخوة ينقلون نفطها على مراكب صهاريج في نهر الفولجا كانت تدر عليه المال..

كان نوبل عدوا أيضا لنقل الثروات بالوراثة وقد كتب "إنها تذهب غالبا إلى عاجزين ولا تحمل إلا المصائب بما تخلقه في نفوس الورثة من ميل إلى البطالة". وإضافة إلى ما تمتع به ألفريد من ثروة طائلة، فإنه كان يجيد عدة لغات بالإضافة إلى السويدية، وكانت طبيعته أقرب إلى التشاؤم إذ كان يدرك تماما مدى خطورة اختراعاته في أيدي السلطات العسكرية، الأمر الذي دعاه لتأييد العديد من المنظمات التي كانت تعمل من أجل السلام في أوروبا.

وقال ألفريد في أكثر من مناسبة إنه لم يكن يقصد أن يكون مخترعا يسعى للتدمير والقتل، بل كان يهدف إلى أن يستخدم ما اخترعه في استخدامات مدنية بحتة.. وقد أحدثت بالفعل اختراعاته ثورة في عالم التعدين، وبناء الطرق وشق الأنفاق.. ورغم الثروة الهائلة التي امتلكها نوبل إلا أن حياته اتسمت بالجد والتقشف.. تلك الحياة التي قضى معظمها في السفر المستمر بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى والنمسا والولايات المتحدة؛ مما حال بينه وبين التفرغ التام لعمله العملي الذي أحبه، ليتمكن من إدارة دفة الأعمال التي خلقتها اختراعاته، فكان يشرف من مركزه العام بباريس على تكوين الاتحادات وإنشاء المصانع ومعامل البحوث، وتشكيل منظمات البيع، وتحققت لنوبل الريادة في مجال تنمية الائتمان الصناعي مثل "جون د. روكفلر" واستطاع أن يشهد نهضة مؤسساته في أرجاء العالم.

لقد اهتم نوبل بالحركة السلمية وخاصة بعد أن التقى في عام 1876في باريس ببرتاكينسكي لبارن فون سوتنر، وأنشأ مراسلات مستمرة معها، وبينما كان شعار برتاكينسكي سوتنر (1914-1834) التي نالت جائزة نوبل للسلام في عام 1905 "تسقط الأسلحة" وهو عنوان الرواية التي ألفتها في عام 1889، كان نوبل يعتبر أن حماية السلم تتم برعب الأسلحة، ودعا الدول الكبرى الأوروبية إلى أن تجهز بوسائل كفيلة بردع البلد الذي يبدأ النزاع. وقد كتب في رسالة إلى برتاكينسكي سوتنر "ربما أمكن لمعاملي أن تضع نهاية للحروب، قبل جميع برلماناتكم، ففي اليوم الذي يمكن فيه لجيشين أن يحوزا على ما يبيد فيه كل منهما الآخر في ظرف ثانية واحدة، فإن جميع الأمم المتحضرة ستتراجع أمام هذا الرعب الهائل وتسرح جيوشها".

لعل نوبل كان يرد أيضا على الاشتراكيين والديمقراطيين المسالمين الذين كانوا يشنون عليه حملة عنيفة ويعتبرون مخترعاته ومعامل متفجراته مسؤولة عن كل ما ستسببه حروب المستقبل من دمار.

ويقال إن نوبل ندم على اختراع مادة الديناميت؛ لذا ترك عند وفاته وصية أوقف فيها مبلغ مليون جنيها استرلينيا كي تمنح من فائدته جوائز سنوية لأحسن عمل في كل ميادين الطب والفيزياء والفسيولوجيا والأدب، وفي عام 1969 أضاف القائمون على الجائزة ميدان الاقتصاد.

وعلى الرغم من الشهرة التي بلغها في حياته – ليس فقط كمخترع وإنما أيضا كرجل أعمال – فقد كان يؤلمه دائما أن يكون محط أنظار

الجماهير، ولهذا كتب في إحدي المناسبات يقول: "لست أرى أنني أستحق الشهرة كما أنني لا أستسيغ ضوضاءها"، وكان ينظر إلى المناسبات الرسمية بفزع. والواقع أن نوبل كان رجلا منطويا على نفسه يكثر من التفكير في رفاهية الجنس البشري بصفة عامة، ولكنه كان شديد التحفظ نحو معظم الأشخاص الذين قابلهم. كان يعتقد أن كل شخص كان يكرهه، لهذا كتب عن نفسه في إحدى المناسبات فقال "إنني أكره الناس ولكني شديد الإحساس.. إنني غريب الأطوار جدا، ولكني مثالي".. ويبدو أن هذه القوى المتناقضة كانت تتحكم في حياته المشحونة بالمتاعب والوحدة ككثير من الأشخاص الذين يعانون من الشقاء معظم وقتهم، كان نوبل يميل إلى المبالغة في وصف حالته، بل لقد استطاع إقناع نفسه بأن منظره منفر، والواقع أن من عرفوه قالوا إنه لم يكن جميلا ولكنه لم يكن قبيحا أيضا. كانت جبهته عالية وعيناه نفاذتين، ولئن كان الناس يشعرون بالفزع منه أحيانا، فإنما كان ذلك بسبب ما كان يبدو على وجهه من صرامة وجدية دائمتين. كان قصير القامة، ولذلك كان يبدو أكثر قصرا بسبب ضعف سلسلته الفقرية الذي جعله يمشي منحني الظهر. وكان هذا واحدا من جملة الأمراض التي أصيب بها في طفولته وما رافقها من نوبات ألم، وصداع بلا سبب، بل إنه حينما أصبح شابا كان يبدو هزيلا دائما، وحينما بلغ الثالثة والأربعين من عمره كان يصف نفسه بأنه كسيح "عجوز".

ولا شك أن سوء صحة "نوبل" كان له تأثير كبير في تشاؤمه، كذلك فإن اختراعاته التي نشرت صناعة المفرقعات في العالم جعلته يتصل ويتعامل مع كثيرين ممن لا أخلاق ولا قيم لديهم. وقد خدعه كثيرون وقاضوه

وسرقوه. وبالإضافة إلي ذلك شعر "نوبل" بأن الناس يسيئون فهم عمله على أوسع نطاق إذ كان يعتبر المفرقعات طوال حياته أداة للسلام، ولكن الناس اعتبروه "ملك أسلحه الدمار". وقد اعتاد أن يشير إلى شهرته أي إلى "اسمه الذي تنبعث منه رائحة البارود" باعتباره "نكتة" دنيوية تطلق عليه وهو يعمل في معمله الهادىء. ومع أنه كان يستطيع أحيانا التحلي بالظرف وسرعة الخاطر والفصاحة، إلا أن أخلاقه في رفقة الآخرين كانت تنطوي عادة على قدر كبير من احتقار الذات، وكان يقضي كثيرا من وقته وحيدا إما منشغلا بتجارته أو قارئا في دواوين الشعر أو كتب الفلسفة، وكان شيللي أحب الكتاب إلى نفسه، لما كان يكتب قصائد شعرية انطوائية أو موضوعات نثرية ركيكة باللغة السويدية والإنجليزية.

عاش ألفريد وحيدا في ذاته وازدادت معاناته الداخلية، ليتماهى مع هاملت وعلاقته بأوليفيا، ولكنه علي نقيضه يتحرر من الحب ويسترد قدرا من هدوئه العقلي؛ فلم يعد يهتم بالنساء ما عدا أمه التي كان لا يهتم بشيء سوى سلامتها ورفاهيتها لتعوضه بحنانها عن حبه المفتقد وغياب الصداقة الحقيقية، فعلى الرغم مما كان يتمتع به من ذكاء ومعرفة وشهرة فإن انقباض الصدر المتأصل في مزاجه وانعدام مرحه، والإحساس بالسخرية من نفسه كان يتزايد بنسبة تزايد شهرته.. وقد أثرت كل في علاقته بالناس، فقد كتب مرة في إحدى رسائله: "إنك تشير إلى أصدقائي الكثيرين؛ فأين هم؟.. أتراهم في تلك الهاوية الموحلة من الأوهام الضائعة، أم تراهم منصرفين إلى الاستماع لرنين الدراهم التي اقتصدوها؟". ولم تكن صور التكريم أو الاحتفاء تروق لنوبل، وكان يرفض التقاط صورة أو

الإدلاء بحديث لمجلة أو صحيفة، حتى إنه كتب ذات مرة: "لا أظن أنني أستحق أية شهرة، كما أنني لا أشعر بأية رغبة في تذوق دويها".

وعاش نوبل وحيدا لا منزل ولا أسرة، يعاني الاغتراب والإحساس الدائم بالوحدة والوحشة.. يختفي لفترات طويلة ثم يعاود الظهور مرة أخرى ليزاول عمله بنشاط ودأب.. وقضى نوبل معظم حياته خارج وطنه؛ لذلك اشتهر بأنه أكثر الجوالين ثراءً في أوروبا، وقبل وفاته بثلاثة أعوام اشترى منزلا في موطنه السويد ليقضي فيه بقية حياته، محاولا أن يلئم الصدع الداخلي.. بين غربة السنوات التي شارفت على الستين عاما.. وما تبقى من هذا العمر الحافل بالعطاء العلمي الذي غير مجرى العديد من الصناعات المدنية، والذي عرفت الأجيال اللاحقة قيمة ما أنجزه الرجل المثالي في القرن التاسع عشر، والتي باتت حياته الخاصة لغزا لأقرب أصدقائه ومعارفه.. يقول نوبل في رسالته إلى معشوقته الأخيرة "صوفي": "إنني إذ أضطر الآن إلى الاندماج مع أناس آخرين، فإنني لا أستطيع مع الأسف ألا أرى الضرر البالغ الذي أصابني بسبب النقص الفاحش الذي عانيته في حياتي الاجتماعية في السنوات الأخيرة.. إنني أشعر بغباوة شديدة، وبأنني غريب عن الأوساط الاجتماعية بحيث أراني مضطرا لتجنب الناس الذين أقابلهم، وإني مدين بذلك لانطوائي التعس علي نفسي.. ولعلي لن أسترد ثانية قوتي الفعلية السابقة".

عندما طلب "لودفيج نوبل" من أخيه ألفريد أن يكتب تاريخ حياته، فكتب ما يلي:

"ألفريد نوبل: نصف إنسان، ضئيل، كان ينبغي أن يشرف على ولادته طبيب من أهل الخير، يخمد أنفاسه الأولى ويقضي عليه يوم قدم صارخا إلى هذه الدنيا.. مزاياه: ينظف أظافره، ولا يحب أن يثقل على أحد.. نقائصه وعيوبه: بغير أسرة، كئيب، سيىء الهضم.. أهم رغباته، بل ورغبته الوحيدة: ألا يدفن وهو على قيد الحياة. الحوادث المهمة في حياته: لا شيئ.. ومع الأسف لم يتحقق ما صبا إليه "ألفريد" من طمأنينة وثقة للمتطلعين إلى المثل العليا، فرحل عن الدنيا في العاشر من ديسمبر عام 1896م.

مؤسسة نوبل.. الشروط والقانون

مؤسسة "نوبل" أنشئت طبقا لشروط وصية الدكتور "ألفريد برنارد نوبل" التي حررت يوم 27 من نوفمبر 1895. وقد صدر قانون المؤسسة بالقصر الملكي باستكهولم في 9 يونيو 1900. وقد نصت وصية "نوبل" على ما يأتي:

"يصير التصرف فيما تبقى من أملاكي المعترف بها على النحو التالي: يستثمر رأس المال بمعرفة القائمين على تنفيذ وصيتي في أسهم مأمونة، وينشأ صندوق توزع فائدته سنويا في شكل جوائز تمنح للأشخاص الذين قدموا أعظم نفع للجنس البشري في العام السابق، وتقسم الفائدة المشار إليها إلى خمسة أقسام متساوية تخصص على النحو التالي: جزء للشخص الذي يصل إلى أهم اكتشاف أو اختراع في حقل الطبيعة، وجزء للشخص الذي يقع على أهم اكتشاف أو تحسين كيميائي، وجزء للشخص الذي يحقق أهم اكتشاف في مجال الفسيولوچيا أو الطب، وجزء للشخص الذي ينتج أبرز عمل في مجال الأدب يتجه إلى المثالية، وجزء للشخص الذي يؤدي أحسن عمل لتحقيق الإخاء بين الشعوب، ولإلغاء أو خفض عدد الجيوش الموجودة وعقد وتنشيط مؤتمرات السلام.. ويجب أن تمنح جوائز الطبيعة والكيمياء بمعرفة الأكاديمية السويدية للعلوم، وجائزة الفسيولوچيا أو الطب بمعرفة معهد كارولين باستكهولم، وجائزة الأدب بمعرفة الأكاديمية

في استكهولم، وجائزة أبطال السلام بمعرفة لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص ينتخبهم البرلمان النرويجي، وإني أرغب ألا يقترن منح الجوائز بأي اعتبار مطلقاً فيما يتعلق بجنسية المرشحين، وأن يحصل أكثرهم جدارة على الجائزة سواء أكان اسكندنافيا أم لا".

-1-

تتولى مؤسسة نوبل تنفيذ شروط وصيته مسترشدة في ذلك بالنصوص التي هي أكثر تفصيلا الواردة في هذا القانون، وفي وثيقة التسوية التي تمت مع أشخاص معينين من ورثة الوصية يوم 5 من يونيو سنة 1898 وأعلنوا فيها، بعد أن تم الاتفاق حول جزء صغير من أملاك الدكتور نوبل، إنهم "يعترفون بوصية الدكتور نوبل ويتخلون بلا قيد ولا شرط عن أنفسهم وعن ورثتهم ، وعن كل مطالب أخري في ممتلكات الدكتور نوبل وكل مطالبة بالاشتراك في إدارتها، وبالمثل عن كل حق في الاعتراض على أية تفسيرات أو إضافات للوصية أو علي أية نصوص أخرى تتعلق بتنفيذها أو أية كيفية يستخدم بها عائد الاستثمار الذي أصبح الآن وسيصبح مستقبلاً خاضعا للتاج أو لأي شخص مختص، مع مراعاة التحفظات التالية:

(ا) يجري وضع القانون الأساسي الخاص بهيئات منح الجوائز وبكيفية منحها وشروطه طبقا لما ورد في الوصية، بالتشاور مع ممثل تختاره أسرة "نوبل" على أن يخضع هذا القانون لموافقة التاج.

(ب) عدم الخروج على المبادئ الرئيسية التالية: منح كل جائزة من الجوائز السنوية التي أنشأتها الوصية مرة واحدة على الأقل في خلال كل خمس سنوات ابتداءً من السنة التالية مباشرة – بما فيها هذه السنة التي تبدأ مؤسسة نوبل نشاطها فيها – ولا تقل قيمة الجائزة بحال من الأحوال عن ستين (60) في المائة من ذلك الجزء من الحصيلة السنوية للصندوق الذي سيخصص للمكافأة، ولا يجوز تقسيمه إلى أكثر من ثلاث جوائز على أكثر تقدير.

–2–

المقصود بـ "أكاديمية استكهولم" الواردة في الوصية: الأكاديمية السويدية.. ولن يصدق بلفظ "الأدب" الرسائل البليغة فقط وإنما يدخل في ذلك أيضا الكتابات الأخرى التي تحتوي على قيمة أدبية بحكم محتوياتها أو شكلها.. وينبغي أن يفهم النص الوارد في الوصية والقاضي بأن يكون منح الجوائز السنوية عن أعمال "تمت في أثناء السنة السابقة" بمعنى أن الجوائز ستمنح عن أحدث الإنجازات في مجالات الثقافة المشار إليها في الوصية وعن الأعمال الأقدم التي لم تظهر أهميتها إلا حديثا فقط..

–3–

لا يجوز النظر في منح الجائزة إلا للإنتاج المكتوب والمطبوع.

–4–

يجوز تقسيم الجائزة بالتساوي بين عملين يمكن أن يعتبر كل منهما صالحا للحصول على الجائزة.

– وإذا أنتج شخصان أو أكثر معا عملا يمكن أن يحصل على الجائزة، فتمنح لهم الجائزة مشاركة.

– والعمل الذي أنتجه شخص توفي لا يمنح جائزة، إلا إذا حدثت الوفاة بعد تقديم الاقتراح وبالطريقة المنصوص عليها وكان العمل يستحق الجائزة؛ فيجوز منح الجائزة في هذه الحالة.

– من حق كل هيئة من هيئات منح الجوائز أن تقرر ما إذا كانت الجائزة التي تتولى منحها تمنح لمعهد أو جمعية.

–5–

لا يجوز أن يمنح أي عمل جائزة مالم تثبت التجربة أو الفحص المتخصص أن له أهمية بارزة على النحو الذي حددته الوصية، وإذا رئي أنه لا يوجد بين الأعمال التي فحصت عمل تتوافر فيه الخصائص المبينة هنا، فيحتفظ بقيمة الجائزة للعام التالي، إذا لم يمكن منح الجائزة في العام التالي يضاف المبلغ للصندوق الرئيسي، إلا أنه يجوز – بدلاً من ذلك – وضع ثلثي الجائزة في صندوق خاص بقسم الجائزة، بشرط أن يقرر ذلك أربعة أخماس الأشخاص المشتركين في إصدار القرار.. ويدار هذا الصندوق الخاص بالاشتراك مع الصندوق الأساسي، ويجوز استخدام حصيلته بموافقة

الهيئة المانحة في غير منح الجوائز، وإنما لتحقيق الأغراض النهائية التي أرادها صاحب الوصية (الإعلان الملكي المؤرخ 9 من نوفمبر عام 1934).

-6-

تعين هيئة منح الجائزة بكل قسم سويدي "لجنة نوبل" من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أشخاص لإبداء رأيها في موضوع منح الجوائز، أما النظر في منح جائزة السلام فتتولاه لجنة البرلمان النرويجي المشار إليها في الوصية، وليس من الضروري أن يكون المرشح لعضوية إحدي لجان "نوبل" رعية سويدية أو عضوا في المعهد الذي تتبعه اللجنة، ويجوز أن يصبح أشخاص غير نرويجيين أعضاء في اللجنة النرويجية. ويحصل عضو لجنة نوبل على مكافأة معقولة تحددها الهيئة التي تتولى الفصل في هذه الشئون، مقابل العمل الذي يؤديه العضو.. وفي حالات خاصة، وحينما يرى ذلك ضروريا، يجوز لهيئة منح الجائزة تعيين خبير يشترك كعضو في مشاورات وقرارات لجنة نوبل (الإعلان الملكي المؤرخ في 9 من يونيو عام 1922).

-7-

من الضروري، لإمكان النظر في منح الجائزة، أن يزكي المرشح شخص كفء لذلك، على أن تكون التزكية كتابة، ولن يلتفت إلى الطلبات التي يقدمها أشخاص يطلبون منحهم الجائزة، ويتمتع بصلاحية تقديم الاقتراحات الأشخاص البارزون الوطنيون والأجانب، في ميادين الثقافة المحددة طبقا للتعليمات التفصيلية التي تصدرها هيئة منح الجائزة. وفي كل

عام تقوم الهيئة المانحة للجائزة بفحص الاقتراحات التي قدمت لها في أثناء الاثنى عشر شهرا التي تنتهي في أول فبراير، فإذا وجدت الهيئة أن لديها – بالإضافة إلى قيمة الجائزة المستحقة عن العام الحالي – نقودا لجائزة متوافرة طبقا للفقرة (5) فإن موضوع منح الجائزة الأولى يجب أن يبت فيه قبل أن يتخذ قراراً بشأن المبلغ المحتفظ به من العام الماضي (الإعلان الملكي المؤرخ في 9 من نوفمبر عام 1934).

–8–

يجب أن تؤيد المقترحات بالأدلة، وأن تقترن بالكتابات والوثائق الأخرى المشار إليها.

وإذا لم يقدم الاقتراح بإحدى اللغات الإسكندنافية أو بإحدى اللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو اللاتينية، أو إذا كان التقدير التام للعمل المقترح يدعو الهيئة التي تمنح الجائزة إلى الإلمام بمحتويات العمل (الإنتاج الأدبي) وكان هذا الإنتاج بلغة تسبب ترجمتها متاعب كثيرة أو تتطلب تكاليف كثيرة، فلن تكون الهيئة التي تمنح الجوائز ملزمة بالنظر في هذا الاقتراح.

–9–

في يوم الاحتفال بعيد المؤسسة، وهو اليوم العاشر من ديسمبر عيد ذكرى موت الموصي، تقدم الهيئات التي تتولى منح الجوائز لكل فائز شيكا بقيمة الجائزة، وشهادة، وميدالية ذهبية تحمل صورة الموصي مع عبارة

مناسبة. وإذا اتفق أن رفض أحد الفائزين جائزته، أو لم يحضر لتسلمها حتى اليوم الأول من أكتوبر من السنة الميلادية التالية لمنحه الجائزة مباشرة ولم يصرف قيمة شيك الجائزة طبقا للطريقة التي حددها المجلس، تعود قيمة الجائزة إلى الصندوق الأساسي، إلا أنه يجوز حين عقد اجتماع الهيئة المانحة لجائزة نوبل –النظر في منح جائزة السنة الأخيرة المشار إليها أن يقرر أربعة أخماس أعضاء الهيئة أن يدفع ثلثي قيمة الجائزة في صندوق خاص لهذا القسم كما هو موضح في الفقرة (5).

ويجب علي الفائز بالجائزة أن يلقي، كلما كان ذلك مستطاعا، محاضرة عن موضوع الإنتاج الذي منحت الجائزة من أجله، وذلك في مدى ستة أشهر تحسب من يوم الاحتفال بعيد المؤسسة باستكهولم، أما بالنسبة لجائزة السلام فيلقى هذ الخطاب في كريستيانيا (أوسلو) (الإعلان الملكي المؤرخ يوم 24 من سبتمبر عام 1937).

–10–

لا يجوز الاعتراض على قرار الهيئة المانحة الجائزة، وإذا حدث تعارض في الرأي فلا يجوز تسجيله في المحاضر أو إعلانه.

–11–

للحصول على المساعدة في الفحص الضروري، الذي تتولى الهيئة مانحة الجائزة القيام به، أو للارتقاء بأغراض المؤسسة بطرق أخرى، يجوز

لهذه الهيئات إنشاء معاهد علمية وغيرها من المنشآت.. ويطلق على هذه المعاهد والمنشآت التابعة لمؤسسة نوبل "معاهد نوبل".

-12-

يخضع كل معهد من معاهد نوبل لتوجيه الهيئة مانحة الجائزة التي أنشأته.. وتتمتع المعاهد بالحرية والاستقلال في التنظيم والتمويل، ولذلك لا يجوز استخدام مخصصاتها في الإنفاق على منشآت هيئات أو معاهدات تابعة لمنظمات أخرى، كذلك لا يجوز لأحد العلماء الذين يشغلون منصبا له أجر دائم في إحدى معاهد نوبل السويدية أن يشغل منصبا مماثلاً في معهد آخر، مالم يصدر التاج ترخيصا بذلك في هذه الحالة الخاصة.. وتقام معاهد نوبل في موقع واحد مشترك أو تنظم بطريقة تحقق الانسجام، إذا رأت الهيئات مانحة الجوائز أن ذلك مناسبا.. ويجوز أيضا لمعاهد نوبل استخدام رجال ونساء من الأجانب.

-13-

يحجز ربع الدخل من المبلغ العائد من الصندوق الرئيسي الذي يوضع تحت تصرف كل قسم من أقسام الجائزة في كل عام فلا يجري توزيعه، وبعد تغطية المصروفات العاجلة لتوزيع الجائزة، يستخدم 5/1 المبلغ المحتجز لتغطية مصروفات كل قسم وصيانة معاهد نوبل التابعة له، والمبالغ التي لا تدعو إليها الحاجة لمصروفات العام تدخر لاحتياجات المعهد في المستقبل.

-14-

يتولى تمثيل المؤسسة مجلس يكون مقره "استكهولم"، ويتكون من خمسة رجال سويديين أحدهم – وهو رئيس مجلس الإدارة – يعينه التاج، أما الباقون فيعينهم الأمناء الذين ينتخبون بمعرفة الهيئات المانحة الجوائز، ويختار المجلس أحد أعضائه ليكون مديرا تنفيذيا.. ويعين نائب للعضو الذي يرشحه التاج واثنان للأعضاء الآخرين، ومدة خدمة أعضاء المجلس، الذين ينتخبهم الأمناء ووكلاؤهم عامان ابتداءً من اليوم الأول من مايو.

-15-

يتولى المجلس إدارة الصناديق والموارد الأخرى وغيرها من الأملاك التابعة للمؤسسة بشرط أن تكون جميع هذه الموارد مشتركة بين الهيئات مانحة الجوائز.. ويتولى المجلس دفع قيمة الجائزة التي تقرر للشخص الذي منحت له طبقا لهذا القانون، ودفع التكاليف اللازمة لتوزيع الجوائز، أو لمعاهد نوبل، أو للأغراض الأخرى، وإذا طلب إليه ذلك، فإن على المجلس أيضا تقديم المساعدة للأشخاص الذين يتعاونون مع المؤسسة في الشؤون التي تتصل بها في غير المجال العلمي.

ومن حق المجلس تعيين مندوب لأداء الإجراءات القانونية نيابة عن المؤسسة، وللدفاع عنها أو تأييد مبادئها، ويجوز للمجلس أيضا استخدام المساعدين الذين يرى أنهم لازمون لإدارته، وتحديد فئات مرتباتهم ومعاشاتهم.

-16-

تعين الهيئات مانحة الجوائز لمدة عامين كاملين خمسة عشر أمينا، تقوم الأكاديمية السويدية باختيار ستة منهم، وتختار كل هيئة من هيئات منح الجائزة ثلاثة. ويعين الوكلاء للقيام بأعمال الأمناء حينما تدعو الضرورة لذلك، ويكون عددهم أربعة بالنسبة للأكاديمية العلمية واثنين لكل من الهيئات الأخرى مانحة الجوائز وينتخب الأمناء رئيس مجلس الإدارة من بينهم، ويتولى أقدم الأمناء في خدمة أكاديمية العلوم، دعوة الأمناء للاجتماع وانتخاب رئيس مجلس الإدارة.. ويجب أن يكون العدد القانوني من الأمناء – وهو تسعة – كاملا، حتى يمكن اتخاذ قرار، وإذا أهملت إحدى الهيئات مانحة الجوائز في تعيين الأمناء فلا يمنع ذلك من أن يصدر الأمناء الآخرون القرارات في الشؤون التي تعرض عليهم، وإذا كان أحد المندوبين مقيما في مكان غير المكان الذي سيعقد الاجتماع فيه، فإن من حقه الحصول على مبلغ معقول لتغطية مصروفات حضور هذا الاجتماع.

-17-

يتولى خمسة محاسبين إدارة حسابات المجلس عن كل سنة ميلادية، تعين كل هيئة من الهيئات مانحة الجوائز واحدًا منهم قبل انتهاء هذا العام، ويعين التاج واحدًا يقوم أيضًا بأعمال رئيس مجلس المحاسبين، ويقدم تقريرًا عن إدارة المجلس لرئيس مجلس المحاسبين قبل انتهاء شهر فبراير. وبعد ذلك يستمر المحاسبون في استكمال أعمالهم قبل أول أبريل، ثم يقدمون تقريرهم إلى أمناء الهيئات مانحة الجوائز، وينبغي أن يشتمل تقرير المحاسبين – الذي

يجب أن ينشر في الصحف – على عرض للكيفية التي استخدمت فيها موارد الصناديق الخاصة.. وإذا أهملت إحدى الهيئات مانحة الجوائز تعيين محاسبها، أو لم يحضر المحاسب بعد استدعائه لحضور أحد الاجتماعات، فلا يمنع ذلك بقية المحاسبين من القيام بدراساتهم.

–18–

من حق المحاسب الاطلاع في أي وقت على الدفاتر والحسابات وغيرها من وثائق المؤسسة، ولا يجوز للمجلس أن يرفض تقديم أية معلومات يطلبها المحاسب عن إدارة المؤسسة. وعلى المحاسبين فحص ومراجعة جميع أسهم المؤسسة مرة واحدة على الأقل في السنة. ومن حق وزير التعليم العام أو الشخص الذي ينوب عنه، الاطلاع على جميع وثائق المؤسسة.

–19–

على أساس تقرير المحاسبين، يجوز للهيئات مانحة الجوائز أن توافق وتقر القوانين والإجراءات التي يضعها المجلس، أو تتخذ إجراءات ضد المجلس أو أي عضو من أعضائه إذا استدعى الأمر ذلك، فإذا لم يتخذ أي إجراء في مدى عام ويوم من تاريخ تسليم تقرير المجلس للمحاسبين، فيكون هذا بمثابة إقرار وموافقة على القوانين والإجراءات التي وضعها المجلس.

-20-

يحدد التاج مرتب المدير التنفيذي ومكافآت معقولة لأعضاء المجلس والمحاسبين، أما التعليمات الخاصة بالإدارة ولم ينص عليها في هذا القانون فتصدر في لوائح خاصة يصدرها التاج.

-21-

يضاف 10/1 (عُشر) الدخل السنوي المستمد من الصندوق الرئيسي إلى رأس المال كل سنة وتضاف إلى هذا الصندوق أيضا الفائدة العائدة من مبالغ الجوائز حتى وقت دفعها لمن فازوا بها، أو تضاف إلى الصندوق الرئيسي أو الصناديق الخاصة طبقًا لما ورد في الفقرة (5).

-22-

من حق أية هيئة من الهيئات مانحة الجوائز أن تثير الموضوعات الخاصة بإجراء تغييرات في هذا القانون، ويتمتع بهذا الحق أيضًا النائب عن الهيئة مانحة الجائزة أو المجلس. وبالنسبة للمقترحات التي تقدمها إحدى الهيئات مانحة الجوائز أو المجلس، ينبغي أن يبدي الأمناء رأيهم فيها. وتشترك الهيئات مانحة الجوائز والمجلس في الإجراءات الخاصة باتخاذ قرار في أي اقتراح مقدم، ويكون لأكاديمية العلوم صوتان، أما الهيئات الأخرى مانحة الجوائز والمجلس فيكون لكل منها صوت واحد، وإذا لم يحصل الاقتراح على أربعة أصوات على الأقل، أو إذا كان التغيير سيمس حقوق وسلطات هيئة واحدة فقط مانحة للجوائز، ولم توافق هذه الهيئة على

الاقتراح وجب رفض الاقتراح. وفي الحالات الأخرى يقدم الاقتراح بمعرفة المجلس إلى التاج للنظر فيه.. وإذا تأخرت إحدى الجهات عن إبداء رأيها في اقتراح مقدم، وفي مدى أربعة شهور من إخطارها به، فلا يمنع ذلك من اتخاذ قرار في هذا الاقتراح.

قانون مؤقت

1- بمجرد إقرار التاج لقانون المؤسسة، تقوم الهيئات مانحة الجوائز بتعيين العدد المنصوص عليه من الأمناء للفترة التي تنتهي يوم 31 من ديسمبر عام 1901، على أن يجتمع هؤلاء في أسرع وقت مستطاع في "استكهولم" بغية انتخاب أعضاء مجلس المؤسسة. وحين حساب مدة الخدمة لهؤلاء الأعضاء بالمجلس الذين يعينون لأول مرة ينبغي أن يلاحظ ما يلي:

أولاً: إنه ينبغي أن يضاف إلى ما يوصف بمدة الخدمة المفروضة أن تبدأ من الأول من مايو 1901 الفترة التي تنقضي بين الانتخاب واليوم المذكور. ثانياً: إنه يجب أن يتقرر بالإجماع أي عضوين هما اللذان سيتقاعدان بعد عام واحد اعتبارا من اليوم المذكور.

2- اعتبارًا من أول عام 1901 يتولى مجلس المؤسسة الهيمنة على ممتلكات المؤسسة، إلا أنه على حسب ما يراه القائمون على تنفيذ الوصية ضروريًا، فإن باقي إجراءات استلام التركة يجب أن تتم بمعرفتهم في غضون ذلك العام.

3- إذا أمكن ذلك، توزع جميع الأقسام لأول مرة في عام 1901 .

4- يؤخذ من أصول المؤسسة أولا: مبلغ 300.000 كرونر لكل قسم من أقسام الجوائز، أي بمجموع 1.500.000 كرونر يخصص هو وفائدته اعتبارا من أول يناير 1901، وعلى حسب ما يرى مناسبا، لتغطية تكاليف تنظيم معاهد نوبل.. ثانيا: المبلغ الذي يرى المجلس بالاتفاق مع الأمناء أنه ضروري لتغطية مصروفات مركز المؤسسة وقاعة الاجتماعات التابعة لها.. ومن حق الهيئات مانحة الجوائز أن تقرر إضافة مبلغ 300.000 كرونر المشار إليه والفائدة العائدة منه أو أي جزء منهما للصندوق الخاص بهذا القسم، فعلى جميع المختصين تنفيذ ما ورد في هذا القانون، وقد أمهرنا هذا القانون بتوقيعنا وخاتمنا الملكي.. صدر بالقصر الملكي باستكهولم في التاسع والعشرين من يونيو عام ألف وتسعمائة الميلادي. (أوسكار) نيلز كلايسون.

وفي 29 يونيو عام 1900 صدر بأمر من القصر الملكي باستكهولم قانون بالتعليمات الخاصة بالجوائز التي تمنحها الأكاديمية السويدية من مؤسسة نوبل.. من أهم النقط التي ذكرها هذا القانون:

- تعيين المرشحين للاشتراك في مسابقة الجائزة من حق: أعضاء الأكاديمية السويدية وغيرها من الأكاديميات الأخر ى والمعاهد والجمعيات المشابهة لها في التكوين والغرض، وأساتذة الأدب وتاريخ اللغة بالجامعات وكليات الجامعات، والفائزين السابقين بجائزة نوبل في الأدب، ورؤساء جمعيات المؤلفين المشتركين في الإنتاج الأدبي في دولهم (الأمر الملكي الصادر يوم 4 من مارس 1949).

– تعين الأكاديمية بمعهد نوبل التابع لها، الذي ستوجد به مكتبة كبيرة تحتوي أساسا على الأدب الحديث، أمينًا للمكتبة ومساعدًا أو أكثر. وإذا دعت الضرورة يتم تعيين موظفين ومساعدين حاصلين على دراسات في فن تنسيق المكتبات بعضهم مؤقت والبعض الآخر دائم يتولون إعداد الشؤون المتعلقة بالجوائز، وتقديم تقارير عن الكتب الأدبية الحديثة الصدور في الخارج، واتخاذ ما يلزم لترجمة المطبوعات الأجنبية. ويخضع معهد نوبل بالأكاديمية السويدية لمفتش يعينه التاج، ويكون خاضعا "مباشرة" لإدارة عضو الأكاديمية الذي ستعينه هذه الهيئة.

– من حق الأكاديمية استخدام حصيلة الصندوق الخاص لتنشيط الأعمال الأدبية التي تعتبر ذات أهمية ثقافية، وبخاصة في الميادين التي يجب أن توليها الأكاديمية اهتمامها وعنايتها، وذلك بغية تحقيق الأغراض النهائية للموصي، سواء أنتجت بالسويد أم بالخارج.

– من حق أعضاء الأكاديمية المقيمين في الأقاليم إرسال أوراق التصويت الخاصة بانتخاب الأمناء ويجب على الأكاديمية إجراء الانتخاب طبقا لقانون مؤسسة نوبل، إذا لم يستطيعوا حضور جلسة الانتخاب بأنفسهم.

– وحين اتخاذ قرارات في المسائل المتعلقة بمنح الجوائز، أو الاحتفاظ بالجوائز، أو وضع النقود المحتفظ بها في صناديق خاصة، فمن حق الأعضاء المقيمين بالأقاليم الذين يرغبون في الاشتراك في إصدار القرارات المطالبة بمصروفات الانتقال، وتحدد الأكاديمية قيمة هذه المصروفات.

– في الحالات التي لا تتمتع فيها الأكاديمية – طبقا لقانون مؤسسة نوبل – بالحق الوحيد في اتخاذ القرار، ويتقرر فيها صرف مكافأة لعضو من الأكاديمية غير بدل الانتقال أو الحضور المنصوص عليهما في البند (4) أعلاه وفي الفقرة 16 من قانون مؤسسة نوبل، يجب أن يعرض هذا القرار على التاج للنظر فيه وإقراره.

الجائزة والأكاديمية السويدية

نصت وصية "نوبل" أن يخصص الجزء الأكبر من ثروته لتكوين رصيد، توزع فوائده كجوائز للذين أدوا خدمات جليلة للجنس البشري في خلال كل عام،

وأن تقسم الفائدة إلى خمسة أقسام يمنح قسم منها للشخص الذي أنتج في ميدان الأدب أبرز عمل ذي اتجاه مثالي "وأن تتولى أكاديمية استكهولم منح هذه الجائزة".. وحددت الوصية أيضا مبدأ أو مبدأين عامين للإرشاد فيما يتعلق بالفائزين بالجوائز "أبدي رغبتي في أنه حين تمنح الجوائز لن يكون هناك أي لون من ألوان التفرقة العنصرية، وأن يحصل أحق الأشخاص على الجائزة سواء أكان اسكندنافيا أم لا".

ولكن الوصية لم تكن واضحة من بعض النواحي، فقد جاء فيها على سبيل المثال "الأكاديمية في استكهولم" مع العلم بأنه كان في استكهولم أكثر من أكاديمية، ومن الواضح أن "نوبل" كان يعني الأكاديمية السويدية.. وقد ترددت الأكاديمية نفسها في تحمل مسؤولية اختيار الفائز بالجائزة، إذ رئي أن الموضوع خارج اختصاص الأكاديمية وهو رعاية اللغة والأدب السويديين.. كذلك من المستحيل اختيار أحسن ما كتب من أدب العالم كله الذي يتم إنتاجه في عام كامل، ومن الناحية الأخرى فإن الأكاديمية لم ترغب في القضاء على الهبة برفضها تحمل مسؤوليتها ولذلك فإن سكرتيرها القوي "ك .د . اف ورسن" عالج هذا الموضوع وبعد مفاوضات طويلة

استطاعت الحكومة السويدية عام1900وضع القانون الأساسي لمؤسسة "نوبل". وتبين أن نصوص القانون تختلف في بعض النواحي عن المباديء التي أوردها "نوبل" في وصيته، فقد فسر النص القائل بمكافأة أحسن عمل في أثناء السنة "بأنه يعني آخر النتائج في المجالات التي ورد ذكرها في الوصية، وأنه يجوز منح الجائزة عن الأعمال التي هي أقدم إذا لم تكن نتائجها المهمة قد ظهرت إلا حديثا. ولفظ (أدب) لا يقصد به الرسائل أو المقالات الجميلة وإنما يدخل فيها أيضا الكتابات الأخرى التي تنطوي علي قيمة أدبية من ناحية الشكل وطريقة العرض".

في كل عام – في يوم من أيام شهر نوفمبر – يظهر في صحف العالم خبر يقول: "إن الأكاديمية السويدية منحت جائزة نوبل في الأدب عن ذلك العام".. ومع أن منح جوائز "نوبل" جاء أحدث من وجود الأكاديمية السويدية بنحو مائة وعشرين عامًا تقريبا، فما هي الأكاديمية السويدية؟ وبأي حق تمنح جوائز نوبل في الأدب؟

لقد أنشئت الأكاديمية السويدية في الخامس من أبريل عام 1786 وأقيم لذلك حفل رائع بمبنى البورصة الملكية باستكهولم. وقد أسسها ملك السويد "جوستاف الثالث" الذي كان مولعا بالثقافة الفرنسية، وقد أنشأ الأكاديمية السويدية على نمط الأكاديمية الفرنسية، بهدف المحافظة على اللغة والثقافة السويديتين. وحدد الملك عدد أعضائها، بثمانية عشر عضوًا يعين ثلاثة منهم، وكان يرغب في إضفاء المجد على أكاديميته الجديدة. وكان من بين الأعضاء الذين عينهم نحو أربعة من مستشاريه الخاصين وواحد

فقط من الأشخاص العاديين. وفي خطاب الافتتاح الذي ألقاه الملك شرح برنامج الأكاديمية وأعلن أسماء الأعضاء وذلك في فصاحة، ثم تلا قانون الأكاديمية – ومازال الجانب الأكبر منه ساريًا حتي الآن – وبعدئذ وقعه الملك والأعضاء.. وجلس الأكاديميون حول منضدة كبيرة، وألقى كل منهم خطاب افتتاح قصيرا، وكان آخرهم المربي الخاص لولي العهد "فون روسنستين" الذي عينه "جوستاف الثالث" سكرتيرًا دائمًا للأكاديمية. وأخيرا أعلن السكرتير موضوعات المسابقة في البلاغة والشعر، وكانت الجوائز مكونة من ميداليات ذهبية تقدم في احتفال الأكاديمية السنوي الكبير يوم 20 من ديسمبر، وهو عيد ميلاد جوستاف الثاني.

وكانت الأكاديمية السويدية هي الوحيدة بين جميع الأكاديميات الموجودة في السويد التي لم تمنح لقب "ملكية" وإن كان المحتمل أنها أكثر قربا من قلب الملك، وقد ظلت تؤدي عملها في القصر الملكي سنوات كثيرة.

ومن أجل استقلال الأكاديمية حتى لا تتعثر ماليا أو تطلب إعانات خصص لها الملك "جوستاف الثالث" موارد الدخل، فمنحها حق استثمار الجريدة الرسمية، بوست – أوك انريك تيدننجار (وكانت حين ذاك جريدتان إحداهما للأنباء الخارجية والأخرى للأنباء الداخلية والإعلانات الرسمية.. وغيرها). ومازالت الأكاديمية السويدية تملك هذه الجريدة التي أنشئت منذ عام 1645 وهي أقدم صحف العالم، أما اليوم فإنها لا تحتوي إلا على الإعلانات الرسمية. وحصلت الأكاديمية أيضًا على حصص من الغرامات

التي كانت تدفع للملك مباشرة، وقد استعيض عن هذا المورد بعد بضع سنوات، بمنحة من الدولة مازالت محددة، وهي الإعانة الوحيدة التي تدفعها الدولة. ووهب الملك أيضًا منحًا دراسية للأعضاء، وتشمل مصروفات الأكاديمية ميدالية سنوية احتفالًا بسويدي ذي كفاءة بارزة يكتب عنه أحد أعضاء الأكاديمية السويدية مقالًا تذكاريًا، وهي عادة مازالت متبعة حتى الآن.

وقد حددت واجبات الأكاديمية في القانون وكان من أهم أهدافها "تنمية نقاء اللسان السويدي وقوته ونبله"، على أن يحقق ذلك عن طريق إقامة مسابقات في الخطابة والشعر وإعداد كتابات نموذجية بأقلام أعضاء الأكاديمية، ونصائح للكتاب عن كيفية استخدام اللغة استخداما صحيحا.. وقد أثارت المسابقات اهتماما كبيرا أثناء السنوات الأولى لإنشاء الأكاديمية وربح الملك "جوستاف الثالث" نفسه (بالإجماع) أول جائزة في روعة الإنشاء، إلا أن مسابقات الجائزة لا تنتج دائمًا عن روائع من هذا النوع وقد اتضح ذلك في مباريات الأكاديمية السويدية. ولم يلبث الاهتمام بهذه المباريات أن قل بعد السنوات الأولى، إلا أن مباريات الجائزة في موضوعات تحددها الأكاديمية استمرت حتى القرن العشرين.

ويعين أعضاء الأكاديمية السويدية مدى الحياة، ولو أنه حدث مرة أو مرتين أن استقال عضو قبل موته، ولقد جرت العادة أن يكون للأكاديمية نفسها انتخاب خلف للعضو الميت.. وكان كثيرون من الأعضاء الثمانية عشر الأصليين من كبار موظفي الدولة قد حصلوا على (فرسان

نيشان سيرافيم وهو أعلى نيشان سويدي). وأدخل "جوستاف الثالث" قدرًا من الديمقراطية في الأكاديمية، فالألقاب الرسمية غير مستخدمة هناك، فالأستاذ أو الشخص الذي يشغل منصبًا رفيعًا لا يطلق عليه في محاضر الجلسات غير لقب "هر" أي "مستر"، ويعقبه اسمه.. وتقتضي التقاليد من كل عضو جديد أن يتحدث عن العمل الذي قام به سلفه في أثناء حياته، في خطابه الافتتاحي، ويبدو أن هذا يؤثر أحيانًا في اختيار الأعضاء الجدد، إلا أنه كثيرا ما حدث أن خلف كاتب أحد العلماء، والعكس بالعكس.. ومنذ أيام الملك "جوستاف الثالث" نقص عدد أصحاب المناصب الرفيعة، ولكن النسبة بين مختلف الطبقات اختلفت كاختلاف النسبة بين الأعضاء المقيمين في استكهولم والمقيمين في الريف، وقد لعب هذا دورًا كبيرًا بسبب طول المسافات وبطء المواصلات، ولهذا كان عدد الأعضاء الذين يحضرون الاجتماعات قليلًا دائمًا، وكان نصف المقاعد يظل شاغرًا في أثناء الحفل الكبير.. ومن المعتاد أن يكون عدد من أعضاء الأكاديمية من الكتاب أو من العلماء أو كبار الموظفين الحكوميين ذوي الاتجاهات الأدبية.

وكان من الطبيعي أن تحدث أخطاء في الماضي؛ ولهذا لم يصبح عدد من كبار الكتاب أعضاء في الأكاديمية لسبب أو لآخر، فالشاعر "بلمان" مثلًا كان واحدًا من كتاب القرن الثامن عشر الذين لم يؤذن لهم بالدخول، وكذلك "شرندربج" وهو من الكتاب المعاصرين لإنشائها. ولقد صادفت أكاديميات أدبية أخرى مثل هذه الكبوات التي تدعو للأسف كالأكاديمية الفرنسية التي لم تنتخب "ديكارت" أو "موليير" أو "روسو" أو "زولا" إلا أن معظم كبار الكتاب السويديين كانوا ينتمون للأكاديمية السويدية على

كل حال، مثل "كلجرن" و"ليوبولد" في القرن الثامن عشر، و"تجنر" و"جيجر" و"والن" في القرن التاسع عشر، و"سلمى لاجيرلوف" و"هيدنستام" و"كارلفلدت" و"لاجر كفست" في القرن العشرين. وكانت سلمى لاجيرلوف أول سيدة أكاديمية. وفي القرن التاسع عشر، كان كثيرون يؤيدون بقوة انتخاب الشاعر "رونبرج" الفنلندي الذي كتب بالسويدية وولد حينما كانت فنلندا تابعة للسويد، ولكن الاقتراح أهمل لأسباب سياسية.

وقبل انتخاب عضو جديد في الأكاديمية السويدية لمقعد شاغر تجري مناقشة بين الأكاديميين حول مختلف المرشحين، وكانت هذه الإجراءات التمهيدية تتطلب مكاتبات مطولة في الماضي، ولكن هذه المسألة تعالج في الوقت الحاضر بشكل عاجل.. وينبغي حضور اثنى عشر عضوا في جلسة الانتخاب، أو أن يرسلوا أوراق اقتراعهم في المظروف مختوم بالشمع الأحمر، ويجري الاقتراع على مرحلتين. وإذا حصل أحد الأشخاص على الأغلبية في الاقتراع الأول، أخذت أصوات أخرى بواسطةكرات بيضاء وسوداء، فإذا كان عدد مرات الاقتراع السوداء الثالث – بأقل تقدير – سقط المرشح، إلا أن ذلك لم يحدث مطلقًا ولو أنه سجل وجود كرة أو اثنتين سوداوين في بعض الانتخابات، وإذا حصل مرشحان على عدد متساوٍ من الأصوات، أجري اقتراع جديد، وإذا ظلت الأصوات التي حصل عليها المرشحان متساوية أرجئت الانتخابات.. ويعرض اختيار الأكاديمية للعضو الجديد على راعي الأكاديمية وهو الملك، ويعلن المرشح

الناجح، ولم يحدث غير مرة واحدة فقط أن رفض الملك إقرار نتيجة الاقتراع.

ومنذ أكثر من مائة وثلاثين عاما جرت العادة أن يأخذ العضو الجديد – الذي تم اختياره – مكانه في الأكاديمية يوم عيدها، حيث يوقع على قانون الأكاديمية وهو وثيقة كبيرة يرجع تاريخها إلى عام **1876**، وقد وقعها الأكاديميون في ثمانية عشر سطرا، ويستغرق إعداد خطاب الافتتاح فترة من الوقت ولذلك جرت العادة بألا تنتخب الأكاديمية أحدًا في الخريف. وقد حدث أن تأخر عضو جديد عن شغل مقعده عدة سنوات، وفي إحدى المناسبات سقط أكاديمي جديد فريسة للمرض قبل الحفل الكبير بوقت قصير ولهذا قرأ عضو آخر خطابه. وإذا ارتكب أحد أعضاء الأكاديمية جريمة فإنه يطرد نهائيا، ولا يتم طرده إلا بالاقتراع، على أن يقر طرده ثمانية أعضاء على الأقل، ولكن هذا الإجراء لم يتم في تاريخ الأكاديمية حتى الآن. وتعقد الأكاديمية السويدية اجتماعات دورية خاصة وعامة.. وتعقد الاجتماعات الخاصة مرة في الأسبوع، باستثناء فترة فصل الصيف والعطلات، ولا يؤذن لشخص من الخارج بحضور هذه الاجتماعات، ولكن يجوز ذلك لحامي الأكاديمية أي (الملك) وهو أمر نادر الحدوث.. أما الاجتماعات العامة، فجرت العادة أن تعد هذه الاجتماعات في يوم حفل توزيع الجوائز فقط.

وتناقش في الاجتماعات الخاصة الدورية الأعمال الجارية كالأبحاث أو الدعوة لتعيين أعضاء في مختلف المجالس أو اللجان أو الاشتراك في عيد

إحدى الجمعيات، أو تمويل الأكاديمية، أو المطالبة بهبات نقدية أو التأييد، وغير ذلك. وتقدم الأكاديمية مبالغ ضخمة لمختلف الأغراض، كالطبعات السويدية للكتاب القدامى، كما تمنح عددًا من المنح الدراسية والجوائز الأدبية للكتاب والمترجمين والأشخاص الذين ساعدوا في استخدام اللغة السويدية على نحو صحيح. وقد أتاحت الهبة الكبيرة التي قدمها أحد النرويجيين للأكاديمية، فرصة منح الجوائز للكتاب النرويجيين أيضًا، وإن استند هذا المنح إلي اقتراحات الخبراء النرويجيين ، وهي تفعل ذلك منذ عام **1951**.

اختيار الفائزين وعند اختيار من سيمنحون الجائزة تنص الأكاديمية السويدية "يستعان بالخبراء من مختلف الجهات ومن معاهد نوبل " ، لذلك عينت الأكاديمية السويدية خبراء في آداب مختلف الدول (سلاف وفرنسيين وأسبان، وغيرهم) ملمين بأحدث الاتجاهات الأدبية في كل دولة، ويمكنهم تقديم الرأي فيمن يصلحون لنيل جائزة "نوبل" وأنشئت مكتبة أيضا بذل فيها اهتمام خاص بالأدب الأجنبي وتاريخ الأدب والأعمال والمراجع وكثير من المجلات الدورية، وقد وضعت مكتبة "نوبل" بالأكاديمية السويدية في قسم الأكاديمية بمبنى البورصة الملكية، كما استولت على جزء كبير في الطابق العلوي، ويوجد في المكتبة مئات الآلاف من المجلدات تستخدم بكثرة.

ولا يجوز لأحد أن يرشح نفسه للحصول على جائزة "نوبل" فمثل هذا الطلب يهمل ولا ينظر فيه. ويحدد قانون المؤسسة الذين يجوز لهم

ترشيح الفائزين بجائزة "نوبل" في الأدب، وحق ترشيح الأشخاص للمنافسة على جائزة مقصور على: "أعضاء الأكاديمية السويدية وغيرها من الأكاديميات والمعاهد والجمعيات المشابهة لها في النظام والغاية، وأساتذة الأدب وتاريخ اللغة بالجامعات والكليات التابعة للجامعة، والفائزين السابقين بجائزة "نوبل" في الأدب ورؤساء جمعيات المؤلفين ذات الإنتاج الأدبي في دولها".. "ويتم إرسال الترشيحات قبل اليوم الأول من فبراير من كل عام". ولقد أدت هذه العبارة الأخيرة إلى ضررين: أن الأكاديمية لا تستطيع أن تكافئ عملًا عظيمًا نشر في أثناء العام، كما أنها لا تستطيع النظر في الترشيحات التي ترد بعد أول فبراير أو التي قدمت في العام السابق ولم تكرر.

وبعد تلقي الترشيحات ينظرها خبراء الأكاديمية الدائمون، ولكن الأكاديمية تستطيع – إذا أرادت – الحصول على رأي الخبراء في الأدب الهولندي أو المجرى مثلا، وتحال هذه الآراء على لجنة خاصة بهذه الشؤون بداخل الأكاديمية – لجنة نوبل – التي تصدر حكمها في الخريف من كل عام.

ولا تنشر أسماء المرشحين ولا يمكن استئناف القرار، كما لا يحال على حامي الأكاديمية، ويصل نحو ثلاثين ترشيحًا في العام وهناك ترشيحات تتكرر عامًا بعد عام، وقد أثبتت التجارب أن الدأب والمثابرة يفوزان، ولكن كثيرًا من المرشحين البارزين ماتوا من غير أن يحصلوا على الجائزة.

وفي مناسبات كثيرة تقسم جوائز "نوبل" الأخرى بين العلماء الذين يعملون معًا، ولكن هذا التقسيم نادر الحدوث بين الأدباء والمفكرين، ولذلك لم تمنح جائزة "نوبل" في الأدب لأكثر من شخص منذ إنشائها إلَّا مرات قليلة عام 1904 حينما قسمت الجائزة بين الشاعر الفرنسي فريدريك ميسترال والكاتب المسرحي جيوزي إيشيغاري، وعام 1917 حينها قسمت الجائزة بين الكاتبين الدنماركيين جيلراب، وبمنوبيدان، وفي عام 1974 تقاسمها السويديان إيفنز جونسن، وهاري مارتنسون.

إذا لم يحصل أحد المرشحين على الغالبية الضرورية يمكن الاحتفاظ بالجائزة إلى العام التالي، وإذا لم تمنح في العام التالي أيضا عادت قيمة الجائزة إلى صندوق المؤسسة الرئيسي أو إلى الصندوق الخاص بهذه الجائزة، وتقدم الجائزة للفائز في يوم ذكرى موت "نوبل" وهو العاشر من شهر ديسمبر في حفل عظيم يقام بصالة الموسيقى باستكهولم. وفي مهرجان "نوبل" يقدم أحد أعضاء الأكاديمية السويدية الفائز الجديد بجائزة الأدب، الذي يتسلم حينئذ ميدالية ذهبية وشهادة تبين بإيجاز الأسباب التي دعت الأكاديمية إلى منح الجائزة للفائز بها، وشيكا بقيمة الجائزة، ويكون الدافع لمنح الجائزة عرض قصير لإنتاج الفائز، ولكن يحدث أحيانا أن تمنح الجائزة عن إنتاج بعينه.

وقد ظل الطابع الأصلي لإجراءات الحفل السنوي الكبير للجوائز كما كان منذ عام 1786، فمنذ هذا العهد يقام الحفل في القاعة الكبرى بمبنى البورصة الملكية، وفي هذه القاعة الجميلة توجد منضدة مستطيلة

مغطاة بقماش أزرق حولها ثمانية عشر مقعدًا، ولكل عضو مقعده طبقًا لرقمه، ولكن السكرتير يجلس دائمًا عند أحد طرفي المنضدة وأمامه المدير (ينتخب رجل المقعد لمدة ستة شهور) وقد بنيت – على طول أحد جانبي القاعة، بالقرب من منضدة الأكاديمية – شرفة للأسرة المالكة فوقها شرفة للصحفيين، ويحتفظ بصف المقاعد الموضوع تحت الشرفة الملكية مباشرة لرجال الحكومة وغيرهم من الشخصيات الأخرى البارزة، في حين يشغل أقارب الأكاديميين، وبخاصة العضو أو الأعضاء الجدد الذين سيضمون إلى الأكاديمية في المساء عدة صفوف من المقاعد.

ويعتبر الحصول على بطاقة لهذا الحفل السنوي شرفا كبيرا، لأن عدد مقاعد الجمهور عددها محدود (600 مقعد فقط)، ويحجز كثير منه لرؤساء المصالح. وتحمل بطاقة الدخول عبارات تقول: "إن الحفل الكبير يبدأ في الساعة الخامسة، وأن الأبواب تفتح في الساعة الرابعة" ولكن الجمهور يكون في الانتظار فوق الدرج قبل ذلك الموعد ليتمكن من الفوز بأحسن المقاعد وأقربها إلى منضدة الأكاديمية على قدر المستطاع.. ولا تحمل المقاعد أرقامًا، ولكن الخدم الذين يرتدون ثيابًا ذات شرائط ذهبية يرافقون الرجال الذين يحملون النياشين والنساء بحليهن المتألقة إلى المقاعد الشاغرة. ولا يدخل الأكاديميون من غرفة اجتماعاتهم الواقعة عند أحد طرفي القاعة إلا بعد أن يجلس أعضاء الأسرة المالكة ورجال القصر الملكي المختارون. وحين دخول الأكاديميين يقف لهم الجميع ومن بينهم أعضاء الأسرة المالكة، وبعدئذ يجلس الأكاديميون فوق مقاعدهم، ولكن من النادر أن تجتمع الأكاديمية كلها في الحفل الكبير.

ويفتتح الحفل بخطاب يلقيه المدير، وغالبًا ما يدور هذا الخطاب حول حادث تذكاري وقع في أثناء العام. وإذا كان هناك عضو جديد سيقدم فإن السكرتير يدخله من غرفة الاجتماع، ويقف هذا العضو بجانب مقعد السكرتير ويلقي خطابه عن سلفه في حين تومض أضواء "الكاميرات" من شرفة الصحفيين، ولكن القاعدة أن تستغرق كلمته نحو نصف الساعة أو أقل، ويجيب المدير على الخطاب فيعرب عادة عن إحساس الأكاديمية أيضا بما لحقها من خسارة نتيجة لموت العضو الراحل، ويقدم التهنئة للعضو الجديد، ثم يعلن أسماء الأشخاص الذين سبق أن شغلوا مقعده، وحينئذ يوقع الأكاديمي الجديد على القانون ويأخذ مكانه. وإذا كان هناك أكثر من عضو جديد، فإن الثاني ينتظر دوره في غرفة الاجتماعات إلى أن يأخذ الأول مكانه، ثم يتكرر الحفل.. وإذا لم يكن هناك أعضاء جدد، فربما يقرأ أكاديمي قصيدة شعر أو موضوعًا كتبه.. ثم تعلن أسماء من فازوا بجوائز الأكاديمية، ولكن الحاصل على ميدالية الأكاديمية الذهبية الكبرى هو وحده الذي يتسلم جائزته بشخصه.. ويستغرق الحفل عادة نحو الساعتين، ولا تعزف موسيقى في هذا الحفل الرسمي. وفي حين يهبط الجمهور الدرج العميق بين الحراس الذين يرتدون ثيابًا من جلد الدب، تجتمع هيئة الأكاديمية في غرفة السكرتير لتناول طعام العشاء، وغالبًا ما يدعى الفائز بالجائزة، أو شخص آخر شديد الصلة بالأكاديمية، لتناول طعام العشاء مع الهيئة.

دائرة الشكوك

نوبل جائزة مدهشة ومبهرة، لما لها من عالمية الصيت وما في طياتها من قيمة المال، ولما تتمتع به من ركائز تراكمية من الزمن، حيث تجاوزت في هذا المنحى أكثر من قرن من الزمان،

إلا أنها رغم كل ما توفر لها فهي مازالت مُثيرة للخلاف حول مصداقيتها وعدالتها ولم تنجُ من الاتهامات، فقد وضع عدد كبير من الكتَّاب والمفكرين والنقَّاد جائزة نوبل في الآداب داخل قفص الاتهام، ووجّهوا لها عدداً من النقائص والتهم التي سنعرض لها.

العنصرية:

يرى البعض أن جائزة نوبل عنصرية تكرّس للآداب الغربية، ولا تلتزم بوصية نوبل الذي كان حريصًا على أن تكون الجائزة إنسانية عالمية، فقد كانت من قبل أوروبية المنشأ غربية مغالية في غربيتها، فلم تبتعد عن توجهات الأدباء الغربيين أو مَن يدورون في فلكهم، من حيث تيمة الموضوعات المتبادلة أو طريقة الكتابة أو الأيديولوجية التي تتحكم فيما يكتبون، ويمكن التأكد من ذلك من خلال فحص ثلاث مراحل على الأقل لكشف طبيعتها في كل مرحلة على حِدة.

المرحلة الأولى: قبل الحرب العالمية الأولى من عام 1914 و1918 وما بعدها حتى ما بين الحربين، سيطر عليها هذا المحور الغربي ويتحكم فيها شبح نمط معين من الرؤية الفكرية، ولكنها كانت حيادية إلى حد ما في رؤيتها، لأن الخلاف كان غربيًا داخليًا فاتخذت مقعدًا حياديًا داخل الحضارة الغربية الواحدة.

المرحلة الثانية: وولوجها إلى دهليز من الانحياز المتتابع، بعد أن سقط عنها قناع الحيادية وخاصة في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي إبان الحرب الباردة وتداعيات ذيولها، ولعل رفضها من قبل الفيلسوف الفرنسي "جان بول سارتر" لهو أكبر دليل على رفض صفة التحيُّز في مانحيها، وهي بذلك استخدمت للنيل من الاتحاد السوفييتي، حيث داومت على أن تمنح لمعارضي سياساته من الأدباء والمفكرين، هذه بعض من مثالب كشفت عن تراجعات في الأهداف الأساسية للجائزة.

ومن تداعيات السقوط أفاقت الأكاديمية السويدية من كبوتها في لجة الانحياز هذه، مستفيدة من سهام النقد التي صوّبت لها في هذا الخصوص، فخرجت من الانحياز السياسي، لتدخل مرحلة جديدة في محاولة لإيجاد صفة من التوازن في المرحلة الثالثة، بأن خرجت من المحورية الأوروبية والغربية المحددة إلى العالم الآخر، فاتسع مجالها لتشمل أدباء من أمريكا اللاتينية والأدباء الطليعيين الداعين إلى التغيير والثورة مثل "ماركيز" وصولًا إلى الأدب الإفريقي: "وول سونيكا وجورديمر".

ومن ناحية أخرى فقد اتهمت مجدداً بالخضوع لتوجهات سياسية معينة، والخضوع للعنصرية اللغوية، بمعنى أنها تكاد لا تنظر إلا إلى كتابات خطت بلسان اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، ولأسباب أخرى اعتذر عنها بعض الكتاب، وبإيجاز يرى المنتقدون للجائزة أنها كرّست في الأساس للآداب الغربية وأسست تراتبية تضع هذه الآداب في القمة، وكل ما عداها على درجات سلم للهبوط فقط.

كما أنها تتهم بتحيُّز ظاهر للعيان لبعض الكتُّاب اليهود وإهمال كتُّاب العالم الثالث، فمثلاً لم يحصل عليها كاتب مهم مثل "بورخيس" الذي ظل يمثل ضمير النص الحداثي والمتغير، في حين حصل عليها بعض الذين لا يستحقونها – من وجهة نظر المنتقدين – مثل الشاعر الإسرائيلي "عجنون"!.

ومع ذلك يرى البعض أن الجائزة وإن كانت تهتم بالاتجاه السياسي في الأساس للمبدع أو المفكر، فإنها تظل منفردة بميزة التنوّع خلال السنوات الأخيرة، وذلك لنيل أدباء من إفريقيا وأمريكا اللاتينية واليابان لها مما يُعد إضافة لها.

لجنة التقييم:

لقد كانت وصية ألفريد نوبل تحدد مهمة الأكاديمية القائمة على الجائزة، وتتلخص في "اختيار رجل أو امرأة، قدّم أو قدّمت للبشرية خدمات جليلة في مجالات شتى من بينها مجال الأدب، وإلى كاتب أو عمل أدبي ذي وحي

مثالي"، غير أن التجمع القائم على الأكاديمية الآن لا يؤدي مهمته إلا على مضض، فمن بين الأعضاء الثماني عشر لا يوجد إلا قلة هي التي تقرأ الرواية أو الشعر.

في الواقع وحتى السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، كان المستوى الأدبي لهؤلاء الأشخاص الـ 18 مستوى ضعيفاً جداً، فأصحاب الذوق الأدبي لم يكونوا يشكّلون جزءًا من هذه المجموعة، قد يبدو الأمر – من وجهة نظر المتهمين – هو نفسه اليوم، فلو نظرنا إلى الذين تتألف منهم الأكاديمية، لوجدنا أن أفضل ثلاثة عناصر منهم وهم الكتَّاب "ورنر أسبنستروم" و"كيدستين أكمان" و"لارس جلليستين" أُحيلوا إلى أجازة قصيرة منذ سنوات!

فـ "توماس ترانستومر" مثلاً الذي تفوق شهرته العالمية جميع الشعراء السويديين الآخرين لم يستدع للجائزة بأي شكل من الأشكال، كذلك نجد إنكست ولارس لورن ولارس جوستا منسون وإنجمار برجمان واستريد ليند جرين وسارا ليدمان، وهم جميعاً من السويديين المحترمين في جميع أنحاء العالم، بخلاف أعضاء اللجنة، قد نجحت الأكاديمية في تجاهلهم بشكل مستفز.

وفي الحقيقة يتألف هذا التجمع من أساتذة بشتى المجالات إلا مجال الأدب، ومتوسط أعمارهم يبلغ 70 عاماً، والأدهى من ذلك لا يستطيع أحد استبدالهم إلا حين يغيبّهم الموت، أما سكرتير الأكاديمية "ستور ألن" أصبح عضوًا في عام 1980، وقد جاءوا به في البداية لكي يبرمج على

الكمبيوتر قاموس اللغة السويدية، إذ إنه – ومنذ الستينات في القرن العشرين – يستعمل الكمبيوتر في أبحاثه اللغوية، ويلاحق ما يطرأ عليها من تغير، وفي عام **1986** خلف ستور ألن، لارس جيلليتستين في المنصب، الذي رغب في الابتعاد عن تلك الوظيفة كي يجد الوقت لكتابة رواياته، وقد سُر جداً لتسليم المشعل إلى خلفه، إذ اعتقد أنه رجل حذر، من السهل إدارته، لكنه وقع في خطأ قاتل!.

ولم يكن "ألن" فقط باحثاً عن السلطة، ولكنه كان باحثًا عن الشهرة أيضًا، وبما أنه أصبح الناطق الرسمي باسم الأكاديمية، فقد فرض على الجميع تقديم نفسه بصفته حاملًا جائزة نوبل لعام **1987** لجوزف برودسكي في إحدى الحلقات التليفزيونية المباشرة، والتي ثبت أمام ما يقارب المليار مشاهد، وكان من جراء خطابه – الذي وصف بأنه أخرق – أن استقال على الفور خمسة أعضاء من الذين يحضرون لاختيار الأكاديمية.

وبما أنهم يحسنون الصمت داخل هذه الجمعية، استطاع الأعضاء أن يبقوا – سرًا – هذا الصراع الداخلي، لكن في عام **1987**، ونظرًا لاشتداد الأزمة خرجت القضية إلى العلن، بسبب فضيحة أخرى أرقت مضجع أعضاء الأكاديمية: فبعد فتوى إهدار دم الكاتب سلمان رشدي التي صدرت من قبل آيه الله خوميني المرشد العام في إيران بسبب رواية "آيات شيطانية"، طُلب من الأكاديمية مساندة الكاتب، بيد أن "ألن"

رفض الاقتراح بحجة أنه ليس على الأكاديمية أن تتخذ مواقف حول موضوعات سياسية، وهذه الإجابة قُوبلت بشكل سيء في العالم.

وإزاء عدم قدرة "ألن" على معالجة هذه المسألة، وجد ثلاثة من الأكاديمية أنفسهم في عطلة قسرية وفقدت الأكاديمية معها كثيرًا من هيبتها، فأصبح هناك ثلاثة مقاعد فارغة بشكل يائس، أضف إلى ذلك أنه من الطبيعي جدًا أن يكون العضو العجوز مشرفًا على الموت، لذلك فإن الأعضاء الـ 18 ليسوا في واقع الأمر سوى 12 شخصًا، وبهذا لم تنقص القيمة الثقافية للتجمع فقط، بل ازداد ضغط العمل على الحاضرين أيضًا.

ومن ناحية أخرى تشكّل الأكاديمية منظمة غنية جدًا ومستقلة بشكل كبير، لا تدفع ضرائب، وفي خزينتها اليوم أكثر من مليار كورون سويديًا، ولا أحد يستطيع معرفة حساباتها على وجه الدقة ولا كيف تحرّك أموالها، إلا أن الأعضاء الـ 18 هم من الأغنياء الذين يتمتعون بحرية لا نجدها في أية مؤسسة دولية، فقد أتاح المال للأكاديمية سلطة تمارسها تحت أنظار خصومها وأصدقائها، وبما أنها توزّع العديد من المنح والجوائز، حتى أكثر من السويد نفسها، فإن الأكاديمية تبدو ذات قدرة خارقة، لدرجة أن قلة من الناس تجرأوا على نقدها مع العلم أن حولها يتنامى فساد مالي كبير.

وعلى المستوى العملي كيف تتم صناعة نجم نوبل جديد كل عام؟
إن ذلك يمتد العمل على مدار السنة يبدأ في الأول من شهر أكتوبر من كل عام، يتم خلاله إرسال استمارات إلى 1500 أستاذا في الأدب وإلى

جمعيات الكتَّاب وإلى نوادي القلم في أنحاء العالم وإلى فائزين سابقين وفيها تمنى باقتراح أسماء ومرشحين جدد.

يُنتقى من هذه الاستمارات حوالي 200 اسما وفي شهر مايو تجتمع لجنة نوبل، لتحدد لائحة تتضمن 15 اسمًا يتم دراستها عن قرب، ويتم استشارة خبراء من العالم بأسره، وعند نهاية شهر مايو، يتم إخراج قائمة ثانية تتضمن خمسة مرشحين فقط، يعكف الأعضاء كلهم على قراءة أعمالهم خلال فترة الصيف، ويتم اختيار الفائز من بينهم خلال اجتماعات اللجنة التي تعقد في شهر سبتمبر من كل عام، ويشارك على الأقل 12 عضوًا في التصويت النهائي، ولكي يختار الفائز عليه الحصول على الأغلبية المطلقة بموافقة نصف الأصوات + واحد.

ومن البديهي أن ينال الجائزة – إلا نادرًا – الكتَّاب الذين تُباع كتبهم بأعداد هائلة، فإحدى مهام الأكاديمية تكمُن في لفت الانتباه إلى عمل أدبي جدير بالتقدير، ويستحق أن يكون معروفًا أكثر في العالم، وإذا تفحصنا جيدًا الفائزين في السنوات الأخيرة، لاحظنا سريعًا أن الجائزة كانت منظمة من هذه الناحية.

ويمكن تلخيص الاتهامات التي وجّهت للجائزة على النحو التالي:

أولاً: تحيُّزها الكبير للقارتين الأوروبية والأمريكية وبتحديد أكبر للنمط الحضاري الغربي، رغم أن هناك العديد من الأنماط والأشكال الإبداعية الجيدة ليست على النسق الأوروبي والطابع الغربي، وإنه إذا كانت الجائزة

إنسانية عامة فلا بد أن تنفتح على تجارب وإبداعات وأشكال مغايرة ومختلفة، وهو ما بدأت بالفعل تأخذ به في السنوات العشر الأخيرة والمطلوب أن تزيد اتساعاً حتى تشمل قارات العالم كلها.

ثانياً: مطلوب من الجائزة توسيع دوائر الترشيح، فلا تقتصر لجنة التقييم على الدوائر القريبة منها أو الواقعة في منطقة إدراكها ونفوذها، بمعنى أن تكون لها مرتكزات ترشيحية في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا لتوسع من منظورها.

ثالثاً: على الجائزة أن تبتعد عن السياسة والعنصرية والضغوط المختلفة، وأن تنأى بنفسها عن مواطن الشبهات، حتى ينجلي تماماً وجهها العادل المحايد أمام دول العالم أجمع، وأن تراعي فيما هي تمنح أن تختار لجوائزها العدالة المطلقة.

فمن غير المعقول أن يحصل أكثر من بلد أوروبي صغير خلال مائة سنة من عمر الجائزة، على مرات فوز متعددة لأدبائه ومبدعيه، بينما لا يحصل بلد في حجم الصين الحضاري والإبداعي والسكاني على الجائزة ولو لمرة واحدة!

رابعاً: يرى المنتقدون أن جائزة نوبل صارت جائزة الذائقة التقليدية، فباستثناء حالات نادرة من الضغط الجماهيري والإجماعي على لجنة الجائزة مثلما في حالة اختيار "ماركيز" للفوز بها 1982، لم تخرج الجائزة أبدًا إلى أفق المغامرة في اختيار نماذج إبداعية جديدة، فلقد سيطرت عليها الذائقة

الكلاسيكية التي تجاوزها أصحاب الأرقام التوزيعية الضخمة من المبدعين في العالم.

خامساً: ثمة اتهام خطير يوجّه إلى (نوبل) الجائزة، وهو أنها إلى جانب الانحراف في المجال السياسي، فهي أيضاً تدقق في هويات الممنوحين وانتماءاتهم الفكرية، حيث صار معروفًا أن مَن يخدم أغراضًا صهيونية يصبح قريب المنال من جائزة كريمة الهدف كجائزة نوبل التي لم يعُد لها أي بُعد إنساني، وصارت مكشوفة في هذا الانحراف الذي يفقأ العين بوضوحه، ويرى أولئك المنتقدون أن الجائزة قد فقدت مصداقيتها منذ زمن بعيد.

ومع أن نوبل حصلت عليها عِدة أسماء قليلة خارِج الجغرافيا الأوروبية والأمريكية، إلا أنها لم تبتعد عن وصفها جائزة للإبداع والإنسان الغربي، وإذا ما حصل أحد المبدعين عليها فإن هنالك أسباباً معقولة لدى الغرب من أجل منحه هذه الجائزة، ففي تاريخ حياة الجائزة فازت الولايات المتحدة الأمريكية بأعظم نسبة وهي **199** مرة وتأتي إنجلترا في المرتبة الثانية، في حين أن الأكاديمية السويدية المسئولة عن الجائزة، تؤكد على عدم اهتمامها بالجانب الجغرافي ارتباطًا بوصية نوبل، إلا أن الذي يحدث أن الجانب الجغرافي لعب لعبته الواضحة، ومثال على ذلك أن الجائزة لم تمنح لأي أديب خارج أوروبا خلال عامي **1998-1997**، كما أن الأكاديمية طالما أعلنت أن الفائز بالجائزة لن يخضع لأسباب سياسية تخص القائمين بأعمال تلك الأكاديمية، إلا أن تلك الأسباب كانت وراء حرمان الكاتب الروسي "ليو تولستوي" من أن يفوز بها، ولقد فضح تلك الحقيقة "ستوري

ألين" السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية، حيث كان "ليو تولستوي" حيًا حينما بُدئ توزيعها، "بأن السبب أيديولوجي"، ففي بداية القرن الحالي كان السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية هو "كارل ديفيد" الذي كان يؤمن بهرمية من أربع طبقات: الرب، الملك، السلطة، الشعب، وكان يعارض منح الجائزة لمن لا يؤمن بهذه الهرمية، وحيث إن "ليو تولستوي" كان يعترض على هذه الهرمية فإنه أصبح بعيدًا عن نيل الجائزة، فضلاً عن أنه كتب في رسالة إلى الأكاديمية السويدية أنه لا يريد الجائزة، وأنه ليس بحاجة إلى المال.

ومهما كان نصيب المبدعين في أماكن أخرى بعيدًا عن أوروبا والقارة الأمريكية، فإنه يبقى نصيبًا قابلًا للجدل، فالجوائز انحصرت في أغلبيتها على مبدعي الشمال في الكرة الأرضية، في حين أن نصيب مبدعي الجنوب يكاد يكون لا يُذكر، ولعل كون أعضاء لجان نوبل في منح الجائزة هم من الغرب وشمال الكرة الأرضية سببًا في ذلك، فضلًا عن أن الأكاديمية يندر أن تختار أعضاءً من دول العالم الثالث، حيث يُعتبر هذا الأمر واحدًا من السلبيات التي تؤخذ على لجان الاختيار، ومهما قيل عن عدالة منح الجائزة وعدم انحيازها إلا أن هنالك معطيات تشكك في ذلك، فالجائزة كانت ومازالت منحازة للأدب الأوروبي والأمريكي، ولا يكفي فوز اسمين أو ثلاثة في إفريقيا وآخر من آسيا أو من أمريكا اللاتينية لتكون نوبل بحق (جائزة إنسانية عالمية)، إذ إن آداب دول الجنوب والشرق منها خاصة الغنية بعمقها وتجربتها وعطائها المتجدد بحاجة لأن تلتفت لها هذه الجائزة برؤية منصفة.

من جانب آخر تبنت نوبل بطريقة غير مباشرة الخطاب والأدب العنصري الإسرائيلي تحديدًا، فالكاتب الإسرائيلي "صموئيل عجنون" الذي حصل على جائزة نوبل عام 1966 كانت كل كتاباته لا تخرج عن الدعوة التاريخية الإسرائيلية العنصرية، إنها – رسالة إسرائيل إلى العصر – كما جاء في تقرير اللجنة التي منحت هذه الجائزة لصموئيل عجنون.

كما أنه من الواضح أن الانحياز السياسي والعنصري للشخصية اليهودية هو الذي أدى إلى فوز أسماء وتجاهل أسماء أهم، فلقد فاز "خوسيه ثيلا" الذي لم ينظر له كأديب وحسب، فلقد لعبت رئاسته لجمعية الصداقة الإسرائيلية – الإسبانية دورًا بهذا الفوز، كما أن الجائزة حُجبت عن الروسي ليو تولستوي ليأخذها بعد حين مواطنه "بوريس باسترناك" اليهودي الديانة، مع أن الأول هو أعظم الكتَّاب الذين أنجبتهم روسيا، إن نوبل لم تعُد مقابلة للإبداع بشكل مجرد، وإنما أصبحت محصلتها النهائية تتشكّل تحت مجموعة من العوامل والتوازنات السياسية أو العنصرية، إذ مُنحت في فترة لأدباء وروائيين بسبب انشقاقهم عن المعسكر الشيوعي السوفييتي خاصة، كما أن هنالك كتَّاباً نالوا الجائزة بفضل التعاطف مع موقفهم السياسي لا أكثر، ومن هنا فإن الجائزة دخلت في نفق السياسة أو العنصرية على حساب الجانب الجغرافي الذي أشرنا إليه، حتى أصبحت ثقافات لأقوام متعددة على وجه البساطة بعيدة عن التفكير بهذه الجائزة، إذ صار بحكم المفهوم أن مؤسسات صهيونية سيطرت بشكل غير مباشر على قرار منحها ليس في مجال الأدب وإنما في المجالات السياسية والعلمية، وهكذا فإن جميع تلك المؤشرات تدلل اليوم على أن مستقبل مصداقية

هذه الجائزة في عملية منحها سنويًا بعيدًا عن التأثيرات العنصرية، إنما هو مستقبل مهدد بالطعن ليس من خارج القائمين عليها وحسب وإنما من القائمين والمقررين أنفسهم، فهم وصفوا تاريخ هذه الجائزة فيما مضى تحت الشكوك والريبة المدعومتين بعِدة اجتهادات معززة بإثباتات لم يجب عليها القائمون والمقررون، وهكذا يبقى تاريخ نوبل في خطر، الذي هو أهم من القيمة المادية التي تُمنح للفائز، حيث إن هناك جوائز عالمية مماثلة قد تمنح قيمة مالية أكبر، إلا أنها لا تمتلك تاريخ هذه الجائزة التي صارت سهلة الطعن نظرًا لخصوصية تحركات القائمين عليها، حيث يوجّهون الجائزة نحو ثلاثة محاور: مساندة الفكر الإسرائيلي الصهيوني، دعم الثقافة الأوروبية والأمريكية، أي الغربية بشكل عام، والمحور الثالث هو التشجيع على فوز أولئك الذين يقتربون من المحورين السابقين، وهم كتَّاب عادة ما يكونون من بلدان الجنوب في العالم، غير أن الاستثناءات لخصوصية تلك الرؤية تبقى مجرد استثناءات تشكّل حالة عادية، وقد يفوز كاتب ما يمثل قومية أو تجمعًا لغالبية من الثقافة المتواجدة في جغرافية معينة لتشكيل توازن تحتاج له آلية توزيع الجائزة، ولكن مع هذا وذاك، فإن سياسة منح الجائزة ستبقى بحاجة إلى إماطة الستار والكشف عن خبايا أخرى بصددها، غير أن كل ما سيكشف من جديد لن يخرج الجائزة من دائرة الشكوك.

نافذة عليا

ببرود ودون اكتراث تأملوا الجائزة التي منحت لهم، دقت أبوابهم، وبلا مبالاة رحّب البعض بها، وبعضهم رفضوها وخاطبوها من نافذة عليا، الجائزة الحلم ينكسر كبرياؤها عند عتباتهم، ويُطاح بها دون هوادة بمواقف تستنكر وجودها كجائزة.

أية جائزة هذه التي يخصصها مخترع ديناميت للأدب؟ ذلك ما قاله عنها الكاتب الأيرلندي الساخر "جورج برناردشو" بعد رفضها، فهل يمكن أن تكون تلك العبارة مفتاحًا مناسبًا للغاية للخوض في هذا الموضوع، أم نهتدي بما قاله الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر عنها والذي رفضها هو الآخر عام **1964**، حيث وصفها بقوله "إنها تعرقل مسيرتي كمكافح وإنسان متمرد، والكاتب ليس عنصرًا يمكن أن نميزه من خلال ما يحصل عليه من شهادات تقدير أو تكريم"، وإذا كان الأديب الروسي "بوريس باسترناك" الذي فاز بها عام **1958** قد رفض استلامها تحت ضغوط السلطات السوفيتية وحسب ما تورد مصادر عديدة، إلا أن هذا الكاتب كان أصلاً متوافقاً للغاية مع رفضه للجائزة، حيث أعلن بنفسه أنه لن يذهب لاستلامها.

وفي السويد – وطن الجائزة – كتب المسرحي السويدي "أوجست سترندبرج" مقالًا تهكميًا حول هذه الجائزة، بعد أن فاز الفرنسي "سالي

بوردوم" على أول نصيب منها عام **1901**، حيث رأى سترندبرج أن منح الجائزة كان متناقضًا تمامًا مع وصية نوبل، حيث وضح سبب ذلك في المقال الذي أشرنا إليه، ومما جاء فيه "إن الفائز بهذه الجائزة لا بد أن يكون قد كتب بشكل (مثالي)، إلا أن مصطلح مثالي حُرِّف إلى معنى آخر، فأصبحت كلمة (مثالي) تعني تمسك الكاتب بالمثل الأساسية، وهذا شيء مختلف تمامًا"، كما أن سترندبرج أشار في مقاله الذي أثار ضجة في الأوساط الأدبية والسياسية ولدى القائمين على الجائزة إلى أن هذه الجائزة كان يشترط عليها – وحسب وصية نوبل – أن تُمنح لشخص ينتج عملًا أكثر بروزًا في التوجه المثالي، وهكذا نبعت وتفاقمت تأويلات بين كاتب يكتب بمثالية وآخر يكتب لترسيخ التوجه المثالي، ولقد بقيت اتهامات سترندبرج قائمة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، وزيدت تلك الاتهامات بتأويلات إضافية كلها تشكك وتصب في معايير الاختيارات التي تؤسس نفسها حول عدم الأخذ بوصية نوبل، ولقد أضفت سخرية أو رفض عدد من الفائزين بالجائزة خلال تاريخها مسحة أخرى من عدم حياديتها، أو تأكيد ما تقاذف نحوها من اتهامات لم تعرف الذبول، ولم تدخل دائرة النسيان، إذ إنها تنتعش بشدة في كل فوز جديد مع عامٍ جديد.

ولكن ماذا تقول نوبل بشأن ذلك كله؟ وهل نظرت لكل مظاهر السخرية أو الاتهامات أو الرفض نظرة غير مبالية هي الأخرى؟ إنها لم تفعل ذلك بالتأكيد، حيث حاولت اللجان المتعاقبة على الجائزة إضافة أو تحوير عِدة معايير كي تنقذ نفسها مستقبلًا من تهكمات قادمة ومن كل أرجاء العالم، ولا بد هنا أن نقف على تلك المعايير التي أُضيفت أو عُدلت، وهي

تحاول فقط أن تجمع وبشمولية حالات الضعف التي تأسست عليها اختيارات ماضية، حيث تمت الإشارة إلى الوصية المكتوبة في سعيها نحو (مثالي)، التي أوّلت إلى (متمسك بالمثل العليا) في أحايين، وأخرى إلى كتابات (بصيغ وأساليب مثالية) وهذا ما أوقع الجائزة بمأزق بعيد عن الحيادية الأدبية، فعودة لتاريخ الجائزة يمكن أن ينفع ليذكرنا أن الجائزة لم تتمسك بشرط – إلى أولئك الذين سيقدّمون للبشرية الفائدة الأعظم – وإنما تمسكت بالأسلوب الفخم والريادة والموقف البرجماتي والاهتمام الكوني، فضلاً على تداخلها بالموقف السياسي.

إن الأكاديمية السويدية المشرفة على جائزة نوبل اعترفت ضمناً بعد أن أجرت التعديلات الخمسة بأن هنالك خللاً ما في الاختيارات، وهذا هو تعليل أساسي لذلك البرود والجفاء اللذين قُوبلت بهما الجائزة من عدد من الحاصلين عليها، أو الذين لم يحصلوا عليها، ولقد كانت قوة الصدمة كبيرة، تلك التي وجهها جورج برناردشو في عام **1925** حينما وقفت نوبل عند بابه، إذ أعلن هذا الكاتب أنه في غنى عنها لأنه وصل إلى بر الأمان، ولا حاجة له إلى طوق نجاة، وبذلك كان "برناردشو" يؤكد على أن نوبل مُنحت قبل أن تمنح له لأدباء مغمورين ولا يمتلكون الأهمية الإبداعية التي عنده.

وقد كان للصراع والحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي في فترة الستينات أثره الواضح على مجمل العلاقات بين هذين القطبين، وليس بمقدور أحد أن ينكر أن هذا الصراع قد ألقى بظلاله على جائزة

نوبل، إذ تحوّلت عام 1958 إلى لعبة شد وجذب سياسي، هذا عقب فوز الروائي الروسي "بوريس باسترناك"، حيث حددت لجنة نوبل روايته (الدكتور زيفاجو) كأساس لمنحه الجائزة، ولن يستبعد هذا الاختيار والتحديد من الأرضية السياسية، إذ كانت قد مُنعت من النشر من قبل السلطات السوفيتية لأنها تتعرض لحالات الفوضى التي ألمت بروسيا عقب ثورة 17 أكتوبر، وهكذا يكون باسترناك ضحية سياسية بين طرفين، الأول هو نظام بلاده والثاني هو جائزة نوبل، والتي كان عليه أن يرفضها امتثالًا لتعليمات سلطات السياسة السوفيتية، واستنكارًا لتحويله كمخلب قط يشاكس به الغرب النظام الاشتراكي آنذاك، إذ كان من الواجب والأجدى على المشرفين على جائزة نوبل أن يبعدوا هذه الجائزة عن حلبة الصراع السياسي، والأمر لم يكن صعباً بالنسبة لهم، هذا إذا كانوا قد صرفوا النظر عن تحديد رواية (الدكتور زيفاجو) كسبب لمنح باسترناك الجائزة، والذي زج في مأزق مُحرج كان لا بد فيه أن يعلن عنه ويرفض الجائزة.

وبالنسبة لجان بول سارتر الذي تربع ولفترة مهمة من الزمن كأهم فيلسوف معاصر رأت فيه أجيال عديدة أنه مرآة لها، فهو أيضًا قد تعامل مع الجائزة بكبرياء، واعتبر أن حصوله عليها لن يزيد أو يقلل من قيمته الروائية والفلسفية، ولقد نشر سارتر مقالًا في نفس العام الذي توجهت له الجائزة شرح فيها الأسباب والدوافع التي جعلته لا يستقبلها، ومن ضمن تلك الأسباب التي أشار إليها أن الجائزة ستعرقل مسيرته كرجل مكافح وإنسان متمرد، فضلًا عن وجود أسباب سياسية لا تتفق مع توجهات سارتر المفكر والأديب، الذي آمن غاية الإيمان بحرية المبدع وحرية كل

البشر، فهو يرى أن الكاتب ليس عنصرًا يمكن أن نميزه من خلال ما يحصل عليه من شهادات تقدير أو تكريم أو هبات، كما أن سارتر من النوع الذي يرفض – ولأسباب شخصية بحتة – أن يقوم الآخرون بالحكم عليه حتى لو كان الأمر يتعلق بتكريمه، وما الجائزة بالنسبة إليه سوى قيد، وكان لا بد عليه أن يتعامل معها من منصة أو نافذة عليا، يفهم ما تريد، لكنه لا يُعانقها!.

وهناك أدباء عديدون فازوا بالجائزة وأبدوا نوعًا من السخرية اللاذعة منها، سخرية لا تخلو من إيحاءات ذكية، فالكاتب العربي نجيب محفوظ علّق ساخرًا بروحه الفكهة لمجموعة من زملائه قائلًا: لن أُدعى بعد ذلك بنجيب محفوظ وإنما بنجيب (محظوظ)، أما الكاتب والفنان المسرحي الإيطالي "داريو فو" الذي دافع بأسلوبه وكتاباته المسرحية عن مصالح المضطهدين والقرَّاء برؤية جريئة لاذعة ساخرة، فقد ارتضى بالجائزة، إلا أنه حوّل هذا الإهداء من شخصه إلى جميع فناني الشوارع وضحايا انتهاكات حقوق الإنسان، واعتبر فوزه بالجائزة انتصاراً للفكاهة، وحرية الضحك على النفس، وخصوصًا على أولئك الذين يتربعون على مقاليد السلطة بطريقة مرعبة ومفجعة وساخرة كذلك.

المراجع

أولا : الكتب والأبحاث:

– إعداد لجنة الجوائز العالمية: مؤسسة نوبل.. ماهيتها ونظامها، كتب جائزة نوبل، القاهرة، 1966م.

– آليس مونرو: قصص، ترجمة: أحمد شافعي، الكتب خان، القاهرة، 2014.

– توني موريسون (رواية): أغنية سليمان، دار العودة، بيروت 1994م.

– جراتسيا داليدا: الأم، روايات جائزة نوبل، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1992

– حسب الشيخ جعفر (ترجمة): جابرييلا ميسترال، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998.

– خالد غازي: نساء نوبل (الفائزات بالجائزة في الآداب)، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، 2010

– رشاد عبد الله شامي: الأدب الإسرائيلي وحرب 1967، دار الفكر للدراسات، عمان، الأردن،1990.

– سيغريد أندسيت، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، 1999.

– عباس محمود العقاد: جوائز الأدب العالمية.. مثل جائزة نوبل، دار المعارف، القاهرة ، 1994.

– عبد السلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1979م

– عبد القادر الشاوي: غابرييلا ميسْتْرال: ذاكرة الشعر، جريدة العربي الجديد، لندن، ع16 يونيو 2015

– عبد الله زكريا الأنصاري :أدب المعاناة، مكتبة الربيعان، الكويت، 2004م

– فيسوافا شيمبورسكا: الشاعر والعالم: دار المدى للطباعة والنشر، دمشق ، 1997م

- مجموعة من المؤلفين: أفضل القصص القصيرة في القرن العشرين، تحرير:جون أبدايك وكاترينا كنيسون، ترجمة: فؤاد سروجي، نسخة إلكترونية بدون تاريخ نشر
- ماهر شفيق فريد: تساعية نقدية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2007م
- مجموعة مؤلفين: مدخل إلى دوريس ليسنج، أزمة للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
- محاضرات الفائزين بجائزة نوبل للآداب (2000–2010)، ترجمة: عبد الودود العمراني، مراجعة: وفاء التومي، الدار العربية للعلوم ناشرون ، وزارة الثقافة والفنون قطر ، 2011
- محمد بوذينة: جوائز نوبل للآداب 1901– 1990، دار سيراس للنشر . تونس، 1991.
- محمود قاسم: موسوعة جائزة نوبل 1901 – 1995، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
- منيرة عبد الجواد، سهير القلماوي: بيرل باك أول أمريكية تفوز بجائزة نوبل، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963.
- ميشيل خوري: جوائز نوبل 1901– 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . سوريا 1990.

ثانيا : الدوريات :

– سفيتلانا ألكسيفيتش (حوار)، ترجمة: أحمد الزبيدي، جريدة المدى العراقية، **9** أكتوبر **2015**.

– سفيتلانا أليكسيفيش: اجمع النفايات التي تتركها الحياة واصنع منها فنا، ترجمة: مرفت عمارة – عن الجارديان البريطانية، أخبار الأدب القاهرية، **17** يوليو **2016**

– كتّاب لم يعرفهم العرب قبل الفوز بـ"نوبل"، مهند الصباغ، الاتحاد الاماراتية، **21** أكتوبر **2015**.

– لؤي المدهون: ألفريدي يلينيك، إنها الهواجس فسحة الإبداع الوحيدة، مجلة فكر وفن، ع **80**، السنة الثالثة والأربعون **2004**، معهد غوتة .

– هاتف الجنابي: فيسوافا شيمبورسكا شاعرة المتناقضات نوبل **1996**م، مجلة نزوى، سلطنة عمان، ع **1**يناير **1997**.

– هيرتا مولر: مجلة القافلة، بحث منشور، ع يوليو – اغسطس، **2010**.

– هيرتا مولر الكتابة أنقذت نوبل: ترجمة: سعيد بوخليط، مجلة نزوى، سلطنة عمان، ع **1** أبريل، **2010**.

ثالثا : ويكيبيديا، https://ar.wikipedia.org/wiki.

الفهرس

التفاحة الذهبية

هذا الكتاب

هل ثمة من عوامل وسمات مشتركة تجعل من نساء نوبل يقفن بدرجة واحدة تحت مظلة محددة من حيث اصطفافهن وفق معيار تميز الأداء الإبداعي؟.. وهل من دوافع أخرى محفزة تجعل من الضرورة تناول سيرة حياة وإبداع هؤلاء النسوة؟

لا شك أن أسطورة نوبل والفوز بها، تشبه الأحلام واللا معقول والمفاجأة، حيث تبقى الدهشة ما بقيت نوبل تمنح جوائزها.

أربع عشرة امرأة فقط فزن بالجائزة في محيط بحر زاخر من الرجال، فغدون كنقطة في محيط، فهل يمكن القول بأن الجائزة ذكورية الهوى لا مكان لحواء في تدافع عطائها إلا ما ندر؟ فيما تلاشى تباعاً كل اسم أي مبدعة عربية كانت أو آسيوية السمات من المبدعات في أفق الجائزة، هذا إذا افترضنا جدلاً أن ثمة أسماء من هذا القبيل قد تم ترشيح أسمائهن سلفاً.